الفَصْلُ الثَّالث

الحِوارات التَّابعيَّة .. أسْئِلَةٌ وَرُدُود

نعرض ضمن هذا الفصل مجموعة من الحوارات المُتَنَوّعة، وهذه الحِوارات تتضَمَّنُ في مجموعها ما يُقارِبُ خمسينَ من الأسئلة والاستفسارات تدور في مجملها حول التَّربية الرُّوحيَّة والسُّلوك والتَّرقِّي في مراتب التَّقوىٰ.

obeikandl.com

الحِوار الأوَّل[1]

حول «حقيقة التَّصوُّف وأسباب التَّخُوُّفِ منه ومعنى حُبُّ الوَطَنِ»

بعد تلاوة مباركة لآيات قرآنية كريمة كَلَّفَ العارف بالله والدَّالُّ عليه الشَّيخ الجليل عليّ تابعي بن الصّادق الحسنيِّ الشَّريف رضي الله عنه، السيِّد أحمد بدوي أحد «مقاديم»[2] الطريقة التَّابعيَّة بمدينة أولاد جلال (ولاية بسكرة)، بالمُذاكرة[3]، وكانت مداخلته قيِّمة علىٰ ضوء الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [**الأحزاب: 41**]، وخُلاصتها: خيرُ المجالِس مجالس ذِكْر الله، الذِّكْر مَمْلكةٌ وجنَّة لا يدخلها إلا الذَّاكرون، ذِكْر الله علىٰ كلِّ حين باللِّسان يكون بالثَّناء عليه وتنزيهه، وبالجوارح بالاستقامة علىٰ منهج الله، وبالقلب بأنْ يرْتَعَ في حَضْرة الله ويستأنس به، ما هي ثمرة الذِّكْر؟ إنها لثمرة يانعة فهي صلاة الله علىٰ الذَّاكرين، أي رحمته لهم وإخراجهم من ظلمات المعاصي إلىٰ أنوار الطَّاعات، ومن ظُلمة الغفلة إلىٰ نور الحضور ومن الشَّكِّ إلىٰ اليقين.

وبعد المذاكرة أنشد المُنْشِدون مدائح نبويَّة شريفة وقصائد ربَّانيَّة شجيَّة، اهتزتْ لها القلوبُ وترنَّحت لها الأرواحُ. وفي نهاية مجلس السَّماع هذا، تدخَّل الشَّيخ الجليل عليّ تابعي رضي الله عنه، وبعد حمد الله والثَّناء عليه والصَّلاة علىٰ نبيِّه الكريم قال سماحته: «إنِّي علىٰ عِلْم من أنَّ أفكار الشَّباب خصوصًا، مُشَوَّشَةٌ ممَّا يسمعونه من البعض عن طريق التَّصوُّف ومنهَجه، ومن الأمور المُحرَّفة عن

---

(1) حِوار شَيِّقٌ في مَنْهَج التَّصَوُّف والحياة الرُّوحِيَّة في الإسلام، دار بزاوية مدينة بسكرة بين الشَّيخ الجليل عليّ تابعي ومريديه والضُّيوف الحاضرين.

(2) **مقاديم مفردها مُقَدَّمُ**: وهو مَنْ قُدِّمَ من طرف شَّيخ الطَّريقة لخدمة الفقراء المُرِيدِين، والسَّهر علىٰ شؤونهم من تذكير أو تعليم، وهو مُمَثِّلُ الشَّيخ ونائبه في منطقته المتواجد فيها ومُبَلِّغٌ عنه.

(3) **المذاكرة**: من ذَاكَرَ يُذَاكِر مُذَاكرة، والمذاكرة كلام يفيضه الله ﷻعلىٰ ألسنة العارفين تُشْحَذُ به الهِمَمُ، وتُحَرَّكُ به البواعث، وتندرج تحت قوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الأعلىٰ: 9].

الحقيقة، ولعلَّ الشَّباب يسمع من جِهات مُعيَّنة أشياء غير صحيحة عن التَّصوف خصوصًا والتَّربية الرُّوحية عمومًا، ولذا مَن كان له سؤال فليتفضَّل به».

وبدأ الحاضرون في طرح انشغالاتهم علىٰ الأستاذ الفاضل الشَّيخ علي تابعي، فجاء السؤال الأول من طرف أحد الشّباب. وهذه هي الأسئلة الواردة مع أجوبتها.

❁ ❁ ❁

السُّؤال الأول: سيِّدي الشَّيخ المُحْترم، أنا أذكرُ الله تعالىٰ بمفردي ولا أحِبُّ أن أكون صوفيًّا، فبماذا تنصحونني جزاكم الله خيرًا؟

الإجابة: وأنت لماذا لا تريدُ أن تكون صُوفيًّا وسؤالك ينقلبُ عليك؟ وهل هناك شيء يضرُّك بدنيًّا أو عائليًّا أو سلوكيًّا من انتسابك إلىٰ مقام الإحسان؟ ولماذا لا تريدُ أن تكون كامل الدِّين والإيمان؟ مع العِلْم أنَّ التَّصوُّفَ الحقيقي هو الرُّكْن الثَّالث من أركان الدِّين.

وعلينا أنْ نُفَرِّق بين المُتصوِّف والصُّوفي، فالمُتصوِّف مُدَّعٍ، والصُّوفيُّ هو المؤمن الحقيقي، ويستطيع المرء أنْ يجلِس في أي حلْقة من حِلَق الذِّكْر، ولكن إذا أراد أنْ يتحصَّل علىٰ ثِمار الذِّكر ونتائجه عليه أنْ يلِج باب التَّصوُّف، وينتمي إلىٰ طريق التَّربية والتَّرقي في مقامات ومراتب التَّقوىٰ واليقين، وهذا أحسن من بقائه خارج مجال السُّلوك، لأنَّ كثيرًا من النَّاس يذْكُرون وليس الذِّكْر خاصًّا بالصُّوفيَّة.

ولكي يرفعك الذِّكْر إلىٰ السَّير في مقامات اليقين لابدَّ من الانتساب إلىٰ طريق التَّربية، لأنَّ التَّصوُّف هو الرُّكن الثَّالِث من أركان الدِّين المُسمَّىٰ بالإحْسان، غير أنَّ الإحسانَ المعروف الآن والذي نسمعه في المساجد هو مجرَّد تعريف الإحْسان، فيُقال مثلاً: الإحسانُ أنْ تعبدَ الله كأنَّك تراه فإن لم تكنْ تراه فإنَّه يراك، أو يُقال: إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ علىٰ كلِّ شيء، فإذا قتلتُم فأحسِنوا القِتلة، وإذا ذبحتُم فأحسِنوا الذِّبْحَ ... وهذا الغالب في تعريف الإحسان عند البعض،

ولكن الإحسانَ في الحقيقة يدخل في كلِّ حياة الإنسان تعبديَّة أو تعامليَّة أو سلوكيَّة وسواء كانتْ دينيَّة أو دنيويَّة.

ولكي يرتقي المؤمِن في مراتب التَّقوىٰ لابدَّ له من مُعايشة التَّصوُّف الذي هو مقام الإحسان والرُّكْن الثَّالِثُ منْ أركان الدِّين المُستفاد من حديث جبريل عليه السلام حين سأل النَّبيَّ ﷺ عن الإحسان فقال: «**الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ، فإنْ لم تكُنْ تراهُ فإنَّه يراكَ**».

ومِن هذا المنطلق نُدْرِك أنَّ مقام الإحسان أي التَّصوُّف فرض عَيْنٍ علىٰ كل مُسلِم ومُسلِمة، وليس في حُكم فرضِ الكفاية أو السُّنَّة أو المُستحبِّ، لأنَّه يُعالج الأمراض الباطنيَّة، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: 120]، فإنْ كنتَ تَدَعُ ظاهر الإثم وترتكب باطنه فأنتَ مريض ولو كنت تزعم أنَّك صحيح، وهذا هو الشَّيء الحادِث والذي لا يفهمه كثير من النَّاس.

ومن المؤسِف له أنَّ كثيرًا من الشَّباب يسمعون عن التَّصوُّف كلاما باطلا لا صحَّة له وغير موافق للحقيقة. هذا وإنَّ النُّفوسَ البشرية جُبِلَتْ علىٰ حُبِّ الباطل، فتأخذه سريعًا كالمغناطيس إذا وُضِعَ علىٰ الحديد يتعلَّق به ويرفعه، فكذلك نَفْسُ الإنسان تقبل الشَّرَّ سريعًا بدون تفكير، وتركنُ إلىٰ الانحراف بسهولة.

وأمَّا في ميدان الاستقامة فإنَّ النُّفوس لا تقبله إلا بعد التَّفكير والتَّدبُّر، ولماذا؟ لأنَّ هذا فساد في عقيدة الإنسان وخاصَّة أنَّنا لا نأخذ عقيدتنا من الجِهة الصَّحيحة، فإمَّا أنَّها عقيدة مورُوثة وتقليديَّة مليئة بالشُّكوك والأوهام، وأمَّا أنَّها عقيدة عِلْمية لا روح لها، يعني أنَّها شقشقة لسانيَّة لا حقيقة إيمانيَّة. وقد نجدُ مَن يحفظ العقائد كلَّها وكأنَّها قرآن، ولكنَّه لا يتفاعل معها ولا تتفاعل معه، لأنَّ العقيدة لها ثلاث مراحل كمراحل اليقين، ومن بينها:

المرحلة الأولىٰ: العقيدة التَّقليدية، وهي عقيدة الآباء والأمَّهات حيث أنَّ الشَّرْع يحثُّ الأسرة المُسلِمة علىٰ غرس الدِّين في قلوب أطفالها بعد الوِلادة

مباشرة، فيُؤَذَّن للمولود في أذنه اليمنىٰ، وتُقام له الصَّلاة في اليُسرىٰ، وليس ذلك فقط، بل يأمرنا الدِّين بأنْ يتولَّىٰ الآذان والإقامة رجلٌ صالِح من المُسلِمين.

وكما يأتي في اليوم السَّابع دور العقيقة وهي ما يُذْبَح علىٰ المولود، وهل تظنُّ أنَّ هذا مُجَرَّدُ لعبٍ؟ لا، إنَّ ذلك له هدفٌ وهو أنْ يكون أوَّل شيء يُلامِس عقل المولود، العقيدة. وقد كان الصَّحابة ﷺ يأخذون أطفالهم الصِّغار للنَّبيِّ ﷺ ليُؤذِّن لهم في اليُمنىٰ، ويقيم لهم الصَّلاة في اليُسرىٰ، ويُحَنِّكَهُم بالتَّمْر.

ولماذا كلُّ هذه الأمور؟ ذلك لأنَّ الإسلامَ يحرصُ علىٰ غرْس العقيدة في هذه الفِطرة والخِلقة والنَّسمة النَّقيَّة، لأنَّ شهادة أنْ لا إله إلاَّ الله تشمل الصِّفات الواجبة والمستحيلة والجائزة في حقِّ الله ﷻ، وشهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله تشمل الصِّفات الواجبة والمستحيلة والجائزة في حقِّ رسول الله ﷺ، ولهذا نغرسها في عقول الأطفال، وبعد ذلك تأتي الصَّدقة والعقيقة وغير ذلك.

وهذا الأمر الذي نفعله للصَّبي ورغم أنَّه لا يفهمنا، ولكنَّه يعرِف أنَّها عقيدة، وهو الذي شاهدناه في الصَّبيِّ عندما يُؤَذَّن له في يمناه، وتقامُ له الصَّلاة في يسراه، يحصل له جذْبٌ ويُصْبِح في حيْرة، ويسكنُ ولا يتحرَّك، وهذا يعني أنَّه يعي القضيَّةَ أكثر ممَّا نعيها نحن، وهذا مشهود من قِبَل الكثير. وهكذا يُلَقَّنُ الصَّبيُّ العقيدة الأولىٰ وهي أساس التَّربية إذا لم نقلْ أنَّها تبدأ مِن أبعد من هذا كيف ذلك؟

أجل لقد قال رسول الله ﷺ: «**اخْتَارُوا لنُطَفِكم فإنَّ العِرْق دسَّاس**» وماذا نختار؟ نختار أمَّهات لأطفالنا، ولكن علىٰ أيِّ أساس؟ هلْ علىٰ أساس المال أو الجمال أو السُّلطان أو الجاه؟ إنَّ من حقِّ الأبناء علىٰ الآباء أنْ يختاروا لهم أمهات علىٰ أساس العقيدة والدِّين. إذن التَّربية تبدأ قبل ولادة الصَّبيِّ، فنختار له أمًّا طاهرة نقيَّة تقيَّة، وليس شرطًا أنْ تكون صاحبة شهادة كالدُّكتوراه وهي ليست علىٰ خلق حميد، لأنَّ مثل هذه الأمّ ليستْ مدرسة، وإنَّما هي مَهلكة ومَفسدة.

والأمُّ المدرسةُ هي المؤمِنة التَّقية التي تُعَلِّم أبناءها التَّقوىٰ والعقيدة والأخلاق والدِّين وكلَّ ما يُرضي الله ﷻ.

والرَّسول ﷺ يقول: «**إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»[1]، وما معنىٰ الفِتنة والفساد في الأرض؟ معناه أنْ يتربَّىٰ الأطفال علىٰ الانحراف، وبالتَّالي ينتشِرُ الفساد وتعمُّ الفِتنة كما هو واقع الآن في المجتمعات.

وهكذا هو الإسلام يريد النَّقاوة علىٰ النَّقاوة، فإذا كان الأبُ نقيًّا والأم نقيَّة فسيكون نسلهما طيِّبًا نقيًّا بإذن الله. ولنعد بعد هذا إلىٰ السُّؤال المطروح فنقول: إنَّ ذِكْرَ الإنسان لربِّه هو شرط لإقبال العبد علىٰ الحقِّ ﷻ. أو ليس الحقُّ تبارك وتعالىٰ هو الذي خَلَقَ العباد، وهو الذي صوَّرهم، وهو الذي جمَّلهم، وهو الذي أنطقهم، وهو الذي حرَّكهم، وهو الذي أسمعهم؟! فلِماذا هذه الانعزاليَّة عن الله؟ ولماذا هذا الفِرار من الله؟ ألكثْرة إنعامه عليك فأنتَ لا تُقْبِل عليه؟

والمفروض أنَّ الحقَّ ﷻ يدعوك بالنِّعم لتُقبِل عليه، فإنَّ في إقبالك عليه الهِداية والحِماية والحصانة، وكلُّ ما تبحث عنه موجود عنده، ولكنَّك ترفض ذلك وتبحث عن سعادتك في الخارج وفي الانعزالية عنه، فلماذا أنت شارِدٌ عن باب سيِّدك ومولاك؟ فلا ضارَّ ولا نافع إلاَّ الله ﷻ. وكيف تخاف من ذِكْر الله ﷻ الذي قال: ﴿**فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ**﴾ [**البقرة: 152**]، ألا تريد أنْ يذكرَك ربُّك؟ وأنت غافل عن الذِّكْر نتيجة تصوُّرات وهمية شيطانيَّة ونفسيَّة تصوِّرها لك النَّفْسُ، لأنَّ النَّفس أخبثُ من سبعين شيطان، وكلُّ مَن يرضىٰ عن نفسه فهو شقيٌّ، وهذا لا يعني أنَّ من كان غير راضٍ عن نفْسه فهو سعيد تلقائيًّا.

ولتعلمْ أنَّ الرِّضا عن النَّفس من علامة الأشقياء، وليس من علامة السُّعداء، والمطلوب منك أنْ تجاهدَ نفسك، فقد سئل ﷺ عن أفضل الجهاد، فقال: «**أَنْ تُجَاهِدَ نفْسَك وهَواكَ في ذاتِ الله**»[2]. وكيف تجاهد نفسك وأنت لا تعرف شيئًا

(1) رواه ابن ماجه والطّبراني

(2) رواه الدَّيلمي عن أبي ذرٍّ.

عن الله؟ هل بالكلام الفارغ والتسكُّع في الطُّرقات وفي الأسواق، وبتضيِّيع الوقت في المقاهي والطُّرقات؟ هذا غير ممكن.

ولا بدَّ أنْ تأخذ الحِماية لنفسك، وتُرَسِّخ العقيدة السَّليمة في قلبك، وتهتمَّ بما طلبه منك الشَّرع. واعلَمْ أنَّ كل ما طلبه منك الشَّرع وكلَّفك به هو في خدمتك، والعبادة إنَّما جاءت لتخدمك.

إنَّ خِدمة الشَّرع لك من كرم الله عليك، والعبادة يتقرَّب بها العبد إلىٰ الله، ولكنَّها تخدم العابِد نفسه، وهل الله يحتاجك لتعبده وتطيعه؟!.

وقد أمرك الله بالصَّلاة ليصِلَك به، وأنت لم تقبلْ لتبقىٰ مقطوعًا ولا تكن مَوْصُولاً. وهذا هو الحقُّ المُرُّ الذي لا يقبله الكثير من النَّاس، ويبدأ أحدهم إذا دعوتَه للسَّير والسُّلوك بالتَّفَلْسُفِ، ويضع الخطوط الحمراء حتىٰ لا يسير ولا يستقيم في منهج الله ويضيع الوقت والعمر.

هذا وإنَّ أعمارنا تُعَدُّ بالأنفاس ولا تُعَدُّ بالسَّنوات، ونحن مغرورون نطيل الأمل في الدُّنيا وكأنَّنا نملِك وثيقة من الله بأنَّنا سنعيش دهرًا طويلاً، ونقول في أنفسنا حتّىٰ نُكمِل كذا وكذا ونفعل كذا كذا، وهذا كلام غير معقول، وهو كلام المُنْعَزِل عن ربِّه، وحديث الذي لا يشعر بأنَّه في قبضة الله جلَّ جلاله، وهذا هو المشكل القائم الآن، والفِتن التي نراها في وطننا في هذا الوقت ونحتار فيها كِبارًا وصغارًا سببُها انحراف عن الدِّين والإيمان والإحسان، وبصفة عامَّة سببها بُعدُنا عن منهج الله، فأين الحلُّ إذن؟

ويكمن حلُّ المُعْضِلة السَّابقة في الرُّجوع إلىٰ الدِّين وفي العودة إلىٰ العقيدة الصَّحيحة والسَّليمة، لأنَّ فيها الحماية، وفي الإسلام الحصانة، وفي الإيمان الوِقاية، فإذا جمع الله تبارك وتعالىٰ لك هذه الأمور الثَّلاثة أي الحماية والحصانة والوقاية فأنت محفوظ بإذنه ﷻ.

إنَّ شعورنا بالانعزال عن الله هو الذي يجعلنا نعتقد أنَّ الله في المسجد فقط، فإذا خرجنا من المسجِد نشعر بالانعزاليَّة عن الله ونتيه مع أنفسنا، ونستدل

بقوله تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: 10]، ولكن ننتشر في أرض مَن؟ هل في أرض الشَّيطان، أم في أرض النُّفوس، أم في أرض الهوىٰ؟ ألم نُفكِّر في أرض مَن سَنَنْتَشِر؟

ونحن عندما نسمع الآية الكريمة السَّابقة نفهم وكأنَّ الحقَّ ﷻ يقول لنا هيَّا أخرُجوا من المسجِد هُمَّلاً وافعلوا ما شئتم، وهذا فهم سقيمٌ وفسادٌ في العقيدة. والحقيقة أنَّ الأرض التي أُمِرْنا أنْ ننتشرَ فيها هي أرضُ الله، وهو الذي خلَقَهَا وصنعها وحرَّكها، وقام بتدبير أمرها من الدَّاخل والخارج، فأين هي الانعزاليَّة التي تطرًا علينا؟ وهل الأمرُ بيد الله أم بيدك؟

وهل تمشي بقُدرتك الخاصَّة برجليك إلىٰ المسجد أم باقتدار من الله؟ أنتَ لا تقدر إنَّما هذا اقتدار من الله لك، فكثير مثلك لهم أرجل ولكن لا يستطيعون المشي بها، وهذا يُعَدُّ مِثالا شاردًا من الله إليك، وكأنَّه يقول لك: إن لم تُطعني بهذه الأرجل فسأجعلك مثله، وسأعجزك عن الحركة.

وأنتَ إذا لم تُطِع اللهَ برجليك فإنَّك تُعرِّضهما للعطب، لأنَّ الأرجلَ الطائعة شاكرةٌ، والأرجل العاصية ناقمة، ومن العِصيان عدم تذكُر مولاك في أرجلك التي تمشي بها.

وهذا هو المقياس فأنت تمشي في أرض الله وباقتدار الله، ولو أخذتَ مِجهرًا ورأيتَ ما في رجليك فسترىٰ عجبًا، فتقول سبحان الله هذا الشَّيء كلَّه في رجلي وأنا لا أعلم، وهذا الأمر يدعونا إلىٰ الله جلَّ في عُلاه. وهذه الأرجل تعصي الله بالانعزاليَّة عنه وبعدم الشُّعور باقتدار الله لها وصنعه إيَّاها، وقد نسبها الحقُّ ﷻ إليك نسبة مجازيَّة لا نسبة حقيقيَّة. فمن كرَمِ الله عليك أنْ خَلَقَ لك رِجلين ونسبهما إليك، ولكنها نسبة تقدير واحترام لا نسبة غفلة وعِصيان.

وإذا عدنا قليلا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10]، وكأنَّه قال: انتشِروا في أرض الله، ثم قال: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقلْ ابتغُوا من فضْل

أموالكم، ولا من فضل جُهدكم، ولا من فضل قُوتكم، ولا من فضْل عِلْمِكم، ولا من فضل غِناكم، ولكن نحن لا نفهم القرآن، لأنَّ قلوبَنا مُقْفَلَة، وقد قال الحقُّ ﷻ: «﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24].

إذن لابدَّ من معرفة الإنسان لنفسه ومعرفة الصَّانع له، فمثلاً نحن نشتري طاولة من النَّجار، وعندما تفسد هل نأخذها إلىٰ الحدَّاد ليُصلِحها؟ ولا شكَّ أنَّ هناك مُصْلِحًا لها يعرف قوانين وأسرار صنعتها وهو النَّجار، وكذلك أنت مَن صَنَعَك؟ هو الله، ومِن هنا فأنت لا تصْلُح إلا بمن يعرِف قانون صَنْعَتِك، ولذا قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123].

ومن أراد أنْ لا يشقىٰ في الدُّنيا والآخرة فليُحَصِّن نفسه بهدي الله الموجود في دينه وشريعته وسنَّة نبيِّه ﷺ، وهذا هو الهدىٰ وأنت تتركُه وتفرُّ إمَّا لعادات العائلة أو للنُّفوس المائلة أو للأهواء الضَّالة، فكيف تصلح؟ أنت تُخَرِّبُ نفسك من الدَّاخل ومن الخارج، وتُخَرِّب مَن هم حواليك ومنهم أولادك، لأنَّك تُعلِّمُهم انحرافًا عن منهج الله، ولا تُعْطِهم مقوِّمات الصَّلاح، بل تُعطيهم مُقوِّمات الفساد رغم أنَّك تَدَّعي الصَّلاح في نفسك، ومعنىٰ هذا أنَّك لا تستخدم عقلك بشكل سليم.

والعقل هو الذي يعرِف البدائل، ويعرف الحقَّ من الباطل والهدىٰ من الضَّلال والصِّدق من الكذِب وأيهما أضرُّ، ومَن لا يستعمل عقله لإصلاح دينه ونفْسه ومجتمعه وأهله وأمَّته فهو فاسد، وهو إمَّا أنْ يستعمل عاطفته أو هواه أو شهواته، لأنَّه لا توجد له عقيدة راسخة في الدِّين، وليستْ له أرضية إيمانيَّة متِينة، ولكنْ إذا حدَّثته بحقيقة الدِّين يقول لك: يا أخي أنا أصلِّي كما ترون، وأنا أواظِبُ علىٰ صلاة الجماعة في المسجد وأصوم فماذا ينقصني؟ ونحن لمثل هذا نقول: ينقصك أنْ تتفاعل مع الطَّاعات والعِبادات وتتفاعل معك وتُعايشها قلبًا وقالِبًا.

ونحن لو تمعنَّا في صيامنا مثلاً هل أثمر فينا هذا الصِّيام؟ لا، ولماذا لم يُؤثِّر فينا؟ لأنَّنا حوَّلنا شهر الصِّيام والعبادات إلىٰ شهر الأكُلات، والغَرْبُ يريد منَّا أن نكونَ أكَّالين لا صائمين، ويريد أن يردَّ ديننا الإسلامي إلىٰ طقوس لا عِبادات ربَّانية. والدَّليل علىٰ أنَّنا لم نتفاعلْ مع عبادة الصِّيام هو انحراف الصَّائم في نهاره وليله، والنَّبيُّ ﷺ يقول: الصِّيام جُنَّةٌ، يعني وِقاية وحِماية، ودعونا حتَّىٰ لا نتعمَّق في هذه التَّفصيلات، لأنَّ الأمور كبيرة جِدًّا علىٰ عقولنا، ولكن لنبقىٰ في الخارج ندُقُّ الأبواب.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الدِّينَ ليس بالمفهوم الذي نفهمه نحن، وحتَّىٰ الصَّلاة فهي صِلة بين العبد وربِّه في حقيقتها تَنْهَىٰ عن الفحشاء والمُنْكر، ولكن هذه الثَّمرة مفقودة وغير ملموسة في صلاتنا. ولو لاحظنا مساجِدنا تكون مملوءة يوم الجُمعة، فإذا خرجنا من المسجد وعاينا المجتمع نجد الكثير منهم -ولا نُعَمِّم لأنَّ هناك الطَّيِّبينَ- يعودون إلىٰ ما كانوا عليه فالذي يغشُّ يعود إلىٰ غِشِّه، والذي يسرِق يعود إلىٰ سرِقَته، والذي يكذِب يعود إلىٰ كذِبه، وكلٌّ يعود إلىٰ شرِّه -والعياذ بالله- وكأنَّه لم يكنْ يُصَلِّي، وهذا هو الموجود في المجتمع.

ولكن هلَّا بحثنا عن الأسباب التي أدَّت بنا إلىٰ هذا الحال؟ ولو سأل كلُّ واحد منَّا نفسه لماذا أنا أصلِّي وكلَّما خرجتُ من الصلاة أعود إلىٰ ما كنتُ عليه؟ لا شكَّ أنَّ العيبَ ليس في الصَّلاة، وإنَّما العيبُ في المُصَلِّي الذي لم يتفاعلْ مع الصَّلاة، ولم يعِشْها حقيقة بروحه.

السُّؤال الثاني: نرجو منكم شيخنا الجليل أنْ تعطونا لمحة عن التَّصوُّف، ومتىٰ ظهر هذا المفهوم؟ ولماذا يفِرُّ النَّاس من كلمة التَّصوُّف؟ وما هي البيئة التي نشأ فيها؟ وهل التَّصوُّف هو الرُّكْن الثَّالث من الدِّين، أم هو طقوس وعادات، وبِدَعٌ وخرافات؟

الإجابة: التَّصوُّف جاء مع النَّبيِّ ﷺ، وقد بدأ منذ أنْ بدأ الإسلام ونزل الوحيُّ، والتَّصوُّف هو الدِّين، وهو الوحيُّ القرآنيُّ الرَّبَّانيُّ والسُّنَّة النَّبوية المُطهَّرة،

والدِّين له وجهة حِسِّيَّة ووجِهة معنويَّة، والتَّصوُّف هو الوجهة المعنويَّة للدِّين، ولنأتي بمثال بسيط على ذلك، فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 24]، من هذه الآية يتبيَّنُ لنا أنَّ كلَّ شيء دعانا الله ورسوله إليه فيه حياة بلا شكٍّ، وهذه الحياة يجب أن نحسَّها.

والحياة المقصودة هنا ليستْ الحياة الحيوانيَّة البهيميَّة، لأنَّ هذه الحياة تشاركنا فيها سائر الحيوانات، ويشاركنا فيها اليهود والنَّصارى، والمجوس وعُبَّاد النَّار، وعُبَّاد العِجْل وغيرهم، فأيُّ حياة يدعونا الله ورسوله إليها؟ وعندما قال الحقُّ ﷻ: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فكأنَّه يقول: يا أيُّها المؤمنون إنْ أردتُم الحياة الحقيقية الرَّبَّانيَّة الإيمانيَّة التي تُربِّي قلوبكم وعقولكم وتُطَهِّر نفوسكم، وتُصلِح أبدانَكم وأفكاركم وأولادكم وأموالكم، وتُصْلِحُ لكم كلَّ شيء، استجيبوا لما يدعوكم إليه اللهُ ورسولُه، فإنْ استجبتم فتلك هي الحياة الحقيقية، وهي العروج من الحياة البهيميَّة إلى الحياة الرَّبَّانيَّة.

ومِن هنا نستطيع أنْ نقول أنَّ التَّصوُّف أو مقام الإحسان هو روح الإسلام، وقد قال الله عزّ وجَلَّ لسيِّدنا محمَّد ﷺ في حقِّ أهل الصُّفة: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: 28]، ولم يقلْ يُريدون الجنَّة أو يريدون الحسنات، أو يُريدون قضاء الحاجات. وقد وصف الله ﷻ هؤلاء الذين أمر نبيَّه ﷺ أنْ يصبِر معهم بأنَّهم يدعون ربَّهم بالغداة والعشيِّ، ونحن الآن عندما نقول لأحد أذْكُر الله في الصَّباح والمساء يعترِض علينا المُعْتَرض ويقول: هذا الأمر غير جائز، ولماذا تأمرون المُريد بهذه الأوراد صباحًا ومساءً؟.

ولو سألنا أحدهم ما هي الصَّلاة؟ أليستِ الصَّلاة دعاء وذِكْرًا؟ ونحن لا نفرِّق بين الدُّعاء والذِّكْر والصَّلاة، وقد اختلطت علينا الأمور. وعندما قال الله ﷻ لنبيِّه (عليه الصَّلاة والسَّلام): ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ﴾ فكأنَّه يقول له: لا تَرَى غيرهم، لأنَّك

عندما تراهم يُذَكِّرونك الله، وهذه علامة من علامات أولياء الله، وعندما سُئِل النَّبيُّ ﷺ: مَن نجالسُ بعدك يا رسول الله؟ قال: «جالِسُوا مَن تُذَكِّرُكُم باللهِ رُؤْيَتُه، ويزِيدُكُم في العِلْم منطِقُه، ويُرغِبُكُم في الآخرة عَمَلُهُ»، وهل نحن نجالس هؤلاء الذين دلَّنا رسول الله ﷺ عليهم؟ لا، بل لو طالبونا بالجلوس معهم ليُذَكِّرونا الله لجئنا بالأعذار، وهذا كلُّه هروب من إصلاح النَّفْس.

إذن التَّصوُّف بدأ منذ مجيء الوحيِّ، وقد قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]، وكأنَّ تلاوة الآيات إنَّما جاءت لتزكية النُّفوس وطهارتها ونقاوتها والعودة بها إلىٰ ربِّها، ولو تتبَّعنا مراحل الوحيِّ مِن الوَعْدِ والوعيدِ، والأحكام والتَّشريعات، والأوامر والنَّواهي، والقَصص والأخبار، لوجدنا فيها حياة، وفيها صلاح وإصلاح، ونقاوة وتطهير، ولكن هل لمَن يقرأها في كتاب؟ لا، بل لمَن يعيشها بقلبه وبروحه، وعندما يقرَأ المؤمن القرآن الكريم يشعرُ بأنَّ ربَّه هو الذي يخاطِبه، فيستحضر في قلبه عظمته وجلاله، ويمتلأُ قلبُه بنور الإيمان، ويفيضُ علىٰ جوارحه فينجذِبُ إلىٰ ربِّه جذْبًا، ويُحِبُّ ربَّه حُبًّا، ويكون في معيَّته في سائر الأحوال.

إنَّ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلىٰ أنَّ السَّبب في انصراف العَبْد عن الذَّاكرين حُبُّه للحياة الدُّنيا، والتي قال الله تبارك وتعالىٰ في حقِّها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: 5].

والحقيقة أنَّ الحياة الدُّنيا بكاملها ليستْ مُنعزلة عن الله ﷻ، بل هي مخلوقة مِن مخلوقاته وموجودة به، لأنَّه هو الذي أوجدها، وهو الذي يعدمها متىٰ شاء، وفي كلِّ لحظة هناك أشياء تُعْدَمُ وأشياء توجد في هذا الكون، وحتَّىٰ عن طريقك يحدث ذلك، ولكنَّك لا تشعر بها ولا تتفاعل معها، لأنَّك تراها من صُنع يديك، ومن رؤية نفْسك، ولا ترىٰ أنَّها من ربِّك، وهذا بسبب الغفلة التي استولت علىٰ

قلبك، ولا يكاد العبد الغافل أنْ يتذكَّر ربَّه إلا في المسجد، أو عندما تمرُّ به جنازة فيقول عندئذ: الله أكبر، الله يرحم هذا الميِّت، مسكين هذا العبد الذي يغفل عن مولاه، وهذه هي المصيبة الكبرىٰ، وأعني بها البعد عن الله.

هذه هي الحقيقة النَّاصعة للتَّصوُّف، فالتَّصوف هو الإسلام بكامله، والإسلام جسد وروح، وكلُّ ما هو في الإسلام تصوُّف علىٰ شرط لابدَّ منه هو أن يكون لك شيخٌ مختصٌّ في التَّربية الرُّوحيَّة يُبيِّنُ لك ذلك، والمشايخ أنواع، فمنهم مشايخ في ميدان الشَّرع، ومنهم مشايخ مختصُّون في ميدان التَّربية الرُّوحيَّة، وتعدُّد المشايخ كتعدد الأطبَّاء، فمنهم أطبَّاء العيون، ومنهم أطبَّاء الأسنان وغير ذلك.

إنَّ كلَّ تصوُّف خرج مضمونه عن الكتاب والسُّنَّة مرفوض وغير مقبول، وهذا مبدأ كلِّ مشايخ التَّربية الحقيقيِّين، فالعلماء الربّانيون العارفون بالله أمثال العالم الصالح سّيدي عبد القادر الجيلاني أو الشيخ الجليل سيّدي أحمد التِّيجاني (رحمهما الله)، هما من العلماء الذين بنوا أمورهم علىٰ الكتاب والسُّنَّة، ولكن للأسف الشَّديد فإنَّ بعض الأتباع لم يحافظوا علىٰ هذه الأمانة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ [مريم: 59]، وقد بلغ الأمر ببعض الأتباع إلىٰ الكذب، فيقول لك أحدهم: أنا قادريٌّ، وعندما تبحث عن حقيقته تجده بعيدًا عن القادريَّة كلَّ البُعد، وإنَّما جعل القادريَّة سِتارًا يتستَّر بها حتىٰ لا يسلك الطَّريق إلىٰ الله، وكأنَّ سيِّدي عبد القادر أصبح حجابًا يحجب النَّاس عن ربِّهم، ومعاذ الله أن يكون كذلك رضي الله عنه.

وقد تجد من بين الأتباع مَن يُزَوِّرُ علىٰ سيِّدي عبد القادر أو علىٰ سيِّدي أحمد التِّيجاني أو غيرهما، ويقولون نحن آباؤنا وأجدادنا قادريون أو تيجانيون، فنقول: أين هي ثِمار الطَّريقة فيكم؟ والقادريَّة ليست كلامًا، بل القادريَّة شريعة وحقيقة، وليست زندقة وشعوذة وأكاذيب علىٰ النَّاس، وكلُّ من يدعوك لمخالفة الشَّرع فهو كذَّاب في أيِّ طريقة كانت، مهما كانت درجته في العِلْم.

لقد أصبح بعض الأتباع يدَّعون دعاوي باطله لا أساس لها من الصِّحَّة، فقد يَدَّعِي أحدُهم أنَّ سيِّدي عبد القادر قال له: اذبح لي دجاجة أو ديكًا، وما شابه ذلك من كلام ما أنزل الله به من سُلطان، والحقيقة أنَّ سلعة سيِّدي عبد القادر ليستْ هذه، بل سلعته معروفة ونصائحه معلومة، ولا يرضىٰ بمثل هذا أبدًا.

إنَّ الشَّعوذة التي ضربت أطنابها الآن في المجتمع ليستْ محصورة في الزَّوايا فقط، ونحن نتَّهِم بها الزَّوايا باطلا في بعض الأحيان، بل هناك شعوذة حتَّىٰ خارج الزَّوايا، إذ يوجد أناس يتعاطون السِّحر، وينشرون الخرافة والشَّعوذة بين أفراد المجتمع، وليست الزَّوايا هي من أذِنَتْ لهم بذلك.

ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ اتِّهامنا للزَّوايا بالدَّعوة إلىٰ الشَّعوذة والخُرافة والضَّلال فيه نوع من الظُّلْم، وخاصَّة في وقتنا الحاضر، فإنَّ الشَّعوذة قد ضربت أطنابَها، فكلُّ أنواع الشَّعوذة موجودة الآن وبصورة أكثر من الزَّمن القديم، والكثير منَّا لا يعرف كيف يُمَيِّز بين الخبيث والطَّيِّب، وبين الصَّالح والطَّالِح؟ ولماذا؟ لأنَّنا لا نستعمل ديننا ولا نستعمل عقولنا، وليس لدينا ميزان نزِنُ به الحقائق والمفاهيم، وهذا هو المشكل القائم.

ومن الأمور التي تدلُّ علىٰ أنَّنا ابتعدنا عن حدِّ الاعتدال، التَّصرُّفات التي نلاحظها علىٰ بعض من شبابنا حتَّىٰ في الصَّلاة وهيئتها، فكلٌّ له هيئة، وعلىٰ سبيل المثال كالقَبْض والوقوف في الصَّلاة والمبالغة في تفريج الأرجل لدرجة مزاحمة المُصَلِّين والتَّضيِّيق عليهم، ولماذا يحدث هذا؟ وحقيقة إنَّ القبْضَ سُنَّةٌ ولا أحد يُنْكِرُ ذلك، ولكنَّها سُنَّةٌ فيها توازن واعتدال، وتفريج القدمين في الصَّلاة مطلوب، ولكن بشرط أن لا يُحدِث ذلك تضيِّيقًا علىٰ إخوانك في صلاة الجماعة .

إنَّ الدِّينَ يُؤْخَذُ من كبار العلماء وليس علىٰ صغارهم من الطَّلبة، لأنَّ العلماء الكبار ممَّن يخشون الله هم الذين ينصحونك ويدلُّونك علىٰ الله، ولا يغشُّونك، وهم يخافون الله علىٰ أنفسهم من النَّار، ولا يخافون عليك فقط، وحتَّىٰ إذا جهِلوا شيئًا اعتذروا لك وقالوا: الله أعلم فليس لدينا معلومات عن هذا الأمر.

إذن هذا هو التَّصوُّف بمعناه الصَّحيح، ولماذا كل هذا الخلاف والفُرقة، والحال أنَّ الدِّين واحد، والرَّبُّ واحد، والنَّبيُّ واحد.

السُّؤال الثالث: هل كلمة التَّصوُّف كانت تُذْكَرُ في عهد النَّبيِّ ﷺ أم لا؟

الإجابة: لا، لم تكن تُذْكَرُ هذه الكلمة في عهد النَّبيِّ ﷺ، ولكن في بداية القرن الثَّالث الهجري وبعد أن بدأ الفساد يَسْري في المجتمع، ظهرتْ طائفة تمسَّكتْ بالدِّين وحافظتْ عليه والتزمتْ به، فسُمُّوا بالصُّوفيَّة، لأنَّ بعضَهم كان يلبِس الصُّوف بسبب الاحتياج والفقر، وهذا مجرَّد اصطلاح ولا مُشْكِل فيه، واسم التَّصوُّف الآن هو الذي صنع المُشكلة، ولم يترك المُسلِمين يُكمِلون الرُّكْنَ الثَّالث من أركان الدِّين، والذي يخاف من هذا الاسْم نقول له: أنتَ ماذا يُخِيفك من هذا الاسم؟ فالتَّصوُّف هو مقام الإحسان، وهو أحد أركان الدِّين.

السُّؤال الرابع: أنا أريد وحدة بين المُسلِمين، ولا أريد أن يكون بينهم اختلاف، لأنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [**الحجرات**: **10**]، ونحن نلاحظ في الوقت الحالي فرقة بين المُسلمين، فما قولكم سيِّدي في هذه القضيَّة ؟

الإجابة: ليس هناك اختلاف جوهريٌّ بين المسلمين في الحقيقة، فالصَّلاة واحدة، والزَّكاة واحدة، والحجُّ واحد، فأين يختلفون؟ والاختلاف في الفروع لا يُعْتَبر اختلافًا وإنَّما سِعة وتيْسِيرًا في الدِّين إذا فهمناه فهمًا حقيقيًّا، وعن الفِرق الموجودة في كلِّ مكان هي نتاج لفراغ روحي وفراغ عقائدي، وحال الأمة الآن يدعو إلىٰ الشَّفقة لما هي عليه من التَّشتُّت والعداوة والشِّقاق. وهذا أمر يؤلمنا كثيرًا، نسأل الله تعالىٰ أن يجمع شمل أمتنا ويزرع في القلوب بذور الألفة والتراحم والتوادد.

السُّؤال الخامس: كيف نستطيع أنْ نجمعَ شَمْل المُسلِمين؟

الإجابة: نحن لم نستطع أن نجمع حتَّىٰ بين جوارحنا كأيدينا وأرجلنا وأعيننا، فكيف نجمع بين المُسلِمين؟! وهناك أشياء في ذواتنا لم نستطع الجمع بينها، وأنت الآن رغم أنَّك تستطيع أن تجمع بين يديك ورجليك جمعًا ماديًّا،

ولكنك لا تستطيع أنْ تجمع بينهما جمعًا معنويًّا وربَّانيًّا، مع أنَّهم كلَّهم خَلَقَهُم الله لك، وكُلَّهم يُذَكِّرونك بالله، فكيف لا تتذكَّر بجوارحك الله؟! وكلُّهم مُتَفَرِّقون، وكلُّ جارحة تُبعِدك عن الله لرؤيتك أنَّها جزء منك وليست مخلوقة لله ومِن صُنْعِه.

السُّؤال السّادس: سيِّدي الشَّيخ الفاضل، أردتُ أن أطرح عليكم مسألة[1]، وهي أني كمواطن ومُسلِم أعيش مع الشَّباب بكثرة بصفتي كنتُ رئيسًا للكشَّافة الإسلاميَّة في تربية الشَّباب[2] وقد لاحظتُ أنَّ هذا العصر، عصر صعْب جِدًّا علىٰ الشَّباب، وكُلُّ ما نصبو إليه كمُرْشِدين ومُربِّين هو أن نُنَبِّه أبناءنا إلىٰ حقيقة الإسلام بصفة عامة، حتىٰ ننهض بشبابنا هذا، علىٰ الطَّريق المستقيم، غير أنِّي لاحظتُ أنَّ هناك فراغًا روحيًّا عند الشَّباب مهما كانت الطُّرق التَّربوية، ونحن في منظَّمة الكشَّافة الإسلامية نُرَبِّي الشَّباب التَّربيَّة الإسلاميَّة، وننصَحُهم بالانتماء إلىٰ طُرُق الذِّكْر ليُكْمِلُوا فراغهم الرُّوحي، ولكنَّهم يواجهوننا بهذا السُّؤال فيقولون: إنَّ لدينا نوعًا من الخوف من طُرُقِ الذِّكْر واختلطتْ عليهم الأمور، فيقال هذا من القادريَّة، وهذا من التِّيجانيَّة، وهم يبحثون عن طريق تُقَرِّبُهم إلىٰ الله بشروط أقل وبتكليف أقل وفي وقت أقصر، فنرجو منكم سيِّدي الشَّيخ المُحترم أنْ ترشدوننا إلىٰ كيفية جمع قلوب الشَّباب علىٰ الذِّكْر، بارك الله فيكم؟

الإجابة: بالنِّسبة لقضية الشَّباب كما قلنا قد كثُرتْ عليه الأفكار والآراء، وهو يأخذها مُسَلَّمة ولا يستعمل عقله للتَّمييز بين الخبيث والطَّيِّب والصَّالح والطَّالح، وأنا في نظري حتَّىٰ داخل الكشافة الإسلامية علينا أن نُرَسِّخَ في شبابنا العقيدة الإسلاميَّة والآداب الإسلاميَّة وآداب السُّلوك، وآداب القيام وآداب الجلوس، والآداب مع الأب ومع الأمِّ، ومع الشَّيخ الكبير ومع الطِّفل الصَّغير، وما أكثر الآداب والخَيْرَ في الإسلام، وعلينا أنْ نغرِسَ في شبابنا حُبّ الوطن، لأنَّ شبابنا لا يعرف معنىٰ الوطن وحبّه، وعندما نقول له إنَّ حُبَّ الوطن من الإيمان، يقول لك:

(1) طرح هذا السؤال السيد محمد خزّاني أحد مقاديم الطريقة التابعية بمدينة بسكرة قبل انتسابه للطريقة.

(2) هنا يتدخَّل الشَّيخ الجليل علي تابعي ويقول: «شيء جميل». (جامع الكتاب)

هذا كلام فارغ، أنتم لم توفِّروا لي عملاً، ولم تبنوا لي دارًا، ولم تعطوني كذا، لأنَّ هذا هو مفهوم الوطن عنده، وهذا معناه أنَّه يبحث عن حظوظه الماديَّة، وكأنَّه يقول: إذا وفَّرْتُم لي عملاً ودارًا فأنا أحِبُّ الوطن، وإذا لم يكن ذلك فأنا لا أحِبُّه.

وهذا واقع موجود، وهو من سوء الفهم، لأنَّ حُبَّ الوطن شُعبةٌ من شُعَب الإيمان، ولا يرتقي إليها المؤمن لا بالصَّلاة ولا بالزَّكاة، ولا بالذِّكْر ولا بالدُّعاء، ولكن يرتقي إليها بحُبِّ الوطن، فما هو حُبُّ الوطن؟ حُبُّ الوطن هو العمل الصَّالِح، والإحسانُ إلىٰ الوطن أنْ تعمَل صالحًا في وطنك فتبني ولا تهدم، وتُعَمِّر ولا تُخَرِّب، وتُحِبّ ولا تَكْرَه، ومن معاني الإسلام أنْ تعمل عملاً صالحًا وتُتْقِنَه، وتُخْلِص فيه وتُؤدِّيه علىٰ أفضل الوجوه، وكأنَّ هذا العمل سيبقىٰ خالدًا. وفعلا إذا عملتَ عملاً بإتقان، وأخلصتَ فيه النِّيَّة لله، كان عملك هذا خالدًا، وكان دعاء الخَلْق إليك واردًا يصبُّ عليك صبًّا، وكلُّ من يتمتَّع بعملك يدعو لك بالخير.

وإذا كنتَ تعمل في الإدارة أو في المعمل، وكان عملُك فاسدًا، فإنَّ كلَّ مَن يتضرَّرُ من نتيجة عملك يدعو عليك بالشَّرِّ، وكلُّ عمل فاسد يُعَدُّ ظُلْمًا وقع منك، لأنَّ الظُّلمَ هو وضعُ الشَّيء في غير محلِّه، ولو كنتَ تعمل في مقهىٰ، وتُقَدِّم قهوة مغشوشة وغير نظيفة للزَّبائن بغير آداب، فأنتَ مُحاسَبٌ علىٰ ذلك أمام الله، وما معنىٰ الحكمة التي تقول: «اعمَلْ لدنياك كأنَّك تعيشُ أبدًا، واعمَلْ لآخرتك كأنَّك تموتُ غدًا» ؟ أي أنْ تعمَلَ عملَك وتُخْلِصَ فيه النِّيَّة، وترىٰ نفسك أمينا علىٰ هذا العمل ومسؤولاً عنه أمام الله قبل أن تكون مسؤولاً عنه أمام من يُشْرِف عليك، لأنَّه عامل مثلك .

إنَّ حُبَّ الوطن يدخل في كلِّ شيء، ولكن من يُبيِّن لنا حُبُّ الوطن؟ وهذا مشكل آخر، ولربُّما نحن نرىٰ حُبَّ الوطن في العَلَمِ أوفي شيء آخر، وهذا صحيح، فإنَّ العَلَمَ يرمزُ لحبِّ الوطن، ولكن حُبَّ الوطن حقيقة يجب أن يتعمَّق في نفوس الشَّباب وجميع الفئات، لأنَّه شيء عظيم لماذا؟ لأنَّه لولا أمن الوطن لما استطعنا أنْ نُصَلِّي أو نذْكُر، ومادام الوطن في أمْن واستقرار فنحن نعبد الله

مطمئنِّين، ونقوم بواجباتنا، ونفعل الخير، ولو كان هذا الوطن في حرب وفي مشاكل وفي مجاعة، أو فيه تَعَدٍّ عن حُرُمَاتِك وشرفك، فأيُّ خير هذا؟ بل هو شرٌّ لك ولوطنك.

ولكنَّ الشَّباب اليوم كما قلنا ليس له عقيدة صحيحة سليمة، وليس واعيًا بالخطر الموجود تجاه الوطن، وقد يُفَرِّط في أمِّه وأبيه ويُفْسِد حتَّىٰ في داره، وليس في بلده فقط، ويُفْسِد في الشَّارع وفي كل مكان، وهذا هو الواقع، وحتَّىٰ في المساجد ليس للأئمة فكرة لتربية المجتمع تربية اجتماعيَّة وطنيَّة، لأنَّهم يفهمون أنَّ هذا الشَّيْءَ خارج عن الدِّين، والحقيقة أنَّ الدِّينَ يُعَلِّمَك حتَّىٰ كيف تُخْرِجُ سيارتك للشَّارع، وأين تُوقِفُها، فإذا أوقَفْتَهَا في مكان يُزْعِجُ النَّاسَ فسيعاقبُك الله، ولا بد لك أنْ تحترمَ النَّاس، ولا تَمْشِ علىٰ الأرض كما تُحِبُّ، فهناك قانون مرور حِسِّي وقانون مرور معنوي، فالإسلام يقول لك: إذا ركبتَ سيارتك فلا تتكبَّر، ولا تتجبَّر، ولا تَتَّصِفْ بصفة العُجْب، بل قل: الحمد لله الذي رزقني هذه السَّيارة لأركب فيها، فتركب سيارتك وأنت تذكر الله وتشكره، ولا تكون مُتَكَبِّرًا علىٰ الخلْق، أو معجبًا بنفْسِك، ولا ينبغي أن تسير في الطَّريق المُعْوَجِّ، ويجبُ عليك أنْ تحترمَ إشارات المُرور ولو بدون وجود الشُّرطي الذي يُراقبك.

فهذه هي التَّربية، ويفترض أن تكون عندكم في الكشَّافة مادة تُسَمَّىٰ تربية السُّلوك في الشَّارع، أي كيف يتعامل الشَّابُ مع النَّاس، وكيف يحترِم والديْه وغيرهما؟ لأنَّ كلَّ هذا يدخل في هدف الكشَّافة، الذي هو تكوين شاب يعرِف حقَّ وطنه وحقَّ نفْسِه، وحقَّ أمِّه وأبيه ومجتمعِه، ويكونُ عبدا صالحًا ونافعًا ومهتديًا في المستقبل، ولا يكون ضالاً، وينصاع للحقِّ، ولا يُقِيمُ نفْسَه علىٰ باطل .

وهكذا يجبُ فَهْمُ حُبِّ الوطن، لأنَّنا كلُّنا مسؤولون عنه، الصَّغير والكبير، والمرأة والرَّجل، والعسكريّ والشُّرطي، ووالي الولاية وكلّ النَّاس، فكلٌّ يعمل في ميدانه من أجل هذه القِيَم التي فُقِدَتْ في حياتنا اليوم، لأنَّنا أصبحنا أنانيِّين نبحثُ عن حظوظنا الماديَّة فقط، وليس لدينا حُبُّ الوطن .

رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**حُبُّ الوطنِ من الإيمانِ**» أي شُعبة من شُعب الإيمان، لا يرتقي إليها العبد لا بالصَّلاة ولا بالزَّكاة، ولا بالصَّوم ولا بالحجِّ، ولكن يرتقي إليها بحبِّه للوطن، لأنَّ الوطنَ كَكُلٍّ هو دارُك الكبيرة، ومسكنك هو دارك الصغيرة، فإذا بدأ التَّخريب في الدَّار الكبيرة، فلا محالة أنَّ التَّخريب سيحِلُّ بالدَّار الصَّغيرة.

إذن كنْ في حماية وطنك وهو الدَّار الكبيرة، حتَّىٰ لا تَتَضَرَّرَ دارك الصَّغيرة، وتصوَّر أنَّ لدينا دارًا كبيرة كلّ أهلها يعملون لصالحها، فهل ستفسد هذه الدَّار وتُخَرَّبُ؟ مستحيل، وأمَّا إذا كان الكلُّ يعمل لتخريبها، فهل ستصلح هذه الدَّار وتُبْنَىٰ؟ مستحيل، ولابدَّ علينا من أنْ ننظر إلىٰ الدُّنيا بمنظار الدِّين، لأنَّها ليستْ مُنعزلة عن الله بل هي دنياه .

وقد لا يعجب هذا الكلام بعض النَّاس، فأنا لا أداهِن أحدًا، ولكنَّ الحقَّ أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ ويُقَال، وهذه هي الحقيقة، والذي لا يحمي بيته الكبير لا يستطيع أن يحميَ بيته الصَّغير[1].

(1) وفي آخر هذا الحِوار الشَّيِّق تُلِيَتْ آياتٌ قرآنيَّة كريمة، فكانت مِسْك الخِتام، وعلىٰ النَّبيِّ الكريم أفضل الصَّلاة وأزكىٰ السَّلام، والحمدُ لله ربِّ العالَمين. (جامع الكتاب ومدونه).

openkanal.com

الحِوار الثَّاني

حول التَّـربيَّة الرُّوحيَّة معناها وشروطها

لقد حلَّ الشَّيخ المُبَجَّلُ ضيفًا عزيزًا علىٰ فقراء مدينة بسكرة الكريمة، وهيَّأ الله ﷻ للفقيرات الذَّاكرات مجلسا[1] عطِرًا بالذِّكْر والمُذاكرات مع فضيلة الشَّيخ عليّ تابعي، وقد أفاض الحقُّ ﷻ علىٰ قلب ولسان شَّيخنَّا الجليل رضي الله عنه، توجيهات وإرشادات تُنير درْبَ الذَّاكرات المُقْبِلات علىٰ الله، وترسُمُ لهنَّ سبيل الهُدىٰ والرَّشاد. قبل أن يفتح الأستاذ الكريم للحاضرات باب الأسئلة، قال العارف بالله الشَّيخ عليّ تابعيّ رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

«الحمد لله ربِّ العالَمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشْرف الأنبياء والمُرسَلِين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين وسلِّم تسليمًا»، **أما بعد**:

بكلِّ صراحة ألم تلاحظن تغيرًا كبيرًا علىٰ أحوال الأخت الأستاذة التي تشرف علىٰ التَّدريس لَكُنَّ، وتبذل جهودًا في التَّعليم، بعد أن أكرمها الله ﷻ بالانتماء إلىٰ الطَّريق؟ لقَدْ أقبلَتْ علىٰ اللهِ فأقبلَ اللهُ عليهَا.

الدِّين ليس كلامًا، بل حقيقة يعيشها الإنسانُ، ولكن مَنْ يعيشها حقًّا؟ يعيشها مَن يعيش مع الله ﷻ، هذا هو الذي يعيشها ويتذوَّقها، ولذا علَّمنا النَّبيُّ ﷺ أنْ نقول إذا نظرنا في المِرْآة: «**اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فأَحْسِنْ خُلُقِي**»[2]، فما هي الحِكْمة من هذا التَّوجيه النَّبويِّ الكريم؟ لقد أراد النَّبيُّ ﷺ أنْ يرفعنا من رؤية الجمال لأنفسنا والتَّعظيم لها إلىٰ رؤية الجَمال لله وتعظيمه، وأراد أن يُخرجِنا من

(1) انعقدَ هذا المجْلِس الكريم في بيت السيد محمد دهيلي، وهو من أتباع الطَّريقة التَّابعيَّة وأحد أعيان مدينة بسكرة.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

ظُلمات النَّفْس، لأنَّ النَّفس عندما تتجمَّل فإنَّها تتجمَّل لغير الله، وهل الأمر سواسية عندما يُجَمِّلُ العبدُ نفسَه لله، أو يُجَمِّلُها لغير الله؟ لا ليس الأمر سِيَّان.

والجانب الرُّوحي في الإسلام هو الذي يُعطِيك هذه المُقَوِّمات، ويصبحُ العبدُ يُحِسُّ ويشعرُ بها ذوقًا، وهذا الأمر ليس خارجًا عن الدِّين، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حلاوةَ الإيمانِ، أنْ يكونَ اللهَ ورسولَه أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأنْ يُحِبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله، وأنْ يَكْرَه أنْ يعودَ في الكُفْر كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّار**»[1].

إذن كما يذوقُ أحدُنا الخبز والمرق، يذوق الدِّين أيضًا، نعم يذوق العبد الدِّين ذوقًا قلبيًّا شعوريًّا حِسِّيًّا، لأنَّ الإنسان فيه مَلَكَةٌ شعوريَّة، وفيه مَلَكَةٌ عاطفيَّة، وفيه مَلَكَةٌ حِسِّيَّة، والمُربِّي الذي لا يعرف هذا لا يستطيع أنْ يُرَبِّيَ غيره ولو كان مُعَلِّمًا أو دكتورًا، فإنَّه لا يُفْلِح في ذلك، وهو مريض يحتاج إلىٰ مَن يُعالِجُه.

وإذا أردنا أنْ نُعطي مثالا علىٰ مفهوم الذَّوق ومعناه فنقول: لو أنَّ أحدًا يستطيع أن يُحَضِّرَ لنا أُكْلَةً مُعيَّنة، فيصِف لنا لونَها وشكلَها، ويقول: إنَّ لها طَعْمًا عجيبًا، وقد يُؤَلِّف لنا كتابًا خاصًّا بهذه الأكلة، ولكن هل نصل نحن إلىٰ حقيقة هذه الأكلة؟ لا، لن نَصِلَ إلىٰ ذلك إلاَّ عندما نذوق طعم هذه الأكلة، وأمَّا بالنَّظر أو السَّمع أو اللَّمس أو الشَّمِّ فلا ينفع ذلك، ولا بدَّ من الذَّوق، وبعد ذلك نحكم في هذه القضيَّة.

وهكذا وضع الله ﷻ الأذواق في كلِّ شيء، وحاسَّة الذَّوق لا يمكن أن يحصل الذَّوق إلا بها أحبَّ مَن أحبَّ وكَرِه مَن كَرِهَ، والله جعل حاسَّة الشَّمِّ، فلا يمكن الوصول إلىٰ المشمومات إلاَّ عن طريقها، ولا يمكن ذلك عن طريق القراءة في الكتب ولا بالسَّمع، ولا عن طريق الرُّؤْيَةِ بالعين، وهذا واقع مشهود، وعالِمُ الشَّمِّ هذا عالِمٌ جليل وعظيم لو عرفه الإنسانُ لأحبَّ ربَّه وانجذب إليه، وكذلك بالنسبة لعالَم الذَّوق وسائر العوالِم، والذَّوق من الأمور المجهولة التي

(1) رواه الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

لا يعرفها الإنسان، وإنَّما يوجد من يتحدَّث عنها من العُلماء ويُعرِّفها، وهذا لا يكفي، ولا ينفع.

إذن التَّصوُّف هو الرُّكن الثَّالِث من أركان الدِّين، ويُسَمَّىٰ بالتَّصفية، فما معنىٰ التَّصفية؟ التَّصفية معناها العودة إلىٰ الفِطْرة التي فطر اللهُ عليها الإنسان، لأنَّنا شهِدنا علىٰ أنفسنا برُبُوبِيَةِ الله جَلَّ جلاله عندما خَلَقَنَا وكنَّا في ظهر آدم عليه السلام، ولذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

وهذا يشير إلىٰ قول النَّبيِّ ﷺ: «**ما مِن مَوْلُودٍ إلاَّ يُولَدُ علىٰ الفِطْرة، فأبواه يُهَوِّدَانِه، أو يُنَصِّرَانِه، أو يُمَجِسَّانِه، كَمَا تنتجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تحسُّون فيها من جدْعاء، ثُمَّ يقول أبو هريرة** رضي الله عنه: ﴿فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ النَّاسَ عليها، ل تبديلَ لخَلْق الله، ذلِك الدِّين القَيِّم»[1]. أي أنَّ الأبوين يجعلان الابن يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مجوسيًّا أو مادِّيًّا أو عِلْمانيًّا، والأمُّ لها دور هامٌّ في تربية أبنائها، ونحن نسمع عادة قول البعض: الأمُّ مدرسة، فمَن هي الأمُّ المدرسة؟ وهل كلُّ أمٍّ هي مدرسة؟ هذا ليس كلاما صحيحًا، وانظر إلىٰ الإسلام متىٰ يبدأ تربية الأسرة؟ يبدأ الدِّين تربية الأسرة من قبل الزَّواج، فالنَّبي ﷺ يقول: «**تَخَيَّرُوا لنُطَفِكُم فإنَّ العِرْقَ دسَّاسٌ**» وفي رواية ذكرها الغزالي في الإحياء «فإنَّ العِرْق نزَّاعٌ».

إنَّ الإسلامَ يُنبِّهنا قبل الزَّواج ويأمرنا باختيار الزَّوجة الصَّالحة، لأنَّ لأبنائنا حقًّا علينا بأن تكون الأمُّ صالِحة، ولكن للأسف الشَّديد فإنَّ عادة الإنسان أنْ لا يسأل إلاَّ علىٰ ما يملِك الطَّرف الآخر في الزَّواج، فهل يملِك سيارة؟ وهل يملك «فيلا» (مسكنًا فخمًا)؟ وهل له وظيفة وعمل جيِّد؟ وانظر إلىٰ حالنا في الأعراس، وماذا نفعل فيها؟ ونحن عندما نشرع في إتمام عِقْد الزَّواج بين الرَّجل والمرأة نقول: زوَّجْنا فلانة لفلان علىٰ طاعة الله وسُنَّة رسوله، وبعدها مباشرة

(1) رواه الإمام البخاري.

نرتكبُ من المُوبقات والمُحرَّمات ما لا يتصوَّره أحد في كلا العائلتين، فأين هو الإسلام؟ وأين هو الدِّين؟

وقد تجد الأب والأم يُؤَدِّيان الصَّلاة، وقد حجَّا البيت مرَّة أو أكثر، ولكن كلّ ذلك لا فائدة من ورائه، ولماذا؟ لأنَّ القاعدة غير موجودة عندنا، ولم نَدْرُسْ العقيدة، ولم نعرِف الإسلام الصَّحيح، وهذا هو المشكل القائم، وبدون التَّربية الرُّوحيَّة لن نعايش الدِّين معايشة حقيقيَّة، ولن نتفاعل مع الإسلام، ولن يتفاعل معنا الإسلام، والمُربِّي في حياتنا له دور فعَّال، ولكن ليس كلُّ أحد يصلُح لتربية غيره، وكثيرا ما نسمع ونقول: هذه مدارس تربوية، والمُعَلِّمُ مُرَبٍّ، والأستاذ مُرَبٍّ، فإذا بحثنا في جوهر الأمر لم نجد أيَّ تربية، ولماذا؟ لأنَّنا نحن نأتي بأمور من الغرْب ظُلمانية لا تليق بالمُسلِمين، لأنَّ تربية المُسلِمين تكون بدينهم، وبشَرْعِ ربِّهم، وسُنَّة نبيِّهم، وهذه المبادئ هي التي تُربِّيهم.

ويُشترَطُ في المُرَبِّي شروطًا مُعَيَّنة ليكون مُؤَهَّلاً لتربية غيره، فالذي نُربِّيه للهندسة والجبر والرِّياضيات ليس مثل الذي نُربِّيه للتَّاريخ أو الطِّبِّ، ومن هنا لا يجب علينا أنْ نستغرب قضيَّة الشَّيخ المُرَبِّي، لأنَّ المهندس قد علَّمه وربَّاه مهندس مختصٌّ يُعَدُّ شيخًا له، والذي يُصلِح التِّلفاز قد أشرف علىٰ تعليمه وتربيته مختصٌّ في هذا الميدان، وكذا الخيَّاط قد تلقَّىٰ فنون الخِياطة، وتدرَّج في تعلُّمها علىٰ يد أستاذ يُحْسِن هذه الصَّنعة ويُتْقِنها، وهو بمثابة الشَّيخ المُربِّي في صنعته وميدانه، وهذا الأمر كُلُّنا نقبله، ولكن عندما نأتي للتَّربيَّة الرُّوحيَّة في الجانب الدِّيني نتردَّدُ ونرفضُ القضيَّة، ونتساءل في حيرة عن أمر الشَّيخ المربّي والزَّاوية والطُرُقِيِّين، وهذه من ألاعيب الشَّيطان، لأنَّ قضية التَّربية لا تساعده، بل تُضَيِّق عليه وتُبْطِل مكائده وغِوايته، وتكشِف حَبَائله.

وبعد هذه الكلمة التي أردت بها توضيح بعض الأمور، اترك لكن المجال لطرح الأسئلة.

السُّؤال الأول: نحن نعرف منذ أنْ خُلِقْنَا أنَّ الطُّرُقِيَّة شعوذةٌ ودجَلٌ، وأنَّ أيَّ زاوية مهما كانت، وفي أيِّ مكان هي بمثابة موضع لإقامة الولائم، ولذبح الذَّبائح لغير الله، وينشأ فيها اختلاط بين النِّساء والرِّجال للرَّقص، ويغيبون عن الوعي، هذا ما نعرفه عن الزَّوايا ومحيطها يا سيِّدي الشَّيخ الكريم، فهل لكم أنْ تُنِيرُوا أفكارنا في هذه القضيَّة، وتزيحوا عن قلوبنا الأوهام والشُّكوك، رعاكم المولىٰ القدير، وجزاكم الله عنَّا كل خير؟

الإجابة: هذه الأمور التي ذكرتيها مرفوضة تمامًا في الزَّوايا الأصلية، وعلىٰ كل حالٍ أنتِ قد تعرفين زاوية أو اثنتين، ولكن الزَّوايا كثيرة وبالآلاف في العالَم، وتُعَدُّ بالمئات في الجزائر وعلىٰ المرء أنْ لا يحكُم مِن خلال زاوية واحدة علىٰ كل الزَّوايا، وهل يليق بنا أن نحكم من خلال مُسلِم واحد عن جميع المُسلِمين؟ وهل يُعْقَل أنْ نحكمَ من خلال تصرُّفات فرد واحد من عائلة علىٰ جميع أفراد هذه العائلة؟ وهَبْ أنَّ في عائلة ما فرْدًا سكِّيرًا، فهل يُقبل أن نقول أنَّ العائلة كلَّها تتعاطىٰ شُرْبَ الخمْر؟ هذا لا يجوز لا شرعًا ولا عقْلاً ولا مروءة، ولا ينبغي أنْ يكون هذا الأمر أصلاً.

السُّؤال الثاني: كيف وصل سيِّدي الشَّيخ الأمر في بعض الزَّوايا إلىٰ هذا الحدِّ؟

الإجابة: لقد وصل الأمر في بعض الزَّوايا إلىٰ هذا الحدِّ بسبب الميراث العائلي لقضيَّة التَّربيَّة الرُّوحيَّة، فعندما نُنَصِّبُ مُعَلِّمًا وهو ليس أهلا لمِهنة التَّعليم، ماذا ستكون النتيجة؟ وماذا سيقدِّم لنا هذا المُعَلِّمُ؟ لاشك أننَّا سنجني من جرَّاء ذلك الفسادَ، ونفْس الأمر وقع في بعض الزَّوايا حيث نُنَصِّبُ علىٰ رأسها أحدًا ليس له المؤَهِّلات الرُّوحيَّة، ويدَّعي بأنَّه أهل لهذا الجانب، فماذا سيقدِّم لغيره؟ وماذا سيُعطيهم؟ لن يعطي للنَّاس شيئًا، لأنَّ فاقد الشيء لا يُعطيه، والسَّبب في كلِّ هذا هو التَّغالي من بعض أتباع الزَّوايا، وكذلك بسبب عدم وجود من يُبيِّن لبعض أهل الزَّوايا مِثل هذه الأمور، ويفهمهم إيَّاها، وأمَّا الأفراد الذين يتردَّدون علىٰ الزَّوايا

للإطعام وللمبيت فلا يبحثون عن أهداف الزَّاويَّة، ولا يهتمُّون بمعرفة ذلك، وقد لا يكون البعضُ منهم مُهتمًّا بأمر دينه، وهذا خطأ وغلط.

إذن الأمر الصَّحيح أنَّ حقيقة الزَّاويَّة تربيَّة روحيَّة تنبعثُ من الإسلام، أي من الكتاب والسُّنَّة، ولا تخرج عنهما، وهذا هو التَّصوُّف الإسلامي الحقيقي، الذي يجب أنْ يتعلَّمه المرء، سواء المرأة أو الرَّجل، لأنَّه فرض عيْن يكمل الرُّكن الثَّالث من الدِّين، الذي هو ركنُ الإحسان، ولو سألنا فقيها أو إمامًا في جامع وقلنا له: ما هو الإحسان؟ فسيقول كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**الإحسانُ أنْ تعبدَ الله كأنَّك تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ**»[1] و«**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[2]، وهذا الجواب غير كافٍ، لأنَّه مجرَّد تعريف للإحسان، ولا يبيِّنُ حقيقة الإحسان، لأنَّ الإحسان يدخل في الصَّلاة والزَّكاة، وفي الحجِّ وفي سائر العبادات والطَّاعات، وفي كلِّ حركة من حركاتك التَّعبدية أو التَّعامليَّة، فمن يُعلِّمنا هذا الإحسان؟

إذن لابدَّ لنا من عالِم بالإحسان يُعلِّمنا هذا الأمر، وهذا هو العالِم الرُّوحي، الذي يُعَدُّ بمثابة الطَّبيب الرُّوحي الذي يُطَهِّر القلوب من الأمراض والشَّهوات والحظوظ، ولكن بشرط أن يكون هناك التلميذ الذي يتتلمذُ علىٰ يد هذا المُربِّي.

وهذا هو التَّصوُّف حتَّىٰ لا نغالي كثيرًا، وقد جاء في الأثر: «الشَّريعة أقوالي والطَّريقة أفعالي والحقيقة أحوالي»، والشَّريعة هي الأحكام المنزلة علىٰ سيِّدنا رسول الله ﷺ المستفادة من قوله ﷻ: «﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟**﴾ [**الحشر**: 7]، وما هي الطَّريقة؟ الطَّريقة هي تطبيق تلك الأحكام الشَّرعيَّة علىٰ أعمال المُكَلَّف ظاهرًا وباطنًا تطبيقًا مُحْكَمًا، كالمحافظة علىٰ الصَّلاة، والمحافظة علىٰ الذِّكْر، والابتعاد عن المُنكرات كالكذِب والغيبة والنَّميمة، وغيرها

(1) رواه البخاري ومُسلم.

(2) رواه مسلم وغيره.

من المنهيات الشَّرعية، وأمَّا الحقيقة فهي ما يحصل للمُريد من العلوم والمعارف النَّاتجة من أعماله.

والعِلَّة عند البعض تكمنُ في قضيَّة الذِّكْر، وهل الذِّكْر مخصوص بالزَّاوية وأهلها؟ وهل أنَّ أهل الزَّاوية فقط هم الذين أمِرُوا بالذِّكْر؟ لا، لأنَّ الذِّكْر جاء به الإسلام، وندب إليه، والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: 41-43]، وفي هذه الآية خاطب الحقُّ ﷻ كلَّ مؤمن ومؤمنة، وندبهم إلىٰ الذِّكْر، وبيَّن لهم ثمار هذا الذِّكْر ونتائجه، فالذِّكْرُ الحقيقي الخالص لله، والذي فيه الحضور مع المذكور ينتج صلاة من الله علىٰ الذَّاكِر ما دام ذاكرًا، والصَّلاة من الله في الذِّكْر لها جوانب متعدِّدة، فهي أولاً رحمة، وهذه الرَّحمة خاصَّة ناتجة من ثمرة الذِّكْر لا يجب أنْ نتكلَّم عليها كثيرًا، لأنَّ فيها أمورًا لا نُطِيقها.

وإذا قلنا أنَّ المؤمِن الذَّاكر في الصَّلاة موصول بربِّه، لأنَّ الصَّلاة تعني الصِّلة، فأنتَ مقطوع عندما تكون غافلاً، وتصبح موصولاً عندما تكون ذاكِرًا، فالذَّاكِر موصول بالله، والغافِل مقطوعٌ عن ربِّه، وانظروا إلىٰ سيِّدنا رسول الله ﷺ لما خرج من مكَّة المُكرَّمة مهاجرًا إلىٰ المدينة المنوَّرة، ولجأ إلىٰ غار ثور مع صاحبه أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه وجاءت حمامة فباضت علىٰ باب الغار، ونسجت العنكبوتُ نسيجها علىٰ مدخل ذلك الغار، ووصل الكفَّار إلىٰ مكان اختفاء الرَّفيقين الكريمين بعد اقتفاء الآثار، وقالوا بعد مُعاينتهم لبيض الحمام ونسيج العنكبوت: هذا الغار لا يمكن أن يكون في داخله أحد.

وعندما أحسَّ سيِّدنا أبو بكر بأقدام الكفَّار قال لرسول الله ﷺ: **«يا رسول الله لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا»**، وهذا الكلام الذي قاله سيِّدنا أبو بكر كلام واقعي، فماذا كان جواب النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)

لأبي بكر؟ قال: «**ما ظنُّك باثْنَيْنِ الله ثالِثُهما**»[1].

وهل هذا جواب علىٰ سؤال أبي بكر؟ في الواقع الحِسِّيِّ ليس جوابًا علىٰ السُّؤال، ولكنَّه في الحقيقة جواب، لأنَّ هذين الاثنين هما في معيَّة الله، فارّين بدينهما إليه، وما دامت المعيَّة الإلهيَّة بسطتْ سلطتها عليهما، فإنَّ الكفَّار لن يروهما، ولو أبصروا تحت أقدامهم ما رأوهما، والدَّليل علىٰ ذلك أنَّ الرَّسول ﷺ عندما خرج من مكَّة سابقًا، ذرَّ علىٰ رؤوس الكفَّار التُّراب وهو يتلو قوله ﷻ: «﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يـــس: 9]. ولو قال هذا القول قائل لما حصل له شيء، لأنَّه ليس لديه اليقينُ الإيماني، وليست الآية هي التي ليس لها مفعول، وإنَّما العِلَّة في قائلها الذي يعتريه التَّردُّد والشَّكُّ، والشَّكُ يُفْسِدُ اليقينَ.

إذن التَّربية الرُّوحيَّة ضروريَّة، ولا بدَّ منها في حياة المُسلم، وكما أنَّ العِلْم يؤخذ من العالِم فإنَّ التَّربية تؤخذُ من المُربِّي، والتَّربية الرُّوحيَّة لها خصوصياتها، ولها خواصٌّ اختصَّهم الله بها من فضله. ونحن نرىٰ اليوم ونلاحظ أنَّ المُعَلِّم يُدَرِّسُ تلاميذه الصِّغار عن طريق اللَّوحة، وهي ما تسمىٰ بطريقة «لا مارتينيار»[2]، والمُعَلِّم يقبلُها ويستعملها في التَّعليم، ويقتنعُ يقينا دون شكٍّ بأنَّها طريقة نافعة وناجحة لتعليم الحساب والحروف للتَّلاميذ الصِّغار، ولكن عندما يتعلَّق الأمر بطريقة صوفيَّة يقول المُعْتَرِضُ: هذه طريقة خُرافيَّة، ويصدرُ أحكاما جائرة وظالمةً عن أُناسٍ لا يعرفُهم.

السُّؤال الثالث: سيِّدي الشَّيخ الفاضل، في وسط الفِتن التي نعيشها اليوم في مجتمعنا، قد يجد الإنْسان صعوبة في التَّغيِّير، والحال أنَّ كُلَّ أفراد العائلة يُعارِضون

(1) رواه الإمام البخاري وغيره.

(2) طريقة «لامارتينيار» (Méthode La Martinière) نسبة إلىٰ الفرنسي كلود مارتين (Claude Martin) 1735–1800، الذي وضعها وطبقها في المدارس التي أنشأها. (جامع الكتاب).

من يأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المُنْكر، فكيف تكون للفرْد عزيمة قويَّة حتَّىٰ يستطيعَ أنْ يُغيِّرَ هذه الوضعيات ولا يفْشَل؟

الإجابة: العزيمة هي الإيمان، وتكون بالإيمان، وقد ورد في الأثر: «مَن أطاعَ اللهَ أطاعَهُ كلُّ شيء، ومَن عصَىٰ اللهَ عصاهُ كلُّ شيء»، ونحن لم نستقمْ علىٰ منهج الله، فلو استقمنا لاستقام معنا الآخرون، وقد كان أحد الموظفين في سلك التعليم من ولاية أمُّ البواقي، يُنْكِر علىٰ أهل النِّسبة، ويعترِض علىٰ أهله وأبناء عمومته الذين ينتسبون إلىٰ الطَّريق، وفي إحدىٰ المناسبات ذهبتُ للتَّعزية في جنازة، وكان ذلك الموظف من جملة الحاضرين، فأخبرني الفقراء بأنَّه يُنْكِر عليهم، ويحدث لهم مشاكل، وأجلسونا لوحدنا في مكان مُنعزِل، وقد حضر معه جماعة آخرون، فقال لي يا شيخ أنتم تدعون إلىٰ الشَّعوذة والخُرافات، وأطلق للسانه العَنان في الكلام، فقلت له: أكمل كلامك، وقلْ كلَّ ما أحببتَ أنْ تقوله، فتابع كلامه وانتقاداته وأهله وأقاربه يستمِعون إليه، فلما أكمل قلتُ له: ما هي حُجَّتُك في كلامك الذي ذكرتَه؟ فقال بكلِّ كبرياء وعُجْبٍ: هاهو النَّبيُّ ﷺ يقول: **«مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**[1].

وعندئذ قلتُ له: الحمد لله فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: مَن رأىٰ، ولم يقلْ مَن توقَّع، أومن توهَّم، أو مَن تصوَّر، أو مَن ظَنَّ، ولو لم يقلْ مَن رأىٰ لهلك الجميع، فأقرَّ علىٰ نفْسه قائلًا: نعم لم يقلْ ذلك، بل قال: مَن رأىٰ، فقلت له: أتدري ماذا يُشترَط في هذه الرُّؤْيَا؟ يُشترط فيها سلامة العينين اللَّتين ترىٰ بهما، يعني يُشترط سلامة عينيك الحسِّيتين وعينيك العِلْميتين، لنعرفَ هل حكمك في القضيَّة صحيح أم لا، وهكذا بيَّنْتُ له كلَّ ما كان يتوهَّمه، فقال لي في الأخير: أنا أعترِف بالحقِّ، وأرفع الرَّاية البيضاء، وقد تبيَّن لي أنَّني كنتُ علىٰ غير صواب. ثمَّ قال: لقد حفِظتُ هذا الحديث منذ مدَّة، وقد سمعتُه من العلماء كثيرًا، ولكنَّني

(1) رواه مُسلم وأحمد والبيهقي.

لم أسمع إطلاقًا شرح الحديث بهذه الصورة التي ذكرتَها لي، فقلتُ له: الحمد لله، فالنَّبيُّ ﷺ قال: **مَن رأىٰ منكم مُنكرًا**، فهل رأيتَ ما نحن فيه؟ وهل تعرفنا سابقًا؟ وهل رأيتَ منَّا فِعل مُنكر؟ وهل حضرتَ معنا في أيِّ مجلس؟ فقال: لا، فقلتُ له: فعلىٰ أي أساس بنيتَ حُكمك الذي حكمتَ به علينا؟ وشهادتك تُعَدُّ شهادة زور ستُكتبُ عليك وتُحفظ إلىٰ يوم القيامة، وأنتَ علىٰ علم بأنَّ شهادة الزُّور من الكبائر.

ولنعد إلىٰ الموضوع فنقول: إنَّ معرفة الدِّين هي التي تُوصِلنا إلىٰ اليقين، ومعرفة الله هي التي تُطَهِّرُ قلوبنا، وتُزكِّي أنفسنا، وتُقَوِّم اعوجاجنا، وتهبُنا كلَّ خيرٍ. ونحن فارُّون من ديننا، وزاهدون في معرفة ربِّنا، ولو أنَّنا فهمنا ديننا الفهم الصَّحيح، فلن نقبَل سواه أبدًا، ولكن سوء فهمنا للدِّين يجعلنا ننظر إليه في آخر الأمر الذي نُفكِّر فيه.

السُّؤال الرّابع: ما هي الشُّروط التي يجب أنْ تتوفَّر في الشَّيخ المُربِّي؟

الإجابة: أهمُّ الشُّروط التي يجب أنْ تتوفَّر في الشَّيخ المُربِّي هي السَّند الصَّحيح، أي صِحَّة سنده إلىٰ رسول الله ﷺ، وقد قال أحد العارفين: «ليسَ شيخُك الذي أوقَفَك بالبابِ، إنَّما شيخُك الذي رفَعَ بينك وبين الله الحِجابَ».

وهناك شروط واضحة معروفة في كتب التَّصوُّف يستنِد عليها الإنسان، وبعدها ينطلق انطلاقة سليمة طيِّبة، ونحن لا نغُشُّكم، وما أقوله لكم صِدقًا من صميم قلبي، ولا أريدُ منكم جزاء ولا شُكُورًا، ولا مدْحًا ولا أخاف ذمًّا، ولا رغبة لي إلاَّ في رِضا الله تعالىٰ.

السُّؤال الخامس: سيِّدي الشَّيخ المحترم، نرجو من سيادتكم أنْ تبيِّنوا لنا أكثر كيفية إصلاح المجتمع مشكورًا؟

الإجابة: المطلوب من الإنسان أنْ يُغَيِّرَ نفسه بالدَّرجة الأولىٰ، ويُصلحَ ما بداخله، ويتخلَّىٰ عن كلِّ ما هو فاسد في نفسه وفي قلبه، ويبتعد عن كلِّ ما هو غير صالح في عباداته وفي معاملاته، وبعد أنْ يفعل ذلك، يبدأ بمن هو تحت

رعايته كأهله وأطفاله من أبناء وبنات فيحاول إصلاحهم، وهذا هو المطلوب، لأنَّنا لا يجب أنْ نترك الواجب العيني وننتقل إلىٰ واجب الكفاية، وبعد أنْ تنتهي هذه العملية ينطلق إلىٰ المجتمع ومحاولة إصلاحه، وسَيَسْمَعُ النَّاسُ كلامه بإذن الله ﷻ بدون شكٍّ. وأما أن يتَسَرَّع المرء بنهي غيره عن المُنكر وهو يرتكبه، فهذا لا ينفع، وكلام مثل هذا كالماء النَّجِس لا يصلحُ للطَّهارة، وكلُّ قول فيه نجاسة لا يُطهِّر، لأنَّه ما دام لم يُطَهرك أنت، فكيف يُطَهِّر غيرك؟ لا يمكن ذلك.

السُّؤال السّادس: سيِّدي الشَّيخ الفاضل، نحن في الحقيقة لا نعرِف إلا الجانب السِّلْبي من الطُّرقية، فكيف بنا لنعرف الجانب الإيجابي، وما هي أنجع طريق للاستقامة علىٰ شَرْع الله؟

الإجابة: في الحقيقة كلمة الطُّرقية حصل بشأنها في فترة سابقة جدل كبير، ومنذ ذلك الوقت وقعت اعتراضات علىٰ الطَّريق، ونحن لا نقول أنَّ الطُّرقية ليس فيها الغثُّ والسَّمين، فكلُّ البشر لهم محاسن ولهم مساوئ، ومن جملتهم الطُّرقيُّون، وهذا هو الإنصاف، لأنَّ النقائص من صفات الإنسان، وكلُّ مَن يدَّعي الكمال فهو غير صائب، فالنَّقائص للإنسان، والكمال لله.

والطُّرق الصُّوفيَّة طُرُقٌ شرعية في الأصل، وهي طرق تتَّبِع الكتاب والسُّنَّة لا خلاف في هذا، فإذا وقعتْ مفاسد في زاوية ما خارج الكِتاب والسُّنَّة، فهذا ليس مبنيًّا علىٰ أنَّ الطَّريق فاسدة، هذا كلام غير صحيح، ونحن نرىٰ اليوم في كلِّ أنحاء العالَم الإسلاميِّ من المفاسد ما لا يتصوَّره العقل، وسواء كان داخل البيوت أو خارجها في الشَّوارع وفي الطُّرقات، وكلُّ هذا لا نلتفتُ إليه بالنَّقد والتَّجريح، ونلتفتُ إلىٰ الزَّوايا، فهل هذا إنصاف؟ لا، هذا ليس إنصافًا، ولو أنصفنا النَّاس، وأنصفنا أنفُسنا، لقلنا أنَّ في الطُّرقية أمورًا طيِّبة فاضلة، وفيها عكس ذلك، وهذا شأن كلِّ طائفة من الطَّوائف.

إذن بالنِّسبة للطُّرقية، إذا تكلَّمنا علىٰ أصل الطَّريق، كالطَّريقة القادرية أو الطَّريقة الرَّحمانيَّة أو التَّابعية أو العلوية، فكلُّها في الأصل مبنية علىٰ الكتاب

والسُّنَّة، والكثير منَّا لا يُفرّق بين الطُّرقيِّين والمشعوذين، ويجعل كلَّ الطُّرقيِّين في سلَّة واحدة، ويحشرهم مع كل مُشعوِذ، والملاحظ الآن أنَّ المُشعوذِين انتشروا بصورة أقبح ممَّا كانوا من قبل، وحتَّىٰ أنَّنا نجد في كلِّ حيٍّ شخصًا أو أكثر يمارسون الشَّعوذة والسِّحر ويفعلون المنكرات، ويستعملون الشيطنة باسم الرقية الشرعية، والملاحظ أنَّ عالَم النِّسوة هو الذي يقع في شباك وحبائل هؤلاء أكثر من غيره، وهذا أمر معروف، وهؤلاء المُشعوِذون لا يُنْسَبون إلىٰ الطُّرقيَّة.

وفي الأصل فإنَّ الطُّرق كلَّها مبنيةٌ علىٰ الكتاب والسُّنَّة، وكلمة الطَّريقة كلمة شرعية، والمولىٰ تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]، وما هي الطَّريقة؟ الطَّريقة هي الشَّريعة الإسلامية، والطَّريقة الصَّحيحة الحقيقيَّة لا تخرج عن الكتاب والسُّنَّة، فما الذي أفسد بعض الطُّرُق وبعض الزَّوايا مع ما فيها من بعض الكمالات كتعليم القُرآن والعِلْم، وإطعام الزُّوَّار وعابري السَّبيل؟ إنَّ من بين الأمور التي أدخلتْ الفساد علىٰ بعض الطُّرق وبعض الزَّوايا قضيَّة الميراث العائلي. والأصل في الطَّريق وفي الزَّاوية أنَّ الميراث ميراث علميٌّ نبويٌّ، وليس ميراثًا عائليًا، وهذا يعني انَّه عندما يموت الشَّيخ لا يجب بالضَّرورة أن يكون ابنه شيخًا في مكانه كما هو معمول به في بعض الزَّوايا، والملاحظ في بعض الزَّوايا أيضًا أنه عندما يُنَصَّبُ أحد مُقَدَّمًا يقول: أنا شيخٌ، والمعلوم أنَّ المشيخة لها سندٌ صحيح إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

ونحن نلاحظ المجتمع وما هو حادث فيه مِن ضلالات، وإذا عاينَّا الزَّوايا نجدها أقلَّ شرًّا وأسلمَ حالا من الحالات الموجودة في المجتمع من الفساد، رغم أنَّ هناك بعض الأمور غير السَّليمة في بعض الزَّوايا لا يُنكِرها المُنصِفُ.

والأصل في الطَّريقة أنَّها مبنيةٌ علىٰ الكتاب والسُّنَّة بدليل كُتُبِ أهلها، فنحن عندما نقرًا كُتب سيِّدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ككتاب الغُنية الذي يشتمل علىٰ عينية السُّلوك، وقد رتَّبها صاحبها ترتيبًا حسب السُّلوك، وبيَّن فيها للقادريِّين كيف يبدأ الطَّريق، وإلىٰ أين ينتهي، ومَن هو الذي يكون أهلا للتَّربيَّة في الطَّريق، ومَن

هو ليس لها أهلاً، ولكن مع الأسف أنَّ بعض الأتباع لا يعتدُّون بكلام سيِّدي عبد القادر، ولا يقولون به، وقد يقول أحدٌ من الأتباع: أنا قادريٌّ وهو لا يذْكرُ الله ﷻ ولا يهتمُّ بأوراد الطَّريقة، ويكتفي بالانتساب إلىٰ القادريَّة، أو بذبح ذبيحة إلىٰ سيِّدي عبد القادر، وهذا كلُّه تزوير علىٰ الشَّيخ، وهو لا يحتاج إلىٰ هذا، فهو رجل صالح. وهذا الذي سُقناه مِثالا فقط علىٰ ما يفعله بعض الأتباع.

لقد لعِب الأتباعُ دورًا سِلبيًّا في موضوع الفساد الذي حدث في بعض الزَّوايا، فَهُمْ من شدَّة محبَّة شيخهم المربّي عندما يتوفىٰ يُنَصِّبُونَ ابنَه شيخًا حتَّىٰ ولو لم يكن أهلا للمشيخة، ونحن إذا نصَّبنا أحدًا معلِّمًا وهو لا يُحْسِن التَّعليم، فماذا سيُعَلِّم غيره؟ لاشكَّ أنَّه سَيُعلِّمُهم الجهل، وهذا هو الواقع، وتصبح الأمور مادِّية ونَصْبًا لابتزاز الأموال. يقول العالم الفاضل ابن عاشر رَحِمَهُ اللَّهُ:

يصحبُ شيخًا عارِفَ المسَالك يقيه في طريقِه المهالِك

والشَّيخ الذي يقيك في طريقك المهالِك من القلائل، وقليلٌ ما هم، والله ﷻ يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

وللشَّيخ المربّي شروط معروفة عند القوم إنْ توفَّرتْ صحَّتْ مشيخته، وإن لم تصِحْ فهو ليس بشّيخ مربّي، وليس من حقِّ أحد أنْ يعترف به، أو يأخذَ عنه، وكما قلنا سابقًا فإنَّ الشُّروط في الطَّريق كالشُّروط في التَّعليم، فإنْ لم يكن لأحد عِلْمٌ، فهل يمكن أنْ نُنَصِّبَه عالِمًا؟! لا، هذا ليس ممكنًا، إذ لابدَّ أنْ نعرِف علىٰ من تعلَّم وبالشُّروط والبيانات، لأنَّ بُنُوَّةَ الرُّوح كبُنُوَّة الجِسم.

وهكذا في طريق التَّربيَّة الرُّوحيَّة علينا أنْ نبحث عن سند مَن نأخذ عنه ونتربَّىٰ علىٰ يديه، ونتأكد من أنَّه عارف بربِّه، ويستطيع أن يُعَرِّفَ غيره، فإنْ لم يكن عارفًا بالله، وقادرًا علىٰ تربية غيره، فماذا سَيُعرِّف غيره؟ لأنَّ فاقد الشَّيء لا يُعطيه، وهذا هو المشكل الكبير القائم الآن في كثير من الطُّرُق والزَّوايا، وحتَّىٰ لا نظلمَ أحدًا، فالأصل في الطَّريقة كالأصل في الإسلام، فالإسلام صحيح، ولكن بعض المُسلمين انحَرفُوا عن مبادئه وارتكبوا الفجور والشُّرور والفسوق والشَّعوذة

فهل الإسلام مسؤول عن تصرُّفاتهم؟ لا، لأنَّ الإسلام نظيف طاهر نقيٌّ، وعلىٰ المرء أنْ يبحثَ عن حقيقة الإسلام وعن مَن يُعلِّمه الإسلام الصَّحيح.

والطَّريق مدرسة روحيَّة يتمُّ فيها معايشة الرُّكن الثَّالث منْ أركان الدِّين، لأنَّ الدِّين مبنيٌّ علىٰ ثلاثة أركان: إسلام وإيمان وإحسان، وقد جاء في الخبر: «ليسَ الإيمانُ بالتَّحلِّي ولا التَّمنِّي، ولكن ما وَقَرَ في القلب وصدَّقه العمل». ولو نقيسُ إيمان الكثير علىٰ هذا المعنىٰ لخرج إيمانهم عن هذه الحقيقة، لأنَّهم لا يتفاعلون مع الإيمان كما يجبُ. ولماذا لا يتفاعل كثير من المُؤمنين مع إيمانهم؟ لأنَّهم لم يقرأوا العقيدة، ولم يدرسوها، ولم يستوعبوها، فالمرأة يُربِّيها الأب فلا يُعلِّمها من العقيدة شيئًا، وهمُّه الوحيد أنْ يأتي لها بالطَّعام والشَّراب واللِّباس، ولاشيء غير ذلك، وعندما تنتقل هذه المرأة إلىٰ بيت الزَّوج تجده أَدْهَىٰ وأمَرَّ، وهذا هو الواقع الموجود في مجتمعنا فلا تجد مَن يُعلِّمها، فالزَّوج لا يتعلَّم ولا يُعَلِّم زوجته، والعِلْم واجب عليه، وفرضُ عَيْنٍ علىٰ كلِّ مُسلِم ومُسلِمة، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**طلبُ العِلْم فريضةٌ علىٰ كلِّ مُسلِم**»[1]، وإذا قلنا المُسلِم فإننا نقصد المُسلِمة بالتَّبعية.

السُّؤال السّابع: سيِّدي الشَّيخ المُحترَم، ما معنىٰ التَّصوُّف؟

الإجابة: التَّصوُّف هو أنْ يصفُو الإنسان ويعود إلىٰ فِطْرته الأولىٰ التي خُلِقَ عليها، فالتَّصوُّف جاء لتصفية الأقوال والأفعال والسُّلوك والعلاقات والمُعاملات، فيتطهَّر الإنسانُ بعدما كان مُدَنَّسًا بالشَّهوات والحظوظ والأمراض القلبية كالطَّمع والحسد والبُغض والمكْر والعُجْب والأنانية، ولكن هذه الطَّهارة تحصلُ تدريجيًّا حتَّىٰ يصيرَ القلبُ طاهرًا سليمًا، وهذه حقيقة الإسلام، والله ﷻ يقول: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [**الشعراء: 88، 89**]، وما هو القلب السَّليم؟ القلبُ السليمُ هو القلب الذي خلا من هذه الأمراض، وتطهَّر منها،

(1) رواه ابن ماجه في السُّنن.

والدِّين جاء ليُزكِّي نفس الإنسان، ويُطهِّر قلبه، لأنَّ قلبَ الإنسان هو جوهره، وهو كلُّ شيء فيه.

السُّؤال الثامن: سيِّدي الشَّيخ المحترم، قرأتُ كتابًا لابن الجوزي يُسَمَّىٰ «تلْبِيسُ إبْلِيس»، وقد حمل فيه علىٰ الصُّوفيَّة حملة شعواء، وعرَّف الصُّوفيَّة بأنَّهم أناسٌ يلبسون الصُّوف، فما تقولون في هذا الكلام، جزاكم الله خيرًا؟

الإجابة: نعم هذا التَّعريف وارد، والبعض ينسبُ كلمة التَّصوُّف إلىٰ الصُّوف غير أنَّه لا مشاحة في الألفاظ، وقد ردَّ العالم الرباني الشّيخ العلاوي علىٰ صاحب كتاب «تلبيس إبليس» ابن الجوزي كلمةً بكلمة، ومن جُمْلة ما قال له: إنَّك لم تجدْ لكتابك عنوانا سليمًا يناسبه إلاَّ أن جعلته من تلبيس إبليس عليك، وهذا في بداية كلامه وردِّه.

وعندما ينفي ابن الجوزي التَّصوُّف في الإسلام فإنَّ النَّبيَّ ﷺ أوَّل زاهد، والزُّهد حاله، وهو مثَلنا الأعلىٰ وقُدوتنا، والرَّسول ﷺ كان زاهدًا، وكان يُعَصِّبُ علىٰ بطنه الحجر من الجوع، ولكنَّه كان يُوَزِّع القناطير المقنطرة من الأموال علىٰ المساكين والفقراء، وزيادة علىٰ ذلك فإنَّ الله أمرنا بالزُّهد، ولكنَّ الزَّاهد بالمفهوم الدِّيني الصَّحيح ليس هو الذي لا يملك الأموال والأملاك، وليس هو الذي يلبس لباسًا مُرَقَّعًا، ولكن الزَّاهد الحقيقي هو الذي يثق بما في أيدي الله أكثر ممَّا يثق بما في يديه، ومعنىٰ هذا أنَّ الزُّهد هو الثِّقة بالله، لأنَّ الرِّزْق ضمنه الله ﷻ لكلِّ النَّاس وهو القائل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ **[الزخرف: 32]**.

إذن كلمة التَّصوُّف تعني الرُّكْن الثَّالث من أركان الدِّين الذي هو الإحسان، والدِّين هو إسلام وإيمان وإحسان، وابن عاشر يقول: والدِّينُ ذي الثَّلاث خُذْ أَقْوىٰ عُراك، وأقوىٰ العُرىٰ في الإسلام هو الإحسان، لأنَّ الإحسان هو الحياة بالنِّسبة للإسلام والإيمان، لأنَّ الإسلام عمل بالجوارح، والإيمان اعتراف وإقرار باللِّسان وعقيدة بالقلب أي تصديق بالجَنان، والإحسان كما عرَّفه النَّبيُّ ﷺ: «**أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ، فإنَّه يراكَ**».

وهذه هي العقيدة الحقيقيَّة التي تُزيلُ الشُّكوك والأوهام والحظوظ من القلب أثناء تأدية العبادات، ولكن هل العبادات مرهونة بالصَّلاة والزَّكاة والحجِّ، أم أنَّ العبادات تدخل في حياة الإنسان كلِّها؟ إنَّ العبادة تشمل كلَّ حياة الإنسان، ولنأتي بمثال صغير علىٰ ذلك: أنظر مثلاً إلىٰ يد الإنسان، هذه اليد مَن الذي خَلَقَهَا؟ خَلَقَهَا الله، والمفروض أنَّ هذه اليد تُذكِّرك بالله كلَّما لمستَ بها شيئًا، لأنَّ الحقَّ ﷻ خلقها لك، وجعل لها حركة في الدَّاخل، ولو أخذنا مِجهرًا ورأيناها به لرأينا حركات عجيبة وغريبة داخل اليد، وهذه اليد تُنَفِّذُ أوامر الله، ومُسخَّرة من الله للإنسان، ولكن عندما ترىٰ يدك تعتقد أنَّك أنت الذي تُحرِّكها بقدرتك، لا بل هي يد سخَّرها الله لك.

ويدك مأمورة من الله، ومسخَّرة لك، تأكل وتشرب بها، والمفروض أنَّك عندما تستعملها تشكر الله علىٰ ذلك، لأنَّها تُذكِّرك بمولاك، وهي يده التي خلقها لك، ولم تخلُقها لنفْسك، وهل تستطيع أن تشتري يدك بالمال؟ ولو أنَّ الله أخذها منك لن يستطيع جميع الخَلْق ردَّها إليك، اللَّهُمَّ إلاَّ أن يجعلوا لك يدًا من حَطَبٍ أومن مَطَّاطٍ، ومِن هنا يتبيَّن لنا أنَّنا لا نريد فهم الإسلام، ولدينا سوء فهم للدِّين، ولا نفهم إلاَّ قشوره، ونعتقد أنَّ الإسلامَ هو الصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجُّ دون التَّعَمُّق والبحث في لُبِّ وجوهر الإسلام، ونكتفي بالقشور.

ونحن نلاحظ أنَّ مساجدنا مملوءة بالمُصلِّين، ولكن بمجرَّد خروجنا من المسجد يعود البعض إلىٰ مفاسدهم، كالكذِب والخيانة، والسَّرقة والظُّلم، وعدم الوفاء بالعهد والغِشِّ، وكأنَّهم لم يكونوا في الصَّلاة، وحقًا إنَّ مِثْل هؤلاء لم يكونوا في صلاة، لأنَّ صلاتَهم صلاة أشباح لا صلاة أرواح، ولأنَّه تنقصهم التَّربيَّة الرُّوحيَّة، فلو تربَّوا تربيَّة روحيَّة لما وصلوا إلىٰ هذه الحالة، بل كانوا يعلون علىٰ السَّفاسِف، ويسمُون علىٰ الرَّذائل. وقد جاء القرآن الكريم ليُزكِّي النُّفوس، ولذا قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

إذن الآيات القرآنية الكريمة جاءت للتَّزكيَّة، وما أكثر الذين يقرأون القرآن، فهل تزكَّتْ نفوسهم؟ وقد تجد أحدهم يحفظ القرآن كلَّه ويُرتِّله ترتيلاً، ولكنَّه حسود وحقود، ولا يفي بالعهد، ويتَّصف بالكذِب وبكلِّ المصائب والآفات، فماذا فعل القرآن في داخله؟ لم يفعل القرآن فيه شيئًا، لأنَّه لم يفهمه ولم يعايشه، والدِّين معايشة وليس كلامًا، أو خُطَبًا رنَّانة تَتَشَدَّق بها الألسنةُ، ولا تفقهها القلوب، لأنَّ الخُطَبَ وسيلة وليستْ غاية، والعِلْم نفسُه وسيلةٌ وليس غايةً، وأشدُّ النَّاس عذابًا يوم القيامة عالِم لا ينفعه عِلْمه، ولذا قال رسول الله ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاس عذابًا يوم القِيامة عالِمٌ لم ينفَعْه اللهُ بعِلْمِه**»[1].

وخلاصة الأمر أنَّ على الإنسان أنْ يسعى بكلِّ جِدٍّ للتَّطَهُّر من الصِّفات الرَّذيلة، والتَّحلِّي بالصِّفات الحميدة، ولابدَّ في هذا الميدان من الجانب الرُّوحي الذي نُسمِّيه «التَّصوّف»، وهذا الجانب لابدَّ منه في حياة الإنسان، بل هو فرضُ عَيْنٍ على كلِّ مُسلِم ومُسلِمة، لأنَّه الرُّكن الثَّالث من الدِّين، ومن لا يعرفه ولا يعيشه فدينُه ناقص .

والإسلام ليس لافتة نُعلِّقها على الأبواب، ولو أنَّ صاحب حانوت علَّق لافتة كتب عليها العبارة التَّالية: «تصليح الثلاَّجات»، ولكنَّنا عندما نأتي إلى دكَّانه لا نجد في المحلِّ شيئًا من مُعِدَّات تصليح الثلاَّجات، فماذا نُسَمِّي مَن علَّق هذه اللاَّفتة؟ هل هو صادق أم كاذب؟ وكذلك الشَّأن بالنِّسبة للمُسلِم الذي يقول: أنا مُسلِم، ولكنَّه يكذبُ، ويخونُ الأمانة، لأنَّه لم يفهمْ حقيقة الإسلام.

وكلمة الإسلام تعني أنْ ينقاد الإنسانُ لله بجميع جوارحه مُستسلِمًا له في كلِّ حركة من حركاته التي يتحرَّكها، كحركة اليد مثلاً، لأنَّ اليد يدُ الله، فلا يجب أن تتحرَّك إلا ابتغاء مرضاة الله، فإنْ تحرَّكتْ لغير مرضاة الله، أصبحتْ في خطرٍ، لأنَّها صارت عاصية لربِّها وخالِقها. وعلى المسلم العاقل أنْ يستعملَ عقله الذي

(1) رواه البيهقي في شُعَب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

منحه الله إيَّاه، لأنَّ العقل آلة نتعلَّم بها، ونُمَيِّز بها بين الضَّارِّ والنَّافع، وبين الضَّلال والهُدىٰ، وبين الشَّرِّ والخير.

والنَّفس يجب أنْ يقودها العقل إلىٰ شرع الله، لأنَّ العقل ليس حاكِمًا، وإنَّما العقل يحكم علىٰ النَّفس، والشَّرع يحكمُ علىٰ العقل ويقودُه إلىٰ الله، ومادمنا نحن مِن مخلوقات الله ومصنوعاته، وكلُّ صنْعة إذا فسدتْ وأردنا إصلاحها، نتوجَّه بها إلىٰ صانعها. فالطَّاولة مثلاً صنعها نجَّار وجعلها تُحْفَةً، فإذا أردنا إصلاحها هل نأخذها للبنَّاء؟ وهل نأخذها إلىٰ الحدَّاد؟ إلىٰ من نأخذها؟ نأخذها للنَّجَّار بالطَّبع، لأنَّه هو الذي يعرف قانون إصلاحها وهو صانعها، وأنتَ من الذي صنعك؟ الله، إذن فمَن يعرِف قانون صلاحك وإصلاحك؟ هو الله وحده لا غير، وكلُّ من أراد إصلاحك بدون قانون الله الذي يُصْلِحك ويجعلك صالحًا، لن يفلح أبدا مهما فعل، ولن يستطيعَ، لأنَّ الصَّنعة تحتاج إلىٰ صانِعها، والصَّانع لا تحجبه صنعتَه، والصَّنعة لا تحجبُ الصَّانع.

وإلىٰ لقاء آخر إن شاء الله والحمد لله ربِّ العالَمين.

الحِوار الثَّالث

حول المُبايَعة على سلوك طريق الله

حقيقُتها وشروطُها وثِمارها ودورُ الشَّيخ المُربِّي

الحمد لله الذي وهب لعباده الصَّالحين من لَدُنه عِلْمًا، وزكَّىٰ نفوسَهم وطهَّر قلوبهم فلم تحملْ غِلًّا ولا إثمًا، والصَّلاة والسَّلام من الله علىٰ أسعد خلقه وحبيبه وصفيِّه وعلىٰ آله الطَّيِّبين الطَّاهرين، ورضي الله عن الصَّحابة الأكرمين والتَّابعين ومن تبعهم إلىٰ يوم الدِّين.

ما يلي أجوبة مفيدة شافية وجلسة ربَّانية أفاض الله فيها علىٰ قلب ولسان الشَّيخ عليّ تابعيّ بن الصَّادق الحسنيِّ الشَّريف رضي الله عنه، نفحة من نفحاته الطيِّبة الزَّكية، في حوار واستفسارات من بعض المُريدين والمُحِبِّين في بلدية «خميس لمويعدات» ولاية الجلفة، وسأورِد السؤالين المطروحين من طرف حاضرين بالجلسة، وأتبعهما بجوابيهما الوافيين من طرف الشَّيخ الفاضل.

❁ ❁ ❁

السُّؤال الأول: ما هي المبايعة علىٰ سلوك طريق الله؟ وما هو سندها ؟ وما هي شروطها؟

الإجابة: المبايعة هي المعاهدة، أي أنَّك تعاهد الله ﷻ علىٰ طاعته بحضور الشَّيخ المربّي وتضع يدك في يده كما كان النَّبيُّ ﷺ يفعل ويطلب من المُسلمِين والمُسلِمات ويقول عليه الصَّلاة والسَّلام في رواية عن عُبادة بن الصَّامت رضي الله عنه: «**بَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ**»[1]، وهذا الطَّلب

(1) رواه البخاري.

ثابت بأحاديث صحيحة تُفيد بأنَّ النَّبيَّ ﷺ طلب من المؤمنين والمؤمِنات أن يبايعوه غير بيعة القِتال، فإنَّ هذه الأخيرة خاصَّة.

وهذه المبايعة التي هي علىٰ هذه الصُّورة، أي علىٰ الطَّاعة، ونعني بذلك طاعة الله ﷻ وترك المعاصي، هي في حقيقتها عهد مع الله يعقِده العبد بأنْ يُطيعه ولا يعصيه ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا، فإن وقع منه شيء من المخالفات، ففي هذا المجال قد فتح الله لعباده باب التَّوبة علىٰ مِصراعيْه، ولذلك كان من مبادئ الطَّريق بعد المبايعة عقد توبة صادقة مع الله جلَّ جلاله، وتأدية الحقوق التي بينك وبينه كقضاء الصَّلاة الفائتة والصِّيام الذي لم تصُمه.

هذا وأنَّ من مبادئ الطَّريق عند المبايعة تأدية العبد للحقوق التي بينه وبين النَّاس، فإذا شتم أحدًا أو سبَّه، أو أكل ماله، أو اقترف إساءة مع أيٍّ كان، فعليه أنْ يتحلَّل من ذلك، فإن كانوا أحياء ردَّ لهم ما أخذه منهم، وإن كانوا أمواتًا ردَّ تلك الحقوق لورثتهم إن وُجِدوا، وإن تعسَّر ذلك يتصدَّق عليهم بما أخذ من أموالهم، وهذا الأمر من مبادئ الطَّريق الأولىٰ كما يقول العالم الفاضل ابن عاشر رَحِمَهُ اللَّهُ:

وتَـوْبَـةٌ مِـن كـلِّ ذنْـبٍ يُـجْـتَـرَمْ تـجـبُ فَـوْرا مُـطْـلـقًـا وهـي الـنَّـدَمْ

والطَّريق تطلبُ من الذي قرَّر سُلوك منهجها أنْ يعرِف مبادئها وآداب السَّير فيها، وكما أنَّ السَّائق في الطَّريق الحِسِّيِّ المعروف لابدَّ له من أنْ يتعلَّم قانون المرور ويُتقِنه، ثم يُتْقِن سياقة سيارته أو حافلته أو شاحنته، ويعرِف ممنوعات السِّياقة، وهناك احتياطات خاصَّة لابد عليه أنْ يأخذها ويُطبِّقها، وإذا لم يُطَبِّق هذا السَّائق تعليمات وقوانين المرور فليس مسموحًا له بالسَّير في الطريق العمومي، وقد يتعرَّض إلىٰ عقوبة من قِبَل رجال الدَّرك أو الشُّرطة إذا لم يكن يملِك رخصة للسِّياقة مثلًا، لأنَّه لا تتوفَّر فيه شروط السَّير في الطَّريق المعروفة.

وهذا بالنِّسبة للطَّريق الحسِّيِّ، وكذا الأمر في الطَّريق المعنوي، فأوَّل مرحلة تخطوها في الطَّريق أنَّك تبايع أي تعاهد الله ﷻ بصِدق وتجْمَع في هذه المبايعة

بين يدك وقلبك، وتكون صاحب عزيمة علىٰ السَّير في مراتب التَّقوىٰ، فإذا جمع المبايع هذه الأمور ماذا يحصل له؟ يحصل له الفتح القريب مِصداقًا لقوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18].

إنَّ المُبايع الصَّادق يضمن بعزيمته وإرادته وصِدقه القلبيِّ واللِّسانيِّ واستمراره علىٰ العمل الفتح القريب من الله، وهذا وعْدٌ من الله، والله لا يُخْلِف وعده، ولكنْ إن عطَّل هذا المبايع أمرًا من هذه الأمور، فمدَّ يده للمبايعة ولم يمُد قلبه لا يضمن الثَّمرة السَّالِفة الذِّكْر، ولذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10]، وعدم وفاء العبد بعهده مع الله يعود ضرره عليه شخصيًا، ومن الأضرار التي تنتج عن ذلك توقيف الفتح، أي أنَّ الله لا يفتح علىٰ من لم يفِ بعهده، ولا يُيسِّر له أمرًا من أمور طريق السُّلوك والاستمرار فيه، ولهذا تقع الهزَّات من حين لآخر لبعض الأفراد عند انحرافهم عن الجادَّة في سيرهم وسلوكهم في طريق التَّربية، وهذا أمْرٌ طبيعيٌّ.

وماذا يقع إذا انحرف السَّائق بمركبته في الطَّريق الحِسِّية العامَّة؟ لاشكَّ من أنَّه ستقع له حوادث مرور، فحينًا تتحطَّم المركبة، وحينًا آخر تقع في هاوية، ونتيجة هذه الحوادث تُقَدَّر علىٰ حسب انحراف السَّائق في الطَّريق، وهكذا الشَّأن في الطَّريق المعنويَّة فالأضرار تتأتَّىٰ وتُقَدَّر له بحسب انحرافه الحِسِّيِّ والمعنويِّ، والعقوبة في هذه الطَّريق المعنويَّة كالحِسِّية مُعَجَّلةٌ أيضًا، وأمَّا الأجر العظيم الذي يناله مَنْ أوفىٰ بعهده مع الله قد يكون في الآخرة بالنَّظر إلىٰ وجه الله الكريم، أو يكون في الدُّنيا بالطُّمأنينة والاستِقْرار والاستمرار في السَّير علىٰ منهج الله ﷻ ودوام محبَّته .

ما هي الطَّريق؟ وهذا سؤال آخر أضيفه إلىٰ سؤالك؟ الطَّريق هي الإسلام لأنَّها تضعك في مقام الاستسلام والانقياد لله بحسِّك ومعناك، وتطلبُ منك ذلك،

وتتدرَّج معك للوصول إلىٰ هذا الهدف، وهذا حسب صِدقك وعزيمتك، لأنَّ الشَّيخ لن يَصُبَّ عليك معرفة الله صبًّا كالمطر لتصير عبدا صالحًا عارفًا بربِّك، ولكن هذا يعود إلىٰ عزيمتك وإرادتك، فإن كنت صادقًا فإنَّك ستسير سيرًا حميدًا سليمًا، وتكون أمورك كلُّها طيِّبة بإذن الله، وكثيرًا من الذين ينتسبون إلىٰ الطَّريق يشعرون بتغيِّير حالهم، ويحسُّون أنَّ هناك أمرًا جديدًا قد دخل علىٰ ذواتهم، وهذا بمجرَّد أنْ ينتهي أحدُهم من مبايعة الشَّيخ المربّي ووضع يده في يده، وهذا دليل علىٰ صِدْق الطَّريق وصِحَّة سندها.

وهذه الطَّريق لها سند كالسَّند الشَّرفي إلىٰ رسول الله ﷺ من الشَّيخ عن فلان عن فلان بالرُّواة والتَّواتُر، وهذا السَّند المعروف بالسَّند الرُّوحي، وأمَّا السَّند الآخر فهو سند الشَّرف، أي السَّند البدني، فعرشُ «المويعدات» بولاية الجلفة مثلاً أشراف لهم سندٌ من أبيهم إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وكثيرًا من القبائل الموجودة في الجزائر تحملُ هذا الشَّرف ولو لم تكن تعرِف ذلك.

إنَّ المُسلِمَ قبل أن ينتمي إلىٰ طريق التَّربيَّة والسُّلوك ليس له سند ذوقيٌّ روحيٌّ، وكأنَّه كما قيل حَلَقَة مُلقاة في فلاة خالية لا يسأل عنها أحد، فإذا بايع هذا المُسلِم أستاذا مُربِّيًّا ترفع الملائكة هذه الحَلَقة وتربِطها في السَّلسِلة النَّبوية ربطًا وثيقًا وصحيحًا، وهكذا يصير هذا المبايع مُنْضَمًّا لهذا العقد الرُّوحيِّ، فإذا تحرَّك تتحرَّك السِّلسِلة بكاملها، ومن أجل هذا اهتمَّ أهل الله بالمبايعة، واعتنوا بها عناية شديدة.

لقد أصبحتْ كلمة الطَّريقة كلمة غريبة عن الإسلام، أو مُتَحَيِّزة عنه، وتُوحي بالانحراف ويعتري النَّاس الخوف عند سماعها، وقد يقول أحدنا: أنا مُسلِم وماذا ينقصني؟ والله تعالىٰ قال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]، وسمَّىٰ الله كلاً من الإسلام والشَّريعة طريقة، وكلمِة السُّنَّة أيضًا تعني الطَّريق، وهذا الاسمُ قد يكون مُذَكَّرًا أو مُؤَنَّثًا، فنقول الطَّريق أو الطَّريقة.

هذا وإنَّ الطُّرق المعروفة كالقادريَّة والتِّيجانيَّة وغيرهما لها سند في الأصل، وإنَّما الفساد الذي طرًا في بعض الطُّرق والانحلال الذي وقع هو من فساد السَّند، ولم تصبح المسألة مسألة سَنَدٍ بل أصبحتْ ميراثًا عائليًّا، وفي بعض الزَّوايا التي دبَّ فيها الفساد، إذا مات الشَّيخ ورِثه ابنُه أو أخوه أو عمُّه وليس لهؤلاء سند روحي ذوقي، فليس لهم الحقُّ في هذا الميراث لوجود هذا المانع، وفي حياتنا العامَّة هل يجوز لنا أن نُعطي شهادة مدرسيَّة في التَّعليم لأحد لم يتعلَّم بناء علىٰ أنَّ أباه كان مُتَعَلِّمًا؟ هذا لا يجوز أبدًا.

وعندما انحرفت القضيَّة وحادتْ بعض الزَّوايا عن السَّند الرُّوحيِّ الذَّوقي تحولت المشيخة إلىٰ دعوىٰ باطلة، وأصبح الكلام يدور حول مسألة التَّبرُّك، فما هي حقيقة التَّبرُّك؟ إذا أخذنا المسألة من جانب التَّبرك نقول: أنَّ المُسلِم إذا لم يجد طريقة تُرشِده إلىٰ الله وإلىٰ معرفته، فعليه أنْ ينتمي إلىٰ طريقة ولو عادية علىٰ سبيل التَّبرُّك، لكي يبدأ مرحلة الذِّكْر ويشرع في ذِكْر الله، فإذا وجد شيخًا مُربِّيًّا يأخذ بيده إلىٰ الله ويُعَرِّفه بربِّه، وكانت له إرادة وعزيمة ونيَّة صادقة فلا بدَّ له أنْ ينتقل في الحين إلىٰ صحبة هذا الشَّيخ المربّي والأخذ عليه، وإذا لم يفعل يُؤْثَم، لأنَّ صُحبةَ المُربِّي الذي له سند فرض عين في حقِّه، ومثله مثل منْ لم يجد الماء فتيمَّم للصَّلاة، والتَّيمُّم رُخصة، ولكن إذا وجد الماء ماذا يفعل؟ يجب عليه أنْ ينتقل إلىٰ الوضوء بالماء، وإنْ لم يفعل ذلك نقول له: إنَّ صلاتك باطلة، بمعنىٰ أنَّ صِلَتَك بالله باطلة.

وللأسف الشَّديد أنَّ البعضَ يفهمون أنَّ هذا تبديل للطَّريق وتحريفٌ لها، وهذا فهم فاسد وليس صحيحًا، لأنَّ المقصود من جميع الطُّرق هو معرفة الله والوصول إليه وتحقيق العبودية له، وهذا المطلوب شرْعًا، وأهل الطَّريق وأهل السَّند إذا وجدوا من يريد التَّمَكُّن من معرفة الله وتحقيق العبودية لله يساعدونه علىٰ ذلك ويوجِّهونه ويُعينونه، لأن الله قال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 2].

ويمكن أن نستخلصَ ممَّا سبق أنَّ معنىٰ الطَّريق هو السَّير في مراتب التَّقوىٰ، وقد يقول قائل: أنا مُتَعَلِّم وأقرًا القرآن وأحْسِنُ مطالعة كُتُبِ الأحاديث والفِقه وغيرها، فماذا ستعَلِّموننني؟ فنقول له: القضيَّة ليستْ كما تفهم وتتصوَّر، وصحيح أنَّك تقرًا القرآن وتتعلَّم علومه وتُطالِع كُتُب الأحاديث والتَّفاسير، ولكن هناك دقائق لا يمكن أنْ تفهمها إلاَّ عن طريق أهلها، وكذلك لابدَّ لك من شيخ لتستوعبَ عِلْمَ الحديث وتفهم علم التَّفسير، وكما قيل:

لا بدَّلك من شيخ يُريكَ شُخُوصَها وإلَّا فنصفُ العِلْم عندك ضَائِعٌ

وقضيَّة الشَّيخ المربّي ليست قضية غريبة، وقد يعارِض البعض ويقول: لماذا أتَّخذ شيخًا مربّيًا؟ وما حاجتي إليه؟ فنقول: ليس هناك أحد في العالَم لا يستعين بشيخ مربّي ولا يتعلَّم من أستاذ، فالحدَّاد تعلَّم صنعتَه من حدَّاد مثله، والنَّجَّار أتقن حِرْفته وتعلَّمها من نجَّار آخر، والصَّبَّاغ له شيخ، والشُّرطيُّ كذلك له مَن يُشْرِف علىٰ تدريبه وتعليمه وهو بمثابة شيخه وأستاذه، ولا يمكن لأحد أنْ يستغني عن الشَّيخ في جميع ميادين الحياة الحِسِّيَّة والمعنويَّة، فإذا كنتَ في شركة فلديك شيخ وهو المدير، ويقول لك: افعل كذا، ولا تفعل كذا، وهذا ممنوع، وهذا فاسد، وهذه الأمور غير صالحة، ولابدَّ أنْ تخضعَ لأوامره، فإن لم تفعل ذلك ستتعرَّض للطَّرد من هذه الشَّركة.

وإذا كنتَ كاتبا مثلاً أو حارس بلدية أو غير ذلك، فيجب أنْ تكونَ تحت إشراف رئيس البلدية وتُطِيعه وتُطَبِّق أوامره، وإلاَّ تحل بك عقوبات وقد تُطْرَدُ من عملك، وفي كلِّ ميادين الحياة لابدَّ لك من الشَّيخ، فإذا أحببتَ أنْ تتعلَّم لتصبح نجَّارًا فماذا تفعل؟ لابدَّ لك من أستاذ يُعلِّمك النِّجارة، ويُدرِّبك عن كيفية استعمال الأدوات الخاصَّة بهذه المهنة، ويُؤهلك للعمل، ويعلِّمك كيف تقصُّ الحديد، وكيف تنشرُ الخشبَ، ويراقبك أثناء عملك، وقد تكون متضايقًا أحيانًا ولكنَّك تصبر لكي تتعلَّم، ولابدَّ لك من شيخ تخضع لتعاليمه في كلِّ عمل تريد أن

تتعلَّمه، وفي كثير من الأحيان تُقدِّم مبالغ مالية مقابل هذه المشيخة المُتسلِّطة عليك وأنت فرح بذلك وتقول: كلُّ ذلك يهون لأنَّني سأتعلَّم مهنة.

وهذه الأمور نحن نقوم بها في الحِسِّ، ولكن عندما نأتي إلىٰ الجهة المعنويَّة والرُّوحيَّة نرفض ذلك ويأتي الشَّيطان ويقف لنا بالمرصاد، ويلعب ألاعيبه ويُوَسْوِس لأحدنا ويقول له: أنت مُسلِم وتقوم بأداء الصَّلاة، وماذا سيعلِّمك هؤلاء المشايخ، وقد تسمع هذا الكلام حتَّىٰ من بعض النَّاس، لأنَّ شياطين الإنس والجِنِّ يُوحِي بعضُهم إلىٰ بعض زُخْرُف القول غُرورًا.

إذن الطَّريق هو الإسلام، والإسلام ليس عنوانًا، وإنَّما طاعة لله واستسلامًا، ولو أردنا أنْ نشرح كلمة الإسلام فتساءلنا وقلنا: ما هو الإسلام؟ الإسلام أنْ تطيع الله بجميع جوارحك، فإن لم تطعه بها فإسلامك ناقص بقدر ما فيك من نقص الطَّاعة، سواء كانت هذه الطَّاعة خفيَّة، أو ظاهرة جليَّة، وسواء كانت تلك الطَّاعة تعامليَّة أو تعبديَّة، لأنَّ الطَّاعة تشمل كلَّ ميادين الحياة، ولذا رتبتْ لنا السُّنَّة المُطهَّرة أورادًا وأذكارًا وطاعات في كلِّ جوانب الحياة، فإذا أردتَ الخروج من البيت فقد أوصاك النَّبيُّ ﷺ بأن تقول: «**بسم الله توكلتُ علىٰ الله ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله**»[1]، ولابدَّ أنْ تتقيَّد بالأوراد والأذكار السَّابقة حتَّىٰ تنتج لك ثمرات، وعدم التَّقيُّد بالسُّنَّة قد تنتج بسببه آثام ومعاص، ولكن جهلنا بالإسلام يجعلنا بعيدين عن هذه الأمور .

ونلاحظ أنَّ ديننا الحنيف الحقيقي دين ذوقيٌّ وعمليٌّ وتعامليٌّ، والكثير من المسلمين في زمننا هذا اكتفوا بالعقيدة التَّقليديَّة، أي بما يتعلَّمونه من الآباء والأمَّهات، ولم يحاولوا الانتقال إلىٰ مراتب أخرىٰ لفهم هذه العقيدة.

وإذا انتقلنا إلىٰ العقيدة العِلمية التي يأخذها المُسلِم من العُلماء فيحفظها ويدرسها ويفهم شرحها من علماء العقيدة، فهذا الأمر غير كافٍ، لأنَّ كلَّ هذه

(1) رواه أبو داود والتِّرمذي والنَّسائي وغيرهم.

الأمور تحضير للوصول إلىٰ العقيدة الذَّوقية التي تقْشَعِرُّ منها الجلود وتذرف لها العيون وتتحرَّك لها قوىٰ الإنسان للعمل الصَّالح والاستمرار فيه.

وهذه هي العقيدة الصَّحيحة التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، حتَّىٰ كان أحدُهم بمجرَّد أنْ يعتنقَ الإسلام وينطق بالشَّهادتين: شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله يتحرَّك كامل كيانه، لأنْ يدعو إلىٰ الإسلام ويُضحي بحياته في سبيل الإسلام، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أعلىٰ كلمة الله في نفْسه وفي أصحابه، وإعلاء كلمة الله يشمل جانبي الدُّنيا والآخرة، وقد ورد في الأثر: «الدُّنيا مطيَّة الآخرة»، يعني المركبة التي نركبها لبلوغ الآخرة.

وإذا جئنا لميادين الحياة الدُّنيا، أي ميدان كان، فإنْ كنتَ عاملاً في إدارة ماذا يجب عليك؟ يجب عليك الإخلاص في العمل، والصِّدق في القول، والمعاملة الحسنة، والقول الحسَن، والتَّعامل الأحسن مع كل من يأتيك من المواطنين أومن هو معك في الإدارة، وهذه معاملة إسلاميَّة طلبها منك الإسلام، فأنت مأجور مرتين، ولك أجرة ماديَّة في الدُّنيا، وأخرىٰ معنويَّة في الآخرة، لأنَّك طبَّقتَ ما أمرك الله به من الإخلاص في العمل والصِّدق فيه، ونحن كلنا نريد أنْ نبني وطننا، وهذا واجب وشرف، ولكن نرىٰ مع الأسف، الكثير يدعي تشدقًا أنه يريد بناء الوطن، ولا يتفاعل في شعوره ووجدانه مع حب الوطن والمحافظة عليه بروح مسؤولة. وكلُّ مَن كان في مكان عمله غير مُخْلِص فهو واحد مِن أعداء البلاد، وممَّن يُخرِّبونها، ومن كان في موطن عمله كذَّاب فهو ممَّن يُخرِّب وطنه بوجود الكذِب في نفسه.

ونلاحظ أنَّ التَّخريب في المجتمع يبدأ حتَّىٰ من المرأة في البيت، فربَّة البيت التي لا تحافظ علىٰ الماء، ولا تُحْسِن استغلاله وتُبذِّره، ولا تحافظ علىٰ الغاز ولا علىٰ الكهرباء، هذه المرأة ممَّن يُفسِد علىٰ المسلمين اقتصادهم ويُخَربُّه، وقد تكون هذه زوجتك أو أختك أو أمُّك وأنت مسؤول علىٰ هذا التَّخريب لأنَّك لم توصها بالمحافظة عن خيرات البلاد، ولم تعلِّمها ذلك، وقد تقول لها: إنَّ ثمن

الماء مدفوع من البلدية فافعلي به ما شئتِ، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّك لا تعمل الحِساب إلا لنفْسك، أمَّا بقية البشر وسائر الحيوانات فإنَّك لا تهتمُّ بهم ولا تجعل لهم أدنىٰ حساب، وقد ورد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَن لمْ يَهْتَمْ بأمْرِ المُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ**»[1].

وجدير بنا أنْ نضع أيدينا في أيدي بعضنا ونخدم بلادنا وديننا معًا، لأنَّ الدِّين لا يمنعنا من خدمة وطننا، فقد ورد في الأثر: «حُبُّ الوطنِ من الإيمان»، فماذا يعني حُبُّ الوطن؟ يعني أنْ تُحِبَّ الوطن كما تُحِبُّ نفْسك، وتُحِبُّ لكلِّ مَن في الوطن كما تُحِبُّ لنفْسك، وهذا هو حُبُّ الوطن وليس حُبُّ الوطن تشدُّقًا، أو كلمة تتلفَّظ بها الألسنةُ ولا تتحقَّق في ميدان الحياة، وأنتَ في الحقيقة في موطِن عملك خادم مُكَرَّم لخدمة الوطن، ولكن مِنْ قِبَل مَنْ؟ إنَّ ذلك من قِبَل المواطن الذي يحتاجك ويقصدك في البلدية مثلاً لتصدر له أوراقه الخاصَّة به كشهادة الميلاد وغيرها، ولقد جاءك التَّكريم من قِبَل هذا المواطن وبسببه، والمفروض أنَّه عندما يأتيك تُقَدِّره وتحترمه، وتتأدَّب معه وتعامله بالحُسنىٰ، وتُكلِّمه بلُطف وتقضي له حاجته فورًا.

وهبْ أنَّ مُوَظَّفًا في مصلحة من مصالح البلدية يُعَطِّل مصالح النَّاس، فهذا في الحقيقة أوَّل ما يقال فيه أنَّه يُخَرِّبُ اقتصاد الجزائر، وقد يقول القائل: كيف يحصل ذلك؟ فنقول له: هؤلاء الذين تعطَّلتْ مصالحهم إذا كان فيهم مثلاً راع لمواش فقد ضيَّعْتَ له ماله، وإذا كان مِن بينهم عامل في إدارة فقد ضيَّعتَ له ساعة أو ساعتين، وهل تدري علىٰ حساب مَن سيكون ذلك؟ سيكون ذلك علىٰ حساب اقتصاد البلاد ومن اقتصاد الجزائريِّين، ولقد ضيعتَه أنت بوجودك في الإدارة، ويفترض أنْ هناك قانون يعاقبك علىٰ ذلك، وأنه من واجب المسؤول المباشر عليك أنْ يُسلِّط عليك عقوبة، لأنَّك قد ضيعتَ يومًا كاملاً لمواطن، وهذا علىٰ حساب مَن؟ إنَّه علىٰ حساب كل مواطن ومواطنة، لأنَّ كلا منهم له قِسْطٌ وحقٌّ في ذلك اليوم، وانظر أنت لو جاءك إلىٰ المصلحة التي تُشرف عنها، عشرون مواطنا

(1) رواه الطَّبراني في المعجم الأوسط.

عاملاً، فتكون قد ضيَّعتَ لهم بمعاملتك هذه عشرين يومًا، فماذا تكون قد فعلتَ؟ وهل خَرَّبْتَ البلاد أم لا؟ وأنت قد يظهر لك الأمر بسيطًا عندما تقول للمواطن: عُدْ غدًا، وأنت لا شُغْلَ لك حينئذ، وتستهينُ بتصرُّفك هذا، ولكنَّك ضيَّعتَ للوطن مُرتَّب عشرين يومًا أخذه هؤلاء العمال دون مقابل، وما معنىٰ هذا؟ أليس هذا مال ضاع من خزينة البلاد؟

ومِن هنا يتَّضح أنَّك تُخَرِّب اقتصاد وطنك وبلادك، والمفروضُ أنْ تُعاقَبَ، والتَّسامح في هذا المجال هو الذي أدَّىٰ بنا إلىٰ الحالة التي نحن فيها، وهذا التَّسامح ليس في محلِّه، وأنت مادمتَ تأخذ مقابلا علىٰ عملك يجب أنْ تُؤدِّيه بكلِّ إتقان وصِدْق وإخلاص، لكي تأكلَ الحلال، وهذا في فائدتك مع ذاتك، ومصلحتك تقتضي هذا، وقِسْ علىٰ ذلك بقية الأمور.

وهذه أمثلة فقط قدَّمتها لكم لتفهموا معنىٰ خدمة الوطن وحُبِّه، وهذا هو المنطلق الذي ننطلق منه جميعًا كلٌّ في موطن عمله، وهذا ما ننصح به عرش «لمويعدات» الذين لهم وظائف ومسؤوليات وأقول لهم: أنتم أشراف، وجَدُّكُم النَّبيُّ ﷺ وقد كان صادقًا ومُخلِصًا وأمينًا، وكان يطيع الله ﷻ، وحقَّق العبودية في نفْسه وحقَّقها في غيره، وعليكم أنْ تكونوا أنتم مِثالا أعلىٰ في الصِّدق والوفاء بالعهد، والعمل الجادِّ في أي موطن تكونون فيه، لتكونوا مواطنين صالحين من جهة، ومن جهة أخرىٰ عبادًا لله تُخْلِصون له في عملِكم وبهذا الإخلاص وبهذا الصِّدق نُعطي مثالا لغيرنا، والمؤمنُ قدوة لغيره في سلوكه وفي كلامه وفي معاملاته، وحتَّىٰ في بيته إذا دخلها يتعامل مع عائلته بكلِّ ملاطفة في حدود ما حدَّه الله، وكأنَّه يُعطيهم دروسًا دون أنْ يُكلِّمهم في الآداب والأخلاق وفي كيفية الجلوس وآدابه وآداب الأكل.

والمسلم يكون دائمًا قدوة في الخير وفي كل ميادين الحياة، ونحن قلنا أنَّ الدِّين يشمل كل ميادين الحياة، والطَّريق ليس لها اعتراض علىٰ ميادين الدُّنيا كما يزعم آخرون فيقولون أنَّ أهل الطريق يعلِّمونك الزُّهد، والزُّهد في الدُّنيا أمرنا به

الحقُّ ﷻ حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: 5]، ولسنا نحن الذين أمرنا بالزُّهد، بل الله أرسل أنبياء ورسلا وعلَّمهم الزهد وأسكنه في قلوبهم، والعبد إذا عشِق المادَّة صار مادَّة كمثل الجدار، بل الجدار خير منه لأنَّه يسبِّح بحمد الله.

لقد جاءتْ السُّلطة للبشر من كونه خليفة لله في أرضه، فإذا أخلَّ بالخلافة تلعنه كلُّ الكائنات المُسخَّرة له، وحتَّىٰ طعامه وشرابه ولباسه وفراشه وكلّ ما حوله، وكأنَّ حالهم يقول له: أنت خليفة فاسد، ونحن سَخَّرنا الله لك، وجعل تسخيرنا لك طاعة له، فلماذا أنت تعصيه؟ ولو سمِع الإنسان ذلك لفَقَد عقله، ومُن لطف الله ﷻ به أنَّه لا يسمع ذلك، وهذا من كرم الله عليه.

ومادام الإنسان خليفة لله في أرضه فعليه أنْ يُحسِن عمله ويُخلص فيه لله، فقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللهَ** ﷻ يحبُّ إذا عملَ أحدُكم عملاً أن يُتْقِنَهُ»[1]، وبعد تأدية العبد للفرائض والواجبات التي أوجبها الشَّرع عليه، وقيامه بعمله المنوط به، عليه أنْ يستغلَّ بقية وقته في الصَّلاة وفي تلاوة القرآن الكريم، وفي المساجد لحضور دروس العِلْم وخصوصًا العلوم الضَّرورية: كالعِلْم بالصلاة والزَّكاة، والصَّوم والحجِّ، والعِلم بالمعاملات وعلم التَّوحيد، وغيرها من العلوم الواجبة وجوب العيان، ولا حُجَّة لأحد بأنْ يقول: لم أتعلَّم ولم أدْرُسْ، فلا بدَّ علينا من طلب العِلْم والتَّعلُّم، ونجاحنا في خدمة وطننا ليس مضمونًا في أي ميدان في الحياة إلاَّ بالعِلم .

وإذا عدنا إلىٰ الكلام عن الطَّريق فنقول بصفة موجزة: الطَّريق هو الإسلام نفسه بجميع جوانبه، وكل ما يدعو إليه الإسلام تدعو إليه الطَّريق في وسطية واعتدال، وإصلاح وألفة، ومحبَّة وأخوَّة، وتضامن روحي عملي في ميادين الحياة كلِّها، سواء كانت تعبُّديَّة أو تعامليَّة، أو دنيوية أو أخروية، وهذا ما ندعو إليه،

(1) رواه الطَّبراني والبيهقي وغيرهما.

وليس لدينا أمر آخر ننشده غير هذا، وكما ورد في الأثر: «خيرُ الأمورِ أوسطها»، والغُلُوُّ في الدِّين ليس ممدوحًا ولا محمودًا.

السُّؤال الثاني: هناك عدَّة تيَّارات تطعنُ في الطَّريقة ممَّا جعل بعض الشَّباب ينفُرُ منها، فما هي الأسباب التي جعلتْ هذه التَّيَّارات تطعنُ في الطَّريقة؟ وما هو الدَّور المنوط بأهل الطَّريق لردِّ هذه الطُّعون؟ أرجو منكم سيِّدي الشَّيخ الكريم توضيح ذلك، وشكرًا[1].

الإجابة: نحن في الحقيقة عندما نتابع هذه القضيَّة قضيَّة التَّيَّارات الموجودة حاليًّا، ومِن بينها التي تطعنُ في المنهج، نُحَكِّمُ الإسلام في المسألة، وقد علَّمنا الشَّرع الشَّريف أمورًا ومنها: إذا أتاك أحد يطعن في إنسان أو في الطَّريق، ماذا ينبغي أنْ تفعل؟ وماذا يطلبُ منك الإسلام في هذه الحالة؟ عليك أنْ لا تقبل كلَّ من يطعنُ في أي إنسان حتَّىٰ تَتَّطلِع علىٰ حقيقة حاله، وكذلك بالنِّسبة للطَّريق، لأنَّ باستطاعتك أنْ تُعاشِر أهل الطَّريق أيَّاما لترىٰ ما فيها وتعرِف حقائقها، وذلك يُعطيك البرهان علىٰ كذِب مَن يطعنُ فيها، أو يُعطيك أنَّ ما يُقال فيها صحيح.

والشَّابُّ العاقلُ الذي يستعمل عقله ودينه عندما يطعنُ النَّاس في أمر ما، عليه أنْ يباشر ذلك الأمر ويعايش أهله، ويرىٰ بنفسه حقيقته، فإنْ وجد ما قاله الطَّاعنون صحيحًا، فليقل بلسانه لأهل الطَّريق أنَّ ما قيل فيكم صحيح، وإنْ وَجَدَ عكس ذلك فعليه أنْ يَرُدَّ هو علىٰ هذه الفئات التي تطعن في أهل الطَّريق، ويقول لهم: أنَّ ما قلتموه في طعنِكم كذبٌ وزور وبهتان ولا يُصدِّقهم، وأنا أُلْقِي عليك هذا السُّؤال: ولماذا الشَّابُّ يسمع منْ يطعن في الطَّريق، ولا يسمع مَن يمدحها؟

وهناك فئات يمدحُون الطَّريق وآخرون يقدحون فيها، وهذه سُنَّة الله في الكون حتَّىٰ علىٰ مستوىٰ الأفراد، ولو طبَّقنا عليك أنت هذا المبدأ لوجدنا أناسًا يمدحونك وآخرين يطعنون فيك، لأنَّ المرء لابدَّ أنْ يعيش بين مادح وقادح، وهذه

(1) سؤال طرحه علىٰ الشيخ الجليل علي تابعي، إمام وخطيب مسجد بلدية «خميس المويعدات» ولاية الجلفة، الذي حضر هذه الجلسة الربّانية. (جامع الكتاب).

سُنَّة الله لا نستطيع تغيِّيرها، وهل كلُّ ما تُطْعَنُ به ويقال فيك صحيح؟ قد يكون صحيحًا، وقد يكون غير صحيح، والواجب علينا عندما نسمع لمن يطعنُ في أمر ما علينا أنْ نسمع أيضًا لمن يمدحه، فإذا كنَّا لا نسمع إلاَّ للَّذي يطعنُ، فالقضيَّة فيها عِلَّة، والشَّابُّ الذي لا يسمع إلا الطُّعون، ولا يسمع المدح، لا يريد أنْ يسلكَ طريقًا سليمًا، ولا يريدُ أن يُقْبِلَ علىٰ الله حقَّ الإقبال.

ولابدَّ للعاقل أنْ يحكُمَ علىٰ الأمور بعد فحصها، وهو يُعتَبر الحاكم علىٰ الطَّريق بشرط أنْ تكون له مبادئ وتعليمات إسلاميَّة صحيحة، لأنَّه لا يستطيع أنْ يحكم بعقله، لأنَّ العقل أداة فهم، وليس حاكمًا، وإنَّما محكوم عليه، والحكم العقليُّ لابدَّ أنْ نُسلِّط عليه الحكم الشَّرعيَّ، ولا يجبُ أنْ نرُدَّ النُّصوص الشَّرعيَّة علىٰ الله ﷻ، أو نردَّ النُّصوص النَّبويَّة علىٰ نبيِّه (عليه الصَّلاة والسَّلام)، والحقيقة أنَّه إذا وجدنا نصًّا قُرآنيًّا أو نصًّا نبويًّا، فلابدَّ علىٰ العقل أنْ يأخذه مُسلِّمًا ساجدًا راكعًا، خاضعًا خانعًا، فإذا فهمه عمل به، ولا يقول: أنا لم أقتنع حتَّىٰ لا يُصبِح الدِّين بالشَّهوات وبالحظوظ، وهذا فساد.

لقد جاء الدِّين لإكراه النَّفْس علىٰ الانقياد لله وطاعته، ولذا سُمِّيتْ الطَّاعات بالتَّكاليف الشَّرعية، لأنَّ النَّفس تنفُر منها فتُجْبَر عليها، والشَّرع مثلاً يقول للمسلِم: صلِّ لله، فإنْ لم تفعل فمصيرك النَّار، وهذا نوع من الإكراه، ولكنَّه في صالح الشَّخص المُصلِّي، ومِثالُه للمقارنة كمريض مرض مرضًا خطيرًا يحتاج إلىٰ عملية جراحية، ولكنه أبىٰ ورفض الأمر، فأخذه أهله قهرًا عنه إلىٰ المستشفىٰ لإجراء العملية وهو مُكْرَه وغير راض، ولكن هل ذلك في صالحه أم لا؟ لاشكَّ أنَّ المسألة في صالحه، ولقد جاءت الشَّريعة الإسلاميَّة بما تكرهه النَّفْس، ولذلك قال الرَّسولُ ﷺ: «**حُفَّت الجَنَّة بالمَكارِه، وحُفَّت النَّارُ بالشَّهوات**»[1].

إذن يجب علىٰ الشباب أنْ لا يتسرَّع في الحُكْم علىٰ الغير بمجرَّد وجود طاعنين، ولا يتسرَّع أيضًا حتَّىٰ في المدح، بل عليه أنْ يباشرَ الأمور بنفْسِه، ويسمع

(1) رواه مسلم والتِّرمذي وأحمد وغيرهم.

للطَّاعن والمادح، ويُمَيِّز بينهما، والمفروض عندما يأتيك من يطعنُ في شخص أو في أمر من الأمور أو في الطَّريق أن تنظر للطَّاعن هذا ما محلُّه من الإعراب؟ وهل هو رجلٌ تقيٌّ وأمينٌ، وثقة وله عقل سليم؟

وهناك البعض يقولون أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**مَن رأىٰ منكُم مُنْكَرا فليغيِّره بيده، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإنْ لم يستطعْ فبقلبِه، وذلك أضعفُ الإيمان**»[1]، ولكن النَّبيَّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) يقول ذلك بوحيٍّ من الله فقد قال: من رأىٰ، ولم يقلْ من توقَّع أو توهَّم، أو ظنَّ أو سمع، بل قال: من رأىٰ. وانظر إلىٰ هذه الدِّقَّة النَّبويَّة في هذا الحديث الذي يتلاعب في فهمه الكثير من النَّاس، والمقصود هنا بالرُّؤية الرُّؤية البصرية والدِّينيَّة الشَّرعيَّة التي تُمَيِّز المنْكر من المعروف، وينبغي علينا أن نتأكَّدَ من صحَّة بصرك الجسمي، وصحَّة بصيرتك الدِّينيَّة، وأنَّ لك إِحاطة بالمُنْكر، ومِن الجانب الشَّرعيِّ فيه، وأنَّ الذي رأيتَه هو مُنْكَرٌ.

وفي قضيَّة الإمامة مثلاً إذا قدح جماعة من المُصَلِّين في إمام ورفضوا الصَّلاة وراءه، فعلينا أنْ ننظرَ في هذه القضيَّة، إلىٰ الذين يعيبون هذا الإمام، هل هم أفاضل القوم أم عامَّتهم؟ ولا نقول مباشرة للإمام أنت ملعونٌ واترك الإمامة، بل علينا أنْ نبحثَ القضيَّة بعُمْق ورويَّة، ولا نراعي في هذه المسألة إلاَّ أتقياء القوم والصَّالحين منهم.

يجب علىٰ من يتصدَّىٰ لتغيِّير المنكر أنْ تكونَ له دِراية بالشَّرع، فإن لم يكن له ذلك فإنَّ حكمَه محكوم به عليه قبل أنْ يحْكُمَ به علىٰ غيره، لأنَّ كلَّ حاكم محكوم عليه بما حكم، ومِن هنا يجبُ التَّحرِّي في الأخبار وفي سماعها، وفي روايتها عن الثِّقات وعن الطَّيِّبين، فإن حصلَ لك شكٌّ يجب عليك أن تبحث القضيَّة بنفْسِك، ولذلك قال العالم الربّاني الشَّيخ العلاوي رضي الله عنه:

يـأتِـي ولَـوْ بـالـتَّـجـريـب فـلَـهُ مِـنَّـا نـصـيـب

أي تعال وجَرِّب وانظر بنفسك، فإنْ وجدتَ عندنا باطلا فقل: يا جماعة لقد

(1) رواه مسلم والتِّرمذي وابن ماجه وغيرهم.

وجدتُ عندكم باطلاً، ولكن عليك أنْ تبرهنَ علىٰ ذلك برهانا شرعيًّا وليس برهانا نفسيًّا، وبهذه الكيفية التي شرحناها يعرِف الإنسانَ الحقَّ من الباطل والضَّلال من الهُدىٰ، لأنَّ الله وهبنا العقل لنعرِف به البدائل .

ليس من السَّهل أنْ تحكمَ علىٰ فئة من المُسلِمين بأنَّهم أصحاب باطل وتتكلَّم فيهم، وورد في الخبر: «لا تُعَيِّرْ أخاك بما فيه، فيعافيه الله ويبتليك»، ولماذا لا يجب عليك أن تعتب علىٰ أخيك وتعيِّره؟ لأنَّك إذ فعلت ذلك فقد آذيته، وقد جاء في رواية أنَّ النَّبيَّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) قال: «**مَن آذىٰ مسلما فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذىٰ الله**»[1]، ويقول الحقُّ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ **[الأحزاب: 58]**.

والاختلاف الموجود بين النَّاس من قِلَّة الإنصاف، لأنَّنا لا نُعطي الحقَّ مِن أنفْسنا، ونريد أن نأخذ حقَّ غيرنا، ولذلك قيل في الحِكمة: «لَوْ عمِل النَّاسُ بالإنْصَافِ ما رأيتَ بينهم مِنْ اختلاف»، وهذا ما أردتُ أن أوضحه في هذه القضيَّة من خلال سؤالك الذي سألتَه.

وبالله التَّوفيق، وإلىٰ لقاء آخر إنْ شاء الله.

(1) رواه الطَّبراني عن أنس رضي الله عنه.

الحِوار الرَّابع

حول مجال التَّـربية الرُّوحيَّة

في مدينة ورقلة وفي زاويتها العامرة، جرىٰ هذا اللِّقاء الكريم بين شيخنا الجليل ﷺ وبين مجموعة من أتباعه وكذا بعض الضُّيوف، وبعد أن فتح فضيلة الشَّيخ للحاضرين باب الأسئلة تواردت هذه الاستفسارات التي نُورِدها مع أجوبتها الشَّافيَّة الكافيَّة.

❁ ❁ ❁

السُّؤال الأوّل: سيِّدي الشَّيخ الكريم، ما هو الفرق بين شيخ التَّربيَّة والسَّلوك وشيخ التَّبرُّك؟

الإجابة: إنَّ لطريق التَّبرُّك رجالاً ولطريق التَّربيَّة رجالاً، والمعلوم شرعًا أنَّ في غياب الماء أو لضرورة ما، ينتقل المتوضئ من الماء إلىٰ التَّيمُّم، فالماء في طريق السُّلوك بمثابة شيخ التَّربيَّة، وعلىٰ هذا الأساس مَن لم يجد شيخًا للتَّربيَّة فله أن يأخذ علىٰ شيخ التَّبرُّك، ولكن هذا لا يعني أنَّنا نتعصَّب لطريقة معيَّنة فيقول البعض: أنا «رحمانيٌّ»، ويقول آخر: أنا «قادريٌّ»، ويقول ثالث: أنا «تابعيٌّ»، فهذا كلام ينتج عن التَّعصُّب ولا معنىٰ له، وهو كلام أناس لا يفهمون شيئًا في الطَّريق.

والأمر المؤسف حقًا أنَّ البعض ممَّن ينتسبون إلىٰ الطُّرق لا يفهمون معنىٰ الطَّريق، ولا يُدرِكون حقيقتها، وهذه هي المصيبة الكبرىٰ، وتجد البعض من هؤلاء يسير علىٰ عماه وهو لا يفهم شيئًا، وكأنَّ طريق التَّربية والسُّلوك في نظره مجرَّد انتساب فقط، ويقول مثلاً: أنا «رحمانيٌّ»، وهو ليس «رحمانيًّا» أصلاً، لأنَّ الانتماء إلىٰ الطَّريقة الرَّحمانيَّة ليس بالاسم، بل بالعمل والجدِّ وبالذَّوق والفهم، وبالعِلْم ومعرفة الله ﷻ . لأنَّ أصل «الرَّحمانيَّة» طريق جاءت توصِل إلىٰ الله، فإذا أنت لم تبحثْ عن الوصول إلىٰ الله، ولم تصِل إلىٰ هذا الهدف، فكيف تكون «رحمانيًّا»؟

أنت لست «رحمانيًّا» أصلاً، بل تكذِب علىٰ الطَّريقة الرَّحمانيَّة، وقد جعلتَها عنوانا واتَّخذتها صنما من الأصنام لتحول بينك وبين ربِّك فقط.

لقد وصل الأمر ببعض الأتباع إلىٰ درجة أنّهم كادوا أن يجعلوا من مشايخهم أصناما تحول بينهم وبين الله، وهذه مصيبة ليس لها نظير، وهناك البعض يقول: أنا شيخي فلان، فنقول له: هيَّا نتحاكم عند شيخك، ونقدِّم أمامه القضيَّة لنرىٰ هل أنت تحبُّ شيخك حقيقة وتتّبِعه وتسمع أقواله وتطيعه أم لا؟ فيأبىٰ ذلك ويرفضه ويُصِرُّ علىٰ قوله: إنَّ شيخي فلان، وهو يترك كلام شيخه ولا يعمل به، وهذا كلُّه من منابع النَّفس ومَكْرِها، ومن دسائسها وخسائسها، لكي تُثَبِّط صاحبها علىٰ السَّير والسُّلوك في طريق التَّربية، لأنَّ أصعب أمْرٍ علىٰ النَّفْس هو السُّلوك.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الهدف الأسمىٰ من الانتساب إلىٰ أيِّ طريق هو الوصول إلىٰ معرِفة الله، وهذا الأمر المُهِمُّ لا يدرِكه الكثير، فقد تجد البعض مُقتنعًا بما هو فيه ويقول: إنَّ لديَّ وِرْدًا أذكره، ولكنَّ الكثير من النَّاس ذاكرون لله ولهم أوراد يتعهدونها، فإذا كانت قضيَّة التَّربيَّة والسُّلوك محصورة في الأوراد، فلكلٍّ منَّا أن يأخذ تلك الأوراد من مصادر الكتاب والسُّنَّة، ولا يحتاج في الأمر إلىٰ شيخ مربّي أو إلىٰ أيِّ أحد، فكلُّ الأذكار بما تشتمل عليه من استغفار وصلاة علىٰ النَّبيِّ ﷺ وتسبيح وتهليل موجودة في القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة، فلكلٍّ منَّا أن يأخذ الأوراد من مصادرها الحقيقيَّة وانتهىٰ الأمر.

ولكن ليست الحكمة في الأوراد فقط، ولكن الحكمة في من تأخذ عنه تلك الأوراد، وهل هو أهْلٌ لذلك؟ وهل تتوفَّر فيه شروط المربِّي، أم هو صاحب دعوىٰ؟ وقضية التَّصدِّي للسُّلوك والتَّربية وقع فيها الأكثرون في أخطاء وهم يتخبَّطون فيها، وقد يستعملُ البعض هذه القضيَّة لإعاقة نفْسِه وغيره من النَّاس عن طريق السُّلوك، ونقول لمثل هذا: يا أخي هذا أمر تجهله ولا تعرِفه، فما لك ولهذه القضيَّة، وما الذي يدفعك إلىٰ ادِّعائها؟

يقول السَّادة الصُّوفيَّة: «إنَّ علىٰ المريد أن يُسلِّم للشَّيخ ويأخذ عنه»، ولكن متىٰ يحدث كلُّ ذلك؟ عندما يجد المريدُ الشَّيخ المربِّي الذي تتوفَّر فيه شروط التَّربيَّة المطلوبة عند القوم، وبعد هذا يحقُّ للمريد التَّسليم للشَّيخ، وليس الأمر أن يأتي أحد مُغمض العينين، ويأخذ علىٰ «مقدَّم» ما يدَّعي أنَّه شيخ في طريقة معيَّنة، ونحن نقول لكلِّ من يدَّعي مقام التَّربيَّة: من يُثْبِت لك ذلك؟ ولا بدَّ لك أن تُثْبتَ بُنُوَّتك حتَّىٰ يصِحَّ هذا الإدِّعاء، وعليك أن تأتي بالأصل لنقبِل الفرع، وإذا لم يكن عندك الأصل فلا فائدة من ادَّعائك، ومَن هو أستاذك الذي أخذتَ عنه؟

إنَّ هناك شروطًا حدَّدها قوم الصُّوفيَّة بدقَّة يجب أن تتوفَّر في شيخ التَّربية، وكلُّ من يدَّعي مقام التَّربيَّة يجد نفسه خارج هذه القضيَّة وبعيدًا عنها، ويقول له القوم: أنت مُدَّعٍ ولستَ أهلا لمقام التَّربيَّة والسُّلوك، وقد قال العالم الربّاني الشَّيخ العلاوي رضي الله عنه في هذا المعنىٰ:

تنحَّ عن عِلْمِ القوم لستَ من أهله لا تقرب مال اليتيم ذاك نفسُ الْبَلاَ

وقد دخلتْ في ميدان هذه القضيَّة الأغراض الدّنيويَّة والمصالح النّفسيَّة، والطَّريق التي فيها الحظوظ لن يصِل فيها أحد أصلاً، فليس في طريق القوم حظوظ، ولكن فيها محبَّة وتوادد، وإذا كان المقصود من الطَّريق الوصول إلىٰ الحظوظ والمصالح، فلن يفلِح فيها أيُّ طالب بتَّا، لأنَّ من كان مقصوده غير الله، فهو يعبد الله علىٰ حَرْفٍ وله مقاصدٌ أخرىٰ، وما دام للمرء مقاصد غير ربَّانيَّة، فهو ليس للحقِّ قاصد، وهذه هي الحقيقة، وهذا الكلام مُرٌّ، وعندما يقوله العبد يشعر بمرارته وصعوبته والنَّاس لا يقبلونه.

إذن فالمشكِلة ليستْ في الطَّريقة، وليستْ في الاسم ولا في مجرَّد الانتساب، فإنَّ مجرَّد الانتساب لا ينفع، إنَّما الطَّريق أخلاقٌ وسلوكٌ وآدابٌ، وليست انتسابًا، وهل كان المشايخ يدعون النَّاس إلىٰ أنفسهم؟ لا، بل كانوا يدعون النَّاس إلىٰ الله ﷻ، ويسُوسُونهم إليه لا إلىٰ أنفسهم، فالشَّيخ المربّي لا يدعوك إلىٰ نفْسِه، وإنَّما يدعوك إلىٰ ربِّك، وأمَّا الشُّروط الضَّروريَّة للصُّحبة واللاَّزمة لها

والآداب مع الشَّيخ المربّي، فتلك تأتي فيما بعد عندما تقتنع بقضيَّة التَّربية والسُّلوك بشكل صحيح.

لقد حصل لغط في بعض الطُّرق، واختلط فيها الحابلُ بالنَّابل، ومع الأسف الشّديد فإنَّ بعض الأتباع هم الذين أهلكوا الطُّرق، وكانوا سبب فسادها بالكذب والزُّور، والبهتان والتَّحايل والشَّيطنة، ويُشترط فيمن يدخل ميدان السُّلوك والتَّربيَّة، الصِّدق والأمانة والوفاء بالعهد، وهذه الأمور تتوفَّر في المرء تدريجيًّا.

يجب علىٰ من يريد الانتساب إلىٰ طريقة ما أن يكون علىٰ بصيرة من أمره، وينبغي عليه أنْ ينظر إلىٰ هؤلاء الذين يريد أن يصحبَهم وينتسبَ إليهم هل هم صالحون؟ وهل هم أهل للتَّربيَّة؟ وإذا قيل لنا: أنَّ فلانا هو شيخ طريقة ما، فالمفروض أن نقول نحن: علىٰ من أخذ هذا الشَّيخ؟ ومن هو شيخه في التَّربية؟ وقضيَّة التَّربية والسُّلوك مثل البنوَّة البدنيَّة، فهل تصحُّ بُنُوَّة بدنيَّة كاذبة؟ فإذا انتسب أحدٌ إلىٰ آخر، وأنكر هذا الأخير الأمر، فهذه البُنوَّة البدنيَّة تسقط، ولا تصحُّ، ولا يُعْتَدُّ بها، وهكذا الشَّأن بالنِّسبة للأبوَّة الرُّوحيَّة يُشترط فيها البُنُوَّة الصَّحيحة لا البُنُوَّة الكاذِبة، بحيث يشهد النَّاس أنَّ فلانا قد تربَّىٰ علىٰ يد شيخه فلان، وأنَّ شيخه هذا معروف بالصَّلاح والتَّربيَّة، لأنَّ الذي لا يتلقَّىٰ تربيته علىٰ يد شيخ مُرَبٍّ يُعدّ عُند القوم بمثابة ابن زنا لا يرث البتة في المعنىٰ، كما لا يرث في الحِسِّ.

السُّؤال الثّاني: سيِّدي الشَّيخ الفاضل، أنا أتكلَّم عن واقعي فأقول سائلاً: كيف العمل الآن ليجِد الإنسان نفسه مغمورًا في هذه الرَّوحانية العظيمة التي كنتم تتحدَّثون عنها وتصفونها لنا؟ وإنِّي أتكلَّم عن واقع نفسي، فلقد حاولتُ الخشوع في الصَّلاة والحضور فيها، ولكنِّي لم أصل إلىٰ ذلك، فكيف العمل للحصول علىٰ هذا؟

الإجابة: ينبغي علىٰ المؤمن عند فقد الشَّيخ المربِّي الالتزام بالكتاب والسُّنَّة، ويجب عليه أن يُلزِم نفسه بالفرائض والسُّنن ثُمَّ بالفضائل، ويتدرَّج هكذا حتَّىٰ يجِد من يأخذ بيده، وقد يأتي إمام مثلك ويقول: أنا إمام أقرّا القرآن وأطالع التَّفاسير

وأفهم شروح الأحاديث، فماذا ينقصني لأعرف حقيقة الدِّين؟ أقول لك: هذا الأمر صحيح، ولكن ما دامت النَّفْسُ لم تتطهَّر فإنَّها ستتدخَّل في القضيَّة وتجعل لك حظوظًا في قراءتك للقرآن وفي مدارستك للتفاسير وفي دروسك التي تُلقيها علىٰ غيرك، وهذه الحظوظ هي عوائق تعوقك عن ربِّك، وعلائق تتعلَّق بها النَّفس.

وقد تقول: إنَّ الشَّريعة موجودة فأتمسَّك بها وألزمها، فنقول لك: هذا أمر صحيح، وأنت ملتزم بالشَّريعة في نظرك، ولكن هل أنت متشرِّع علىٰ أساس سليم وصحيح؟ ومن يفتِّش أمرك هذا؟ ومن يبحث لك عن حقيقته؟ ولا بدَّ لك من مُرْشِد في هذه القضيَّة تعرض عليه ما استشكل من أمورك وأحوالك ليبيِّن لك الحقَّ من الباطل، وكما قيل:

لا بدَّ لك من شيخ يُريك شخوصَها وإلَّا فنصفُ العِلْم عندك ضائِع

وقد تقول: إنَّ لي وِرْدًا أذكره وأداوم عليه، ولكن أنت علىٰ أيِّ أساس اخترتَ هذا الوِرد أو هذا الدُّعاء؟ فقد تكون قد مِلْتَ إلىٰ هذا الوِرْد لما فيه من الأجر والثَّواب، وقد تكون قد استحسنتَ دعاء معيَّنا لما ذُكِر فيه ما يناله من يدعو به، ومن هذا المنطلق تلاحظ أنَّ نفسك قد مالت إلىٰ حظوظها في هذا الدَّعاء أو ذلك الوِرْد، والحظوظ تُعْطَىٰ للأطفال وليس للرِّجال، وقد تقول: لقد وجدتُ هذه الأوراد والأدعية في الكتاب أو في السُّنّة أو في السِّيرة النَّبويَّة، فنقول لك: لقد كان النَّبيُّ ﷺ يخاطب الرِّجال والنِّساء والأطفال، فهناك كلام يخصُّ عامَّة النَّاس فيأخذه الطِّفل وتأخذه المرأة، وهناك كلام له خصوصياته فهو للخواصِّ دون العوامِّ من النّاس، بدليل أنَّه ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ جمع بعض الصَّحابة وتحدّث معهم في سريَّة، فهذه الخصوصيات أمر آخر، ولهذا نرىٰ الصَّحابة يختلفون في مقاماتهم، فأبو بكر ليس كعمر، وعمر ليس كعثمان، وعثمان ليس كعلي (رضي الله عنهم جميعًا وأرضاهم).

فهناك خواصُّ الصَّحابة، وهناك من هو أقرب من الخواصِّ، ولماذا كلُّ هذه الاختلافات الموجودة بين الصَّحابة؟ ولماذا هذه المراتب؟ إنَّ كلَّ هذا دليل علىٰ

اختلاف سيِّر الصَّحابة الأجلاَّء وأحوالهم، وهكذا حالنا اليوم، فكلُّنا مُسلِمُون ونقول: لا إله إلاَّ الله، ولكن ما هي لا إله إلاَّ الله؟ هل لا إله إلاَّ الله اللَّفظيَّة أو لا إله إلاَّ الله التَّشهدية، أو لا إله إلاَّ الله الإشهادية؟ لأنَّ في داخل لا إله إلاَّ الله أمورًا عظيمة، ولكلٍّ كيفية في الشَّهادة، فمنَّا من يتشهَّد عندما يأتي إلىٰ النَّوم خوفًا من الموت، وقد ظلَّ طول نهاره يركض يمينا وشمالا في غفلة تامَّة عن ربِّه، ومنَّا من يتشهَّد عند ما يرىٰ ميِّتًا ويقول: الله أكبر، ولكن يا أخي الله أكبر منذ الأزل، وهل الله أكبر الآن فقط[1].

إنَّ كلمة الشَّهادة لا إله إلاَّ الله ترفع الإنسان من الكُفر إلىٰ الإيمان، وهذا كلام عظيم وكبير، وليس لفظًا فقط، بل هو حقيقة يعيشها المسلم، ونقل حقيقي لكلِّ ما في القلب نقلاً كاملاً من الكفر ودواعيه ووسائله وغاياته وكلّ ما يوصل إليه، فكلّ هذه الأمور تُرفع من القلب وتخرج منه، ويحلُّ في مكانها الإيمان، فهل تظنُّ أنَّ أمْرَ لا إله إلاَّ الله شيء بسيط؟ لا، بل الأمر عظيم وجليل، ولينظر أحدنا إلىٰ أثر لا إله إلاَّ الله في نفسه وليتساءل: هل نقلتْني لا إله إلاَّ الله عندما تلفَّظتُ بها وقلتها ممَّا أنا فيه، أم بقي حالي علىٰ ما كنتُ عليه؟ فأين التَّعطيل، هل في لا إله إلاَّ الله أم فيك أنت؟ طبعًا التّعطيل منك أنت، لأنَّك لم تقل لا إله إلاَّ الله كما يجب أنْ تقولها، ولم تتفاعل معها لتتفاعل معك.

إذن لو قلتَ لا إله إلاَّ الله كما كان الصَّحابة الكِرام يقولونها لأثَّرتْ فيك كما أثَّرت فيهم، وانظر مثلاً إلىٰ حال أبي ذرّ الغفاريِّ رضي الله عنه فبمجرَّد أخذه للشَّهادة من النَّبيِّ ﷺ خرج إلىٰ قريش وأعلن أمامهم شهادته وإسلامه، وكان رابع المسلمين أو خامسهم، فقامتْ إليه قريش وضربوه وهو يستعذب الضَّرب والآلام، ويتلذَّذ بلا إله إلاَّ الله، وكاد القوم يقتلونه لولا أنَّ العبَّاس رضي الله عنه عمّ النَّبيِّ ﷺ أنقذه من بين أيديهم، وقال لقريش: «ألم تعلموا أنَّ غِفار قبيلة أبي ذرٍّ من قطَّاع الطَّريق، وقوافلكم التِّجارية تمرُّ عليهم، فإذا أصبتم أبا ذرٍّ بأذىٰ، فلن تسمح غِفار لقوافلكم

(1) وهنا يبتسم الشَّيخ الفاضل علي تابعي. (جامع الكتاب ومدونه).

بالمرور عليهم وسيقطعون السَّبيل عليها، وحينئذ رفعت قريش يدها عن أبي ذرٍّ الذي كان يقول للعبَّاس: يا عبَّاس والله إنِّي لا أشعر بما تفعله قريش معي.

وهذا يعني أنَّه غاب عن بدنه تمامًا، ولم يصبح يعيش بهذا البدن، فماذا نُسمِّي شهادته هذه؟ وأيُّ شهادة هي؟ وحين قال سيِّدنا العبَّاس للنَّبيِّ ﷺ: إنِّي لأخشىٰ علىٰ أبي ذرٍّ من إذاية قريش وهو يُعلِن إسلامه جهرًا في ناديهم، استدعاه رسول الله ﷺ وأمره بالرَّحيل من مكَّة والعودة إلىٰ قبيلته ليدعوها إلىٰ الإسلام، فلبَّىٰ النِّداء ورحل إلىٰ قومه ليدعوهم إلىٰ الإسلام. ولقد كان أبو ذرٍّ رضي الله عنه سببًا في دخول قبيلتي غِفار وأسلم إلىٰ الإسلام بنسائهم ورجالهم، حيث لم يطل الزَّمان حتَّىٰ جاء بهم إلىٰ المدينة المنوَّرة علىٰ الخيول والجِمال، فظنَّ الصَّحابة في المدينة عندما رأوا غبار القادمين أنَّ جيشًا يريد أن يغزو المدينة، ولكن تبيَّن لهم بعد ذلك أنَّ أبا ذر جاء بقبيلتي غِفار وأسلم إلىٰ النَّبيِّ ﷺ للدُّخول في الإسلام، فانظر ماذا فعلتْ لا إله إلاَّ الله في أبي ذرٍّ (رضي الله عنه وأرضاه).

ولكن ما ذا فعلتْ لا إله إلاَّ الله فينا نحن؟ وكأنَّنا أموات، ولم تُحيِّ قلوبنا لمراقبة الله جلَّ جلاله، فما معنىٰ هذا؟ وقد كان أبو ذرٍّ قبل هذا كافرًا وقاطع طريق اجتمعتْ فيه كلُّ الشُّرور، حتَّىٰ أنَّه عندما قدِمَ علىٰ النَّبيِّ ﷺ تعجَّب من أمره، لأنَّه كان يعلم أنَّ قبيلة غِفار كانت تعيش في جاهلية وأغلب أهلها قُطَّاع طريق، وهذا كمثال سقناه عن تأثير الشَّهادة في المرء، فأين شهادتنا نحن من شهادة أبي ذرٍّ الغِفاري؟ وانظروا ماذا فعلت لا إله إلاَّ الله في أبي ذرٍّ؟ لقد حوَّلَتْهُ إلىٰ رجل آخر، أليس كذلك؟ بلىٰ، لقد رَحَّلَتْ منه تقاليده وتقاليد قبيلته وأهله من قلبه، وجَعَلَتْهُ مُسلِمًا داعيًا إلىٰ الإسلام بكلِّ ما لديه من قوَّة، ودعا قبيلتي «أسْلَم» و«غِفار» وأدخلهما الإسلام، وقد شهد له النَّبيُّ ﷺ بالصِّدق في الدَّعوة إلىٰ الله فقال: «ما أقلَّتِ الغبراءُ ولا أظلَّت الخضراءُ من رجُلٍ أصدقُ لهجةٍ من أبي ذرٍّ»[1].

(1) رواه ابن ماجه والتِّرمذي وأحمد وغيرهم.

وهكذا تفاعل سيِّدنا أبو ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه مع لا إله إلاَّ الله وتفاعلتْ معه، وقد قال النَّبيُّ ﷺ في حقِّ لا إله إلاَّ الله: «**لو أنَّ السَّماوات السَّبع وعامِرهنَّ غيري، والأراضين السَّبع في كفَّة، ولا إله إلاَّ الله في كفَّة، مالت بهنَّ لا إله إلاَّ الله**»[1]. فكيف نتفاعل نحن مع لا إله إلاَّ الله؟ وكيف تتفاعل معنا؟ وهل التَّعطيل مصدره لا إله إلاَّ الله، أم التَّعطيل منَّا نحن؟

لا شكَّ أنَّنا مصدر هذا التَّعطيل، وكلُّنا نقول: لا إله إلاَّ الله مرَّات عديدة في اليوم، ولكنَّ القليل منَّا من تُؤثِّر فيه وينتفع بذِكْرِها، ولقد كان الصَّحابة الكِرام رضي الله عنهم يعيشون الإسلام في كلِّ نواحي حياتهم، ولا يرضون بغيره بديلا في كلِّ حين، فهذا الصَّحابي الجليل حنظله رضي الله عنه بمجرَّد أن يفارق مجلس النَّبيَّ ﷺ ويذهب إلىٰ أهله وماله وضَيْعَتِهِ تتسرَّب غفلة خفيفة إلىٰ قلبه، فيشعر بهذا التَّغيِّير ويحكم علىٰ نفسه بأنَّه منافق، والكثير منَّا يخالط البساتين والأموال والأملاك، ولا يُفكِّر أحد منَّا ولا يتساءل عن مقامه في الإسلام، بل لا يُفكِّر إلاَّ في العمل من أجل أولاده وأهله.

وليس معنىٰ هذا أنَّ علىٰ المرء أن يترك العمل وقد أمرنا الله ﷻ بالعمل، ولكن هل نحن نعمل امتثالا لأمر الله ووقوفًا عند حدوده وطلبًا لمرضاته؟ إنَّ هذه البضاعة مفقودة وغير رائجة عند الكثير منَّا، بل الكثير منَّا يعمل وفق هواه وشهوات نفسِه، وتروج في أوساطنا هذه السِّلعة والبضاعة الفاسدة البائرة، وهل تستوي هاتان البضاعتان؟ لا، لا تستوي هذه وتلك.

لو سألنا أنفسنا لماذا لم نتأثَّر بلا إله إلاَّ الله ولم نتفاعل معها؟ إنَّ السَّبب في ذلك هو أنَّ الكثير منَّا قد عزل حركة حياته عن الإسلام، وكأنَّ الإسلام لا تَدَخُّلَ له في تلك الحركة، ويظنُّ أنَّ الإسلام إنَّما يتدخَّل في الصَّلاة والزَّكاة والصِّيام والحجِّ فقط، مع أنَّنا حوَّلنا هذه العبادات إلىٰ عادات وطقوس، وقد حوَّل الكثير منَّا شهر رمضان من شهر العبادات إلىٰ شهر الأكلات وأصبح همُّه تحضير وتخزين ما

(1) رواه النَّسائي في السُّنن الكبرىٰ.

يستطيع من مؤونة لهذا الشَّهر، وما أكثر ما يقع الإسراف في هذا الشَّهر الفاضل، وقد قال الله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]، وللأسف الشَّديد فقد أصبح الكثير منَّا من المُسرِفين، وكيف ينبغي أن يكون هكذا حالنا، وهل خُلِقنا للعبادة والطَّاعة أم للعادة والمعصية؟

وما دام هذا الإسراف ينزع من قلوبنا محبَّة الله، فهذه مصيبة وكارثة وقع فيها الكثير منَّا، وهكذا حالنا في كلِّ الميادين، لأنَّنا حصرنا الدِّينَ كلَّه في الصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجِّ، وهذه أركان الدِّين وليست الدِّين كلُّه، فإذا أقمنا الأركان فأين البِناية الكاملة؟ وأنت إذا أقمت قواعد وأسس بيت، فهل تمَّ بناء هذا البيت؟ وأين الجدران والسَّقف وغير ذلك؟ وكثيرا ما تجد البعض منَّا مكتفيًّا وقانعًا قناعة كاملة في دينه، ويقول أحدهم: أنا أصلِّي وأصوم، وقد أدَّيْتُ فريضة الحجِّ واعتمرتُ الكثير من المرَّات، فماذا تريدون منِّي أن أفعل أكثر من هذا؟

وهكذا تجد الكثير منَّا قانعًا في الجانب الدِّيني، مع أنَّ القناعة في الجانب الدِّيني حِرمان لا تليق، وعلىٰ المؤمن أن يسعىٰ لترقية الإيمان في قلبه وزيادته، وقد تُصبح الطَّريقة نفسها عند بعض الأتباع عائقًا بسبب عدم فهمه لمبادئ الطَّريقة وأهدافها، وقد تجد من ينتسب إلىٰ طريقة ما، ويكذِب علىٰ أهلها وعلىٰ النَّاس، ويدَّعي دعاوي باطلة، وهذه أمور لا تليق بأهل النِّسبة، فلماذا إذن الكذِب باسم الطَّريق؟ وهل يترقَّىٰ المريد بالكذب؟ وهل رأيتَ كذَّابًا يرتقي إلىٰ المراتب العالية؟ إنّ الكذَّاب منافق، لأنَّ الكذِب أبو الخبائث، وهل يسلك الطّريق من يتَّصِف بأخبث الصِّفات؟!

وبعض الأتباع ينتسبُ إلىٰ طريقة ما، ويتَّخذ الكذب علىٰ الطَّريق وعلىٰ أهلها حِرْفَةً له، يا أخي: ما الذي يدفعك إلىٰ الكذب، وقل الحقَّ ولو علىٰ نفسك، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ [الطلاق: 2]، وهناك من يتصدَّىٰ لتربية المُريدين رغم أنَّه لا تتوفَّر فيه شروط المُربِّي التي نصَّ عليها القوم في أقوالهم وفي

كتبهم، فيا أخي ما الذي يحملك علىٰ الكذب وادِّعاء ما ليس عندك؟ وهناك من يتصدَّر المجالس ويبايعه المُريدون، ويأخذ عنهم العهد وهو ليس أهلا لذلك، وكما قيل: «فَاقِدُ الشَّيء لا يُعْطِيهِ».

وقد كان سيِّدي «علي الخوَّاص» من مشايخ التَّربية لا يبايع أحدًا، ولكن يُربِّي المُريدين بالنَّظرة، وكان ﷺ يقول: «أنا آخذُ القلوب ولا آخذ الأيادي»، وهذا كلام معقول، وقد قلنا سابقًا: «ليسَ شيخُك مَن أخذْتَ عنه، وإنَّما شيخُك مَن فهِمْتَ منه»، ويقول بعض الأتباع: لقد أخذتُ العهد علىٰ فلان، وهل أنت تفي بعهدك؟ ولا بدَّ أن تتربَّىٰ علىٰ الوفاء بالعهد مع الشَّيخ ومع غيره من العباد، ومسؤولية الوفاء بالعهد ليست مع الشَّيخ فقط، بل يجب أن تكون مع كلِّ مخلوق علىٰ وجه البسيطة، والحقُّ ﷻ يقول: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ **[الإسراء: 34]**.

ولهذا أنت مسؤول عن عهدك مع كل البشر، ولا بدَّ عليك من الوفاء بالعهد مع الآخرين، فإذا كنتَ تفي بعهدك مع الشَّيخ ولا تفي بعهدك مع الآخرين، فأنت كذَّاب ومنافق، ولا تنتفع بالطَّريق ولا بأهلها، ولن يربِّيك الشَّيخ ولو لبثتَ معه الدَّهر كلَّه، لأنَّك متَّصِفٌ بأرذل الخبائث وهي رذيلة الكذِب، هذا إذا كنتَ قد أخذتَ طريق التَّربية والسُّلوك علىٰ يد مُرَبٍّ عارف بالله، وأمَّا إذا كنتَ ممَّن قد أخذ علىٰ شيخ التَّبرُّك، فعليك أن تبحث عن شيخ مُرَبٍّ عارف بالله يأخذ بيدك ويقيك مهالك الطَّريق ومخاطرها.

إنَّ المشكل القائم الآن يكمنُ في سوء فهم بعض أتباع أهل الطَّريق لمبادئها وأصولها وتعاليمها، فعلىٰ سبيل المثال قد تجد أحدًا ينتسب إلىٰ الطَّريقة الرَّحمانيَّة، ولو سألتَه ماذا تعرف عن «الرَّحمانيَّة»؟ يقول لك: لقد قال لي المقدَّم الفلاني: خُذ الطَّريقة الرَّحمانية فأخذتُها وأنا أذكر أورادها، وقد يكون ممَّن لا يذكرون الله إلاَّ قليلًا، ثُمَّ تجده يقترف الآثام ويكذِب ويقول: الحمد لله أنا «رحمانيٌّ»، وهل هذا

«رحمانيٌّ»؟ لا، ليس «رحمانيًّا»، ولكنَّه يُزوِّر علىٰ الطَّريقة الرَّحمانيَّة ويكذِب علىٰ أهلها، ويجعل الرَّحمانيَّة غطاء حتَّىٰ يواصلَ ضلاله ويستمرَّ عليه.

إذن يجب علينا الرُّجوع إلىٰ الحقِّ، وينبغي علينا أنْ نفهم الأمور من أصولها في الفقهيات وفي الرُّوحيات، والتَّصوُّف هو روح الدِّين، وكلُّ أمر خرج عن الدِّين ليس تصوُّفًا، لأنَّ التَّصوُّف بدأ منذ نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: 28].

إنَّ الحقائق التي ذكرناها سابقًا فيما يخصُّ بعض أتباع الطُّرق حقائق مُرَّة، ولا يطيقها العقل البسيط، وهي أمور واقعيَّة خطيرة، ومن ذلك مَن يدَّعي المشيخة ويقول للنَّاس: أنا أربِّي المُريدين وهو لا تتحقَّق فيه شروط المُربِّي، وهو مسؤول أمام الله علىٰ هذه الدَّعوىٰ، وكذلك كلُّ مَن يدعون له ويعينوه في دعواه هذه، لأنَّ مقام التَّربيَّة مقام عظيم وجليل، وليس كلُّ عارف مُرَبٍّ هذا إذا وصل أحد إلىٰ مرتبة العارفين، ومن يعرف العارف ويُميِّزه عن غيره؟ وهنا تكمن العِلَّة، وهل أنت تعرف العارف؟ لا، فالعارف لا يعرفه إلاَّ عارف مثله.

السُّؤال الثّالث: سيِّدي الشَّيخ المحترم، يحاول المرء جاهدًا عند ذكر الله ﷻ أو أثناء قراءة القرآن الكريم أن يكون حاضر القلب مع الله عزَّ وجلّ وفي معيَّته، ولكن للأسف الشَّديد لا يصل إلىٰ مبتغاه، ولا يستطيع أن يبقىٰ في حضور مع الله وفي الإيمان الذَّوقي، ويمكن أن لا يصل إلىٰ ذلك الذَّوق أصلاً، فما السِّرُّ في هذا، وكيف المخرج من هذا الأمر؟[1]

الإجابة: لا يستطيع أحد الوصول إلىٰ الإيمان الذَّوقي الشّعوري إلاَّ عن طريق الشَّيخ المُربِّي مبدئيًّا، إلاَّ إذا حصل للمؤمن اجتباء إلهي لقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]، فطريق الإنابة هي طريق التَّربيَّة والسُّلوك عن طريق الشَّيخ المربِّي، فإذا كانت الطَّريقة اجتباء، فهذا المُجْتَبىٰ

(1) سؤال طرحه علىٰ فضلية الشيخ عليّ تابعي، أحد مقاديم الطريقة التّابعيّة بولاية ورقلة، السيد محمد بن فردية. (جامع الكتاب).

يكون خاصًّا بنَفْسه ولا يُفيد غيره، ويمكن أنْ يُؤخَذ عن نفْسِه تمامًا، ويغيبُ عن الكون وما فيه، وقد يصبح بلا عقل مجذوبًا وغائبًا عن حسِّه بالكلِّية، ونحن نقول: إنَّه مجنون، ولكنَّه مُجْتَبىٰ، وليس له شعور بهذا العالَم كلِّه.

السُّؤال الرابع: سيِّدي الشَّيخ الكريم، إذن لا يستطيع أحد تذوق قراءة القرآن كما أنزِل علىٰ النَّبيِّ ﷺ والخشوع في الصَّلاة ومعايشة أمور الدِّين إلاَّ عن طريق التَّربية والسُّلوك والأخذ علىٰ شيخ مربٍّ عارف بالله وصحبته؟[1]

الإجابة: كلُّ الحياة وكلُّ الأمور الدُّنيويَّة ربطها الحقُّ ﷻ بالشَّيخ المربِّي، فالشَّيخ الأوَّل هو الأب، فمَن هو أبو الجميع؟ إنَّه آدم عليه السلام، وقد كان طبيبًا روحيًّا ومعلِّمًا شرعيًّا وأبا بدنيًّا، والمفروض أن تكون هذه القضيَّة وراثيَّة إلىٰ يوم القيامة، فمن الذي أخرج النَّاس عن هذا المسار؟ ألم يكن سيِّدنا آدم عليه السلام أبا بدنيًّا وأبا روحيًّا وأبا شرعيًّا؟ بلىٰ، فقد كان كذلك، أي كان أبا بدنيًّا لأولاده، وكان نبيًّا ورسولاً مبلِّغًا عن الله شرعه، وهذا هو الأصل في الأبوَّة، ولكن متىٰ انحرفت هذه الأمور؟ لقد وقع الانحراف عن هذا المنهج وعن هذا المسار عندما خرج النَّاس علىٰ الشَّريعة في الفترات التي لم يبعث الله تعالىٰ فيها الأنبياء والرُّسُل، وهكذا رجع النَّاس إلىٰ العادات والتَّقاليد والقبليَّة.

إنَّ المفروض علينا نحن كآباء بدنيِّين وروحيِّين أنْ نوجِّه أولادنا ومن هم تحت رعايتنا توجيها دينيًّا، ولماذا طلبتْ منا الشَّريعة أنْ نؤذِّن للمولود الجديد في أذنه اليمنىٰ، ونقيم له الصَّلاة في الأذن اليُسرىٰ؟ ولماذا أُمِرنا شرعًا بالعقيقة علىٰ هذا المولود؟ فهل تظنُّ أنَّ كلَّ ذلك نوع من العبث؟ لا، فهذا الأمر ليس عبثًا، بل له هدف جليل وعظيم وله حِكمة بالغة، فأنت عندما تؤذِّن في الأذن اليمنىٰ للمولود وتقيم له الصَّلاة في يُسراه فإنّك تضع في أرضية الطِّفل الطيِّبة الطَّاهرة النّظيفة أمَّ القواعد وأصلا من أصول العقائد، ولذا قال العالم الفاضل ابن عاشر رحمه الله:

(1) سؤال طرحه علىٰ فضلية الشيخ عليّ تابعي، أحد مقاديم الطريقة التّابعيّة بولاية ورقلة، السيد محمد بن فردية. (جامع الكتاب).

وقَـــوْلُ لا إلـــه إلَّا الـــلَّـــه مـــحـــمَّـــدٌ أرســـلـــه الإلـــه
يـجـمـعُ كـلَّ هـذه الـمـعـانـي كـانـتْ لـذا عـلامـةَ الإيـمـانِ

وهل للأب شعور بالحكمة من العقيقة؟ لا، بل الغالبُ علىٰ الآباء استعمال ذلك من باب العُرف والعادة، أو أنَّه قد سمع أنَّ ذلك الفعل سُنَّة، وهو لا يعرف معنىٰ السُّنَّة، ولا يُدْرِكُ حِكمتها، هذا إذا عمِل بالأمور السَّابقة ولم يُهملها، وللأسف الشَّديد فقد طغت العادات والتَّقاليد عنَّا في حياتنا، فنحن عندما نقيم عرسًا للزَّواج فأكثرنا لا يفعل ذلك طلبًا للعفَّة، أي ليعفَّ ابنه أو ابنته، لأنَّ أقدس ما في الزَّواج العفَّة للطرفين الزَّوج والزَّوجة، ولكن الغالبية منَّا لا يفكِّرون في العِفَّة، بل يفكِّرون في المال وما يدفعه الزَّوج من ذلك، ويفكِّرون في الأثاث وما يجلبه العريس معه لعروسه من ذهب وزينة، وهذا كلام فارغ، يا أخي فأنت تريد أن تُعِفَّ ابنتك مثلاً أم تريد أمرًا آخر؟

والمفروض عليك أن تحاول أن تجد رجلا صالحًا يعُفُّ ابنتك عمَّا حرَّمه الله عليها، ويقيها شرَّ نفسها وشرَّ الشَّيطان، وهذا هو هدف الإسلام الأسمىٰ من الزَّواج، وهذا أقدس ما في الزَّواج وهو العِفَّة، ولكن القليل منَّا من يتزوج قصد العفَّة، بل بمجرَّد أن ينتهي الإمام من عقد الزَّواج ويقول: زوَّجنا فلانة بنت فلان لفلان بن فلان علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بمجرَّد الانتهاء من ذلك يبدأ الجميع في ارتكاب المحرَّمات، فهذا خاتم نفيس صُنِع علىٰ أساس عقيدة نصرانية، ونُرْكِبُ العروس سيَّارة وهي مكشوفة، ونطوف بها البلاد في موكب كبير من السيَّارات التي تطلِق الأصوات، ولا نرضىٰ إلاَّ أن تدخل هذه العروس إلىٰ بيت زوجها وهي فاسقة زانية بالنَّظر وعاصية.

وهل الأمور المشار إليها، التي نتعاطاها في الزَّواج، من عاداتنا وتقاليدنا التي أمرنا بها الإسلام وجاءنا بها الرَّسول ﷺ؟ لا، والكثير منَّا يعدُّ هذه الأمور عادية وليس فيها عيب، وهذا خطأ، وقد وصل بنا الأمر إلىٰ أخطر من ذلك، فعندما يُقيم البعض عرسًا يأتي بآلة التَّصوير(الكاميرا) ويُصوِّر النِّساء ويتفرَّج عنهن في

البيوت، وكلُّ هذه معاص، وهذا الأمر الخطير ناتج عن الإمَّعة، فالكثير منَّا يقول: كلُّ النَّاس يفعلون هذا وهم راضون به. وقد حذَّرنا الرَّسُولُ ﷺ عن الإمَّعة فقال: «**لا تكُونوا إمَّعةً تقولون: إنْ أحسنَ النّاسُ أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمْنا، ولكن وَطِّنُوا أنفسكم إنْ أحسنَ النّاس أن تُحْسِنوا، وإن أساءوا فلا تظلِمُوا**»[1]، وقد يقول أحدهم: هذه عادات وتقاليد، ولكن هذه تقاليد مَن؟ إنَّها تقاليد الغرب، وهل المُسلِم كالقرد يُقَلِّد أهل الغرب ويأخذ منهم مفاسدهم؟.

إذن نحن زوَّجنا هذه المرأة لهذا الرَّجل بكلمة الله لنعفَّهما ونصونهما عن الحرام ابتداء من لحظة عقد الزَّواج، ولكن هذا الأمر القليل منَّا من يفكِّر فيه، وهذا حال من يقولون: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [**الزخرف: 22**]، وهذه مصيبة، وهذا واقع موجود ومستفحل في المجتمع بصورة خارقة للعادة، فإلىٰ أين ترتقي أنت إذا كنت تتعاطىٰ هذه الأمور، أو ترضىٰ بها؟ والدَّيوث لا يدخل الجنَّة أصلاً، وقد ورد في حديث عن رسول الله ﷺ: «**لا يدْخُل الجنَّةَ دَيُوث**[2]».

إنَّ الكثير منَّا يُعايشُ قشور الإسلام في الحقيقة ولا يعاشِرُ لُبَّ الإسلام، لأنَّ للإسلام صفائية كصفائية أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه، وقد رأينا ما فعلتْ فيه الشَّهادة، لقد حوَّلَتْهُ رأسًا، من قاطع طريق إلىٰ سالك طريق في لحظة واحدة، وفي أقلِّ من طرفة عين، إذ بمجرَّد أنْ أخذ الشَّهادتين من رسول الله ﷺ خرج من العالَم كاملاً وتعلَّق بربِّه، ولو تتبَّعنا حياة الصَّحابة رضي الله عنهم لرأينا العجائب والغرائب، فأين نحن من الإسلام، وما مقامنا فيه؟ وإذا نظرنا إلىٰ حال الكثير من بناتنا نجدهنَّ عاريات حاصرات متبرِّجات بدعوىٰ الحضارة، وأيُّ حضارة هذه؟

إنَّ الحضارة تعني الأخلاق والسُّلوك والآداب والنِّظام والالتزام والصِّدق والوفاء بالعهود، وليست الحضارة زورًا وبهتانا وكذبًا، والحضارة عِلْمٌ وإتقان عمل

(1) رواه التِّرمذي بهذا اللَّفظ.

(2) رواه أبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصَّحابة، وعبد الرزَّاق في مصنَّفه والطَّيالسي في مصنَّفه.

وإخلاص فيه، وهذه هي القضايا والأمور التي تقدَّم بها الغرب ونجح، ونحن لا نقتدي بهم إلاَّ في الرَّذائل، وهذا ناتج عن التَّقليد الأعمىٰ، وقد تأتي زوجة من بيت أبيها متحجِّبة فلا يقبل زوجها هذه الوضعيَّة، ويأمرها أنْ تلبس لباسًا عصريًّا، وتترك حسب ظنِّه لباس التَّأخُّر، وقد تفهم تلك الزَّوجة أنَّ هذا الأمر داخل في طاعة الزَّوج، والأمر ليس كذلك، فمن حقِّ هذه الزَّوجة أنْ تعصي زوجها في هذا الأمر وترفضه تمامًا.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الكثير منَّا لا يتفاعل حقيقة مع الإسلام ومبادئه، وهكذا شأننا في كلِّ الحياة، فكيف تريد أنْ تكون صلاتنا صلاة نرتقي بها ونعلو بها عن أنفسنا وندخل بها ميدان تزكية النُّفوس، والأصل في الصَّلاة أنَّها جاءت لتزكية النُّفوس، وكلُّ التَّكاليف الشَّرعية إنَّما جاءت لتقوِّي فينا أقدس الأمور وأنبلها ألا وهي طهارة النُّفوس وتزكيتها، ولكن مع الأسف الشَّديد فإنَّ هذه التَّكاليف الشَّرعيَّة لا تعطينا هذه المعطيات، ولا نجني منها هذه الثِّمار، والتَّعطيل إنَّما جاء منَّا وليس من تلك التَّكاليف، والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، أي معناه إذا صُمتم صياما شرعيًّا حقيقيًّا ستصيرون بلا شكٍّ من المُتَّقين، والكثير منَّا صام سنوات عديدة، ولكنَّنا لسنا بأتقياء، فأين تكمن العِلَّة؟ وهل العِلَّة في الصِّيام أم فينا نحن؟

إنَّ العِلَّة فينا نحن، لأنَّنا أفسدنا حقيقة الصِّيام والقيام وكلّ التَّكاليف الشَّرعيَّة، ونحن نتصرَّف خطأ، ومن أمثلة التَّصرُّفات الخاطئة أنَّ البعض ممَّن ينتسبُ إلىٰ زاوية ما ويدَّعي أنَّه تلميذ فيها يقول: إنَّ شيخي قطب وغوث، فإذا سألته: هل تعرف معنىٰ القطب والغوث؟ يقول: لا، فيا أخي لماذا تكذب؟ أليس قولك هذا كذبًا؟ لقد جعلت بتصرُّفاتك هذه حاجزًا بينك وبين الحقيقة التي لن تصل إليها أبدا ما دمت باقيًا علىٰ هذه الحالة، وكما أنَّ هناك البعض من يأتي إلىٰ الشَّيخ لينال منه البركة فقط، ويا أخي إنَّ البركة عندك أنت، فطهِّر يدك من المعاصي تكن في يدك البركة، ويكون فيها اليُمْنُ، وهذا مؤكَّد ولا شكَّ فيه ولا ريب.

والبعض تكون يده ملوَّثة بالخبائث ولكنَّه يريد أن يأخذ البركة من الشَّيخ، وهذا أمر مستحيل، وهذا كلام لا معنىٰ له، ويا أخي لقد أعطتك الشَّريعة الإسلاميَّة مقوِّمات هائلة وعظيمة لو تكلَّمنا عليها لرأينا العجب العجاب، ولكن سوء فهم الكثير منَّا هو الذي أوصلنا إلىٰ هذا الأمر، وعلىٰ سبيل المثال لقد أمرتنا الشَّريعة بأن نقول عند بداية الأكل بسم الله، والكثير منَّا يقول بسم الله للبركة، فإذا أردنا أن نزيد البركة نقول: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم لتقوىٰ تلك البركة وتزيد، ولكن هل نحن نعايش الرَّحمن الرَّحيم أم نعايش الأكل؟ هذا هو السُّؤال المُهِمُّ، ولماذا جاءت البسملة هنا؟ وهل هي مجرَّد ألفاظ يقولها اللِّسان ويخلو الجَنان من تعظيم ذي الجلال والإكرام؟

وكان من المفروض عندما تقول بسم الله الرَّحمن الرَّحيم أن تعايش ربَّك وتشاهد أنَّه هو الذي يُطعِمك ويسقيك، بدليل أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّمنا أن نقول بعد الأكل: «**الحمدُ لله الذي أطْعَمنا وسَقَانَا وجعَلَنا مُسْلِمين**»[1]، ولا ينبغي لك أن تقول: أنا أطعمتُ نفْسي وسقيتُها، ولماذا جاءتك الشَّريعة بهذه المقوِّمات؟ إنَّها تريد منك أن تعيش في التَّوحيد ولا تعيش غافلا حتَّىٰ في طعامك، ولكن أين نحن مِن هذا؟ وكأنَّ هذا عالم الملائكة والكثير منَّا يعيش في عالم آخر، ولكن هذه الأمور لا بدَّ لك فيها من شيخ دليل يُوصِلك إلىٰ حقيقتها، وكما قيل:

لا بدَّ لك مِن شَيْخٍ يُرِيكَ شُخُوصها وإلَّا فنِصفُ العِلْمِ عندك ضَائِع

ولابدَّ من دخول الأمر من بابه، وبدون ذلك لا يمكن أبدًا، وقد وهبنا الله ﷻ العقل لنعرف به البدائل، وسنُسأل عن هذا العقل يوم القيامة، لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]، والفؤاد هنا بمعنىٰ العقل، وأنت لماذا لا تستعمل عقلك، ولماذا لا تسأل نفسك وتقول لها: إلىٰ أين تتَّجهين؟ وما هي الطَّريقة التي تسلكين؟ وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: أنْ يكونَ اللهُ ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن**

(1) رواه التِّرمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم.

يُحِبَّ المرء لا يُحِبُّه إلاَّ لله، وأنْ يكرَهَ أن يعودَ في الكُفْرِ كما يكرهُ أنْ يُقذَفَ في النَّار»[1].

ولو سألنا كلاًّ من الحاضرين: هل أنت ذقتَ حلاوة الإيمان؟ قد يقول: لا، وإذا قال: نعم، نقول له: أعطنا الدَّليل علىٰ أنَّك قد ذقتَ هذا الإيمان، فقضيَّة الذَّوق ليستْ غريبةً في الإسلام، وهي لفظة إسلاميَّة مؤصَّلة، لأنَّه قد يقول أحدنا: ما بالنا بالذَّوق، ونحن نتمسَّك بالشَّريعة، فنقول له: هذا لفظ قد ورد علىٰ لسان النَّبيِّ ﷺ، فلماذا تُنكره؟ وهل تذوقتَ القرآن؟ وإذا كانت الإجابة بالنَّفي، فهلاَّ سألتَ نفسك عن سبب ذلك؟ وما هو الأمر الذي يُعيقك عن تحقيق ذلك؟ والكثير منَّا لا يُورِد مثل هذه الأسئلة علىٰ نفْسِه، وما سواهما في الحديث حتَّىٰ نفسك، فيجبُ أنْ تغيبَ عنها، ليكون اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليك منها، ومن كلِّ ما في الأكوان.

إنَّ مقتضىٰ الإيمان ومقتضىٰ التَّكاليف الشَّرعيَّة يوجب علىٰ المؤمن أن يكون مُوَحِّدًا لله ﷻ، وهذا مطلبٌ رسميٌّ وواجبٌ عينيٌّ، وليس علىٰ جهة الاستحباب أو النَّدب، وإنَّما المطلوب من المرء أن يستدرج في المراحل شيئًا فشيئًا، حتَّىٰ يصِل إلىٰ هذه القوَّة الإيمانيَّة، ولكنَّك مكتفيًا من الدِّين بقشوره وظواهره، والإيمان بضع وسبعون شُعبة، أو بضع وستُّون شعبة، فكم من شُعبة من هذه الشُّعب الإيمانيَّة حقَّقتَها في نفسك؟ ألم تسأل نفسك هذا السُّؤال؟

إنَّ مثل هذا السُّؤال غير وارد عند الكثير منَّا، وأنت مكتفٍ بأنَّك تصلِّي وتصوم، وإذا خفتَ الموتَ تسعىٰ لأداء فريضة الحجِّ، وهل شُعب الإيمان فروع، أم أصول تدخل في أعماق الإيمان؟ إنَّ شُعَبَ الإيمان تدخل في عمق الإيمان، وتطهِّر النّفوس وتزكِّيها، وقد قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ **[الجمعة: 2].**

وفي هذا القدْر كفاية، وإلىٰ لقاء آخر إنْ شاء الله.

---

(1) رواه البخاري ومسلم والنَّسائي وغيرهم.

الحِوار الخامس

حول منهج التَّـربية والسُّلوك

في مدينة بسكرة[1] كان هذا اللِّقاء الكريم بين شيخنا الجليل عليّ تابعي رضي الله عنه والوفد المُرافق له وبين أتباعه من أهل المدينة والمُحبِّين والضيُّوف، وبعد تلاوة مباركة عطرة لأحد المُقْرئين للآيات الكريمة التَّاليَّة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ **[النساء: 69].**

قال العارف بالله الشَّيخ عليّ تابعيّ (قدَّس الله سرَّه) ما يلي:

❁ ❁ ❁

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ**:

أيُّها السَّادة الحاضرون نستفتح لقاءنا هذا معكم بفتح باب الأسئلة والاستفسارات عمَّا يدور حول موضوع التَّربية الرُّوحيَّة والسُّلوك، وتزكية النُّفوس ومقام الإحسان، فمن له منكم إشكال أو سؤال فليتفضل بطرحه.

السُّؤال الأوّل: سماحة الشَّيخ، يُنكِر المُنتقِدون علىٰ أهل الطَّريق اهتمامهم بالأذكار واشتغالهم بها اشتغالا يراه هؤلاء المُنكِرون مُبالغًا فيه، ويرون كذلك أنَّ ملازمة الأوراد الذي اعتاده أهل الطَّريق لم يُؤْثَرْ علىٰ النَّبيِّ ﷺ، فأفيدونا سيِّدي الشَّيخ الكريم في هذا الموضوع بما فتح الله عليكم ليكون ذلك لشبابنا زادًا يردُّون به علىٰ من يُنكِر عليهم حُبَّهم للذِكْر وشغفهم به وملازمتهم للأوراد والأذكار؟[2]

---

(1) جرىٰ هذا الحوار بتاريخ 30 ماية 2002م، بمدينة بسكرة في ضيافة سيِّدي الحاج أحمد بو لطيف وهو من أتباع الطّريقة التّابعيّة وأحد أعيان مدينة بسكرة.

(2) سؤال طرحه أحد مقاديم الطّريقة التّابعيّة بولاية بسكرة، السيد محمد خزّاني. (جامع الكتاب).

الإجابة: إنَّ الذي ينتقد الذَّاكرين بسبب اهتمامهم بالأذكار يردُّ آيات أساسية في القرآن الكريم تحثُّ على الذِّكْرِ، وقد قال الله ﷻ مخاطبًا كلَّ المؤمنين دون تخصيص وبدون استثناء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [**الأحزاب: 41-43**]، فكلُّ من انتسبَ إلى الإيمان يجب عليه أنْ يذكرَ الله ﷻ ذِكْرًا كثيرًا، ومن آداب السُّنَّة أن يكون المؤمن مقتديًّا بالنَّبيِّ ﷺ الذي كان في كلِّ أحواله ذاكرًا لربِّه، فقد قالت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان النَّبيُّ ﷺ يذْكُرُ اللهَ على كلِّ أحيانه»[1].

والمُتمسِّكُ بآثار النَّبيِّ ﷺ والمُقتدي به ينبغي أنْ يذكر الله ﷻ ذِكْرًا كثيرًا حسب جهده، وهؤلاء الذين ينتقدون أهل الله الذَّاكرين يُقلِّدون غيرهم في هذه الأقوال، ويأخذونها من أيِّ وِعاء كان، دون أن يبحثوا في الأمور ويستوعِبوها ويُجالِسوا أهلها ويروا ما لديهم، وليس معنى هذا أنَّ كلَّ الطُّرقيِّين يجتنبون الضَّلالات ويبتعدون عنها، وهكذا كلُّ طوائِف الأمَّة فيهم الغثُّ والسَّمين، ولا يُمكِن القول أنَّ الفساد غير موجود في كلِّ من ينتسِب إلى الطَّريق، فهناك حقيقة بعض الأمور غير اللاَّئقة عند بعض هؤلاء المُنْتَسِبين، وذلك بسبب تَصَدُّرِ مَنْ ليس هو أهل لهذه القضيَّة، أي قضيَّة السُّلوك والتَّربية الرُّوحيَّة، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**إذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظِر السَّاعة، قال: كيف إضاعتُها يا رسول الله؟ قال: إذا أُسْنِدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظِر السَّاعة**»[2]، ومعنى انتظِر السَّاعة أي انتظِرها في ذلك الأمر.

وفي الحقيقة أنَّ هناك انحرافات في البعض من كلِّ الطَّوائف وليس في أهل الطَّريق فقط، وقد نجد انحرافات حتَّى عند بعض الأئمَّة، ولكنَّهم لا يرونها، ويراها فيهم غيرُهم، وكلُّ ما سبق لا يدلُّ على إبطال لمبدأ الطَّريق، فالمبدأ سليم،

(1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(2) رواه البخاري.

وأمَّا كوْن أحد من الأتباع انحرف عن جادَّة المنهج فهو ليس حجَّة علىٰ الطَّريق وأهلها، فالمُسلِمون الآن حاد البعض منهم عن مبادئ الإسلام، وكاد بعضُهم أن يتنصَّر في مظهره، فهو يلبس لباسًا غربيًّا يُحدِّدُ العورة تحديدًا فاضحًا، وقد يكون ذلك اللِّباس شفَّافًا، وهذا تقليد أعمىٰ للنَّصارىٰ، وإذا كان هذا التَّقليد حبًّا فيهم فتلك مُصيبة، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَن أحبَّ قومًا حُشِر معهم**»[1].

وقد يقول قائل: إنَّكم غير مُتفتِّحين علىٰ التَّقدُّم والحضارة المعاصِرة، ولكن لو أخذنا شابًّا وسألناه ما هو هذا التَّقدُّم؟ فلا يُمكِن أن يُعطينا معنىٰ للتَّقدُّم، لأنَّه مقلِّدٌ لغيره، ويأخذ هذه الكلمة تقليدًا وليس فهمًا وعقيدة، والمفروض علىٰ المُسلِم أن يَعُودَ في كلِّ أموره إلىٰ العقيدة الصَّحيحة والفهم السَّليم لِما يفعله، ولا ينبغي له أن يُقْدِمَ علىٰ أمر وهو له جاهل، بل لا بدَّ أن يعرِف منافِعَه ومضارَّه، ولا يجدر بالمؤمن أن يلبس كما يلبس الآخرون بدعوىٰ التَّقدُّم، وهل معنىٰ التَّقدُّم أن تُقَلِّد يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مجوسيًّا في اللِّباس أو في غيره؟! ونحن قد جاهدنا وكافحنا مدَّة سبع سنين، عشنا خِلالها في همٍّ كبير وغمٍّ شديد حتَّىٰ نصرنا الله ﷻ، وخَرَجَ العدُوُّ من بلادنا، ولكنَّ البعض منَّا رجع إليهم تقليدًا وحُبًّا، وهذا تناقض كبير، والمفروض أنَّ لنا كرامتنا وشخصيتنا ولِباسنا الخاصَّ بنا.

إذن من حقِّنا أن ننفتِحَ علىٰ ما عند غيرِنا من الأمم من المنافع، ولكن لا ينبغي علينا التَّفَتُّحُ علىٰ ما عندهم من المضارِّ الحِسِّيَّة والمعنويَّة، ومن المضارِّ الثَّقافيَّة والاجتماعيَّة. والتَّقليد الأعمىٰ إنَّما ينتج من عدم استعمال العقل، وقد وهبنا الله ﷻ العقل لنعرِف به البدائل ونختار ما يُفيدنا ونبتعد عن كلِّ ما يضُرُّنا، ولنُميِّز بين الحقِّ والباطلِ في كلِّ ميدان من ميادين الحياة، لأنَّ حياة المؤمن لله، ويجب أن تكون هذه الحياة موافقة للإسلام قولاً وعملاً وسلوكًا ومعاملة، وينبغي علىٰ المؤمن أن يعمل كلَّ ذلك امتثالا لأمر الله ﷻ وطاعة له، وطلبًا لمرضاته وقياما بحقِّ العبودية له.

---

(1) رواه الحاكِم في المستدرك.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الإسلام منهج نجاة ووِقاية، ومنهج حياة وحِماية، وسبيل نهوض وترقيَّة، ولكن سوء فهمنا للإسلام هو سبب ما نحن فيه، لأنَّنا حصرنا الإسلام في أركانه الصَّلاة والزَّكاة والحجِّ والصِّيَام وكفىٰ، ولكنَّ الكثير منَّا لا يعرِف معاني هذه الأركان إلاَّ شكليًّا، وقد يحجُّ أحدنا ولكنَّه يعود إلىٰ ما كان عليه سابقًا، أو ينعزِل عن الخَلْقِ ولا يسعىٰ في عمل، وهذا سوء فهم لفريضة الحجِّ، لأنَّ الحجَّ مادَّة مطهِّرة تُزكِّي النّفوس، وتُطهِّر القلوب، وتُقوِّم الحركات، وكذلك تفعل الزَّكاة، وكلُّ قِيَّم الإسلام عمليات تطهير لداخل الإنسان وخارجه، ولم يفرض الحقُّ ﷻ الصَّلاة عبثًا، وليست الصَّلاة أمرًا شكليًّا، بل هي حركة تطهير تهدِف إلىٰ إصلاح البدن والرُّوح، وإلىٰ إصلاح القلب والوجدان، وللصَّلاة ثمار في حياة المؤمن وفي إقباله علىٰ الله ﷻ وامتِثال أوامره واجتناب نواهيه، ولذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]، أي أنَّ الصَّلاة تنهىٰ صاحبها عن كلِّ ما هو من الفحشاء من قول أو فعل، أومن سلوك ومعاملة، فالصَّلاة تُطهِّرك من كلِّ ذلك.

وقد تقول: إنِّي أصلِّي ولكنَّني لم أتطهَّر، فأقول لك: إنَّ صلاتك شكلية، ولو كانت تلك الصَّلاة صحيحة حقيقيَّة وسليمة العقيدة والمقصد، لطهَّرتك من دنَسِك وصِفاتك الرَّذيلة، وهذا واقع مُرٌّ يعيشه الكثير، حيث يُصَلُّون ويذكرون ويتلون القرآن، ولكن لا يشعرون بتغيُّر في أنفسهم، ولا يجدون فوائد من ذلك في حياتهم، وكأنَّ الصَّلاة لم تُصبح تُمِدُّ المؤمن بإمداداتها، وهذا غير صحيح، ولكنَّ التَّعطيلَ من المُصَلِّي وليس من الصَّلاة.

إذن كلُّ حركة من حركات الحياة يتحرَّكها الإنسان بتقدير من الله ﷻ، وكلُّ ما يقوم به هذا الإنسان هو من اقتدار الله له، وهذا الأمر يجب أن يُلفِتَ العبد إلىٰ ربِّه الذي يفعل به ذلك وهذا ليس معناه أنَّنا نتكلَّم علىٰ عقيدة الجبريَّة، والاختيارات نِعمة، والنِّعمة تستحِقُّ الشُّكر، وقد تقول أنَّ الإسلام أعطاني حريَّة الاختيار، وأمرني بالعمل في الدُّنيا، وهذا أمر صحيح، ولكن من الذي أعطاك حقَّ

الاختيار؟ وهنا بيت القصيد، لا بدَّ أن تفهم بأنَّ الله ﷻ هو الذي أعطاك هذا الاختيار، وعليك أن تسعىٰ لمرضاته باختياره الذي وهبه لك، ولا ينبغي لك أن تبتعد عنه وتنحرف وتقول: لقد أعطاني الله الحريَّة، فهذا أمر غير مقبول وجهل بالدِّين وعدم معرفة به، ولكي نعرِف ديننا يجب علينا أن نلتفَّ حول العلماء العاملين والمخلِصين، ونجالس الصَّالحين الأتقياء ونعاشرهم، ونستأنِس بهم ونألفهم، ونقتدي بهم ونسير بسيرتهم.

ولنعُد للحديث علىٰ المُنْكِرين علىٰ أهل الله الذَّاكرين، فمن النَّاس من تَصْدرُ منه أحكاما جُزافًا علىٰ طائفة من المؤمنين لم يعرفهم ولم يجالسهم، ولكنَّه يحكم عليهم بالضَّلال والابتداع، وهذا أمر باطل تترتَّب عليه عقوبة ربَّانيَّة وعقوبة قانونيَّة، والحكم علىٰ الشَّيء فرع عن تصوُّره والذي لا يعرف أمرًا ما من الأمور فبأيِّ وجه من الوجوه يجوز له الحُكْم عليه، ويُبيح لنفسه ذلك؟! وعلىٰ أيِّ أساس يحكم علىٰ غيره ممَّن لم يعرفهم ولم يجالسهم بالضَّلال والابتداع؟ وهذا أمر غير معقول، وهل يُعْقَلُ أن تحكُم علىٰ كلِّ من لا يُعجبك بما تهواه نفسك، لأنَّ أمره لا يتَّفق مع شهواتها؟ وهذا هو الجهل حقًّا، والجاهل عدوٌّ لما يجهله ولا يعرِفه.

إنَّ العلماء قسمان، علماء بالله وعلماء بأحكام الله، فإن أردتَ أن تعرِف الله فعليك بصحبة ومجالسة العلماء بالله، والأخذ عليهم ومتابعتهم، وإن أردتَ معرِفة أحكام الله فعليك بالعلماء العارفين بأحكام الله، والاسترشاد منهم والتَّفقه في دينك عنهم، وتطبيق ما يدلُّونك عليه من أحكام شرعيَّة، وكما يُقال: «كلُّ عِلْم يُسأل عنه أربابُه»، ونحن إذا أردنا أن نعرِفَ أمرًا في الطِّبِّ، فهل نسأل عن ذلك حدَّادًا؟! لا، بل يجِب علينا أن نسأل أهل الاختصاص، وهذه الاختصاصات اختصَّ الله ﷻ بها من شاء من عباده، ورتَّبها ترتيبًا مُحْكَمًا.

السُّؤال الثّاني: سيِّدي الشَّيخ الفاضل، ما هي الطَّريقة التي تُجنِّبنا الآفات؟[1]

(1) سؤال طرحه علىٰ فضيلة الشيخ عليّ تابعي، السيد داود قندوز، وهو من أتباع الطَّريقة التَّابعيَّة وأحد أعيان مدينة بسكرة. (جامع الكتاب).

الإجابة: الطَّريقة التي تجنِّبنا الآفات وتُبعِدنا عن المهالك هي العودة إلىٰ تعاليم الإسلام الحقيقيَّة والتَّفاعل معها، لأنَّ فيها الوِقاية من المهالك والحماية من الآفات، وقد قال الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: 123-126]، ومعنىٰ لا يضلُّ ولا يشقىٰ أي: لا يضِلُّ في الدُّنيا ولا يشقىٰ في الآخرة، فالنَّجاة في متابعة الكتاب والسُّنة، والسَّير علىٰ منهجهما القويم، والاقتداء بالعلماء العاملين وبالصَّالحين الأتقياء، والاجتهاد في تَعَلُّم أمور الدِّين علىٰ أهله، وقد قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، وعليك أن تسأل أهل الاختصاص في كل ميدان من الميادين.

فإذا أردنا أن نصنع بابًا فهل نسأل طبيبًا علىٰ ذلك؟ لا، بل نسأل نجَّارًا، والله ﷻ رتَّب كلَّ الأمور ترتيبًا مُحكما دقيقًا، وهذا أمر مطلوب، ولا يتعارض مع الدِّين، بل هو الدِّين نفسُه، والدِّين يشمل كلَّ حياة البشر، وليس هناك انعزال عن دين الله في أي لحظة من اللَّحظات، ولا يجوز لأحد أن يقول: لقد أدَّيتُ الصَّلاة وسأنطلق لأفعل ما تشاء نفْسي وما تُحِبُّ، فهذا لا يجوز شرعًا، وقد يستشهد احدهم بالآية القرآنية الكريمة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: 10]، ولا يعلم المسكين أنَّ الأرض التي ينتشر فيها هي أرض الله الذي له القُدرة علىٰ أن يخْسِف به تلك الأرض إن عصاه. وشُعُورُ الإنْسانِ بالانعِزال عن الله جُحودٌ، ولذا ينبغي للمؤمن أن يشعرَ بأنَّه عبد مملوك لربِّه ومقَيَّدٌ بأوامره، وليس حُرًّا يفعل ما يشاء وما يريد، والحرِّيةُ جمالُها القَيْدُ، فإذا انطلقت الحرِّية بدون قيد كانت فسادًا وضلالاً ومهلكة لكلِّ النَّاس.

السُّؤال الثَّالث: سيِّدي الشَّيخ المحترم، يتساءل البعض عن سرِّ تسمية

المُنْتَسِبِ إلىٰ هذه الطَّريقة بالفقير، فمن أين جاءت هذه التَّسمية؟ وما هي النَّصيحة العامَّة التي تُسْدونها لنا للمحافظة علىٰ قيَّم ديننا؟[1]

الإجابة: هذه التَّسمية مصدرها القرآن الكريم، لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، فالله تبارك وتعالىٰ خاطب النَاس جميعًا بهذا الخطاب، لأنَّ كلمة النّاس تعني الجنْس، والإحساس والشُّعور بالافتقار إلىٰ الله والاحتياج إليه يجب أنْ يكون في قلب المؤمن دائمًا، ولا ينفكُّ عنه طَرفة عيْن ولو مَلَكَ الأرض وما فيها وما عليها، وكلمة الفقير تُشْعِر صاحبها بأنَّ افتقاره واحتياجه إلىٰ الله ضروريٌّ في جميع أوقات حياته، وفي كلِّ نفَس من أنفاسه، فلا يتخلَّىٰ علىٰ ربِّه، ولذا أُعْطِيَ المُنتَسِبُ لهذه الطَّريقة هذا الاسم، ليكون علىٰ يقظة دائمة بأنَّه محتاج إلىٰ الله في كلِّ شيء، وإذا كان هذا هو المقصود من اسم الفقير فهو من أجمل الأسماء وأفضلها، لأنَّه أمر يعود بك إلىٰ ربِّك، وكما يُقال: لكلِّ مُسَمَّىٰ من اسمه نصيب.

أمَّا نصيحتي لي ولكم فهي العودة إلىٰ الدِّين المُعتدل المُتوازن، الذي يعدِل ولا يظلم، ويؤلِّف ولا يُنَفِّر، ويجمع ولا يُفرِّق، أي الدِّين السَّليم الحقيقي الذي جاء به النَّبيُّ ﷺ، والذي هو في الحقيقة جمال في كلِّ أمْر من أموره، جمال في ظاهره وفي باطنه، وجمال في الخُلُق وفي السُّلوك، وجمال في البدن وفي الرُّوح، وبدون عودتنا لأصل ديننا والتفافنا حول العلماء الأتقياء المخلصين لنتعلَّم منهم ونسير علىٰ هديهم لن نُفْلِح أبدًا، ولا ينبغي علينا أن نكتفي بالعلوم التَّجريبيَّة والعلوم المهنيَّة، ولا بدَّ من إشراف الإسلام علىٰ تلك العلوم ليقِيَها ويحميها من جميع المفاسد، لأنَّ أصلها علوم من الله ﷻ ولم تأت من غيره، ونحن نقول: إنَّ العالِمَ الفلاني قد اخترع شيئًا ما، ولكن في الحقيقة إنَّما أراد الله أن يُبدِي ذلك الشَّيء ويُظهره علىٰ يد من يشاء من عباده، ولكل أمر وقت وله أجل، ولكلِّ أجل

(1) سؤال طرحه أحد مقاديم الطّريقة التّابعيّة بولاية بسكرة، السيد محمد خزّاني. (جامع الكتاب).

كتاب، والعِلم صفة من صفات الحقِّ ﷻ، وهو شامل لجميع العلوم ولكلِّ ما يُسَمَّىٰ عِلْمًا.

إذا عدنا للحديث عن السُّلوك في الطَّريقة فنقول: أنَّ علىٰ كلِّ إنسان عاقل مُمَيِّز أن ينظر إلىٰ أهلها علىٰ أيِّ أمر يعتمدون، فإذا كان اعتمادهم علىٰ الكتاب والسُّنَّة فلا يجِب عليه أن ينفُر منهم، بل يجِب عليه أن يألفهم وأن يتبعهم، وأمَّا إذا رأىٰ منهم خروجًا عن منهج الكتاب والسُّنَّة فله كلُّ الحقِّ في عدم صحبتهم ومجالستهم حماية لعقيدته ودينه، وفي الحقيقة إذا كانت الطَّريقة مبنية علىٰ أصول من الكتاب والسُّنَّة فإنَّها ترفعك إلىٰ العقيدة السَّليمة الذَّوقية التي كان عليها صحابة رسول الله ﷺ والسَّلف الصَّالح من هذه الأمَّة، والعقيدة الذَّوقية من مشمولات العقيدة وأقسامها، لأنَّ للعقيدة ثلاث مراحل: عقيدة تقليدية مأخوذة عن الآباء والأمُّهات، وعقيدة عِلميَّة تتعلَّمها من أهل العِلْم من العلماء الذين يعلِّمونك العقيدة اللَّفظيَّة القوليَّة، ويُبيِّنون لك صفات الله ﷻ بالدَّليل والبرهان، وكلُّ ما سبق من العقيدة التَّقليدية والعقيدة العِلميَّة لا بدَّ أن تصِل بهما إلىٰ العقيدة الذَّوقية الشُّعورية، فإن لم تصِل إلىٰ ذلك، فإيمانك يبقىٰ ناقصًا غير تامٍّ، والدَّليل علىٰ ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ، أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سِواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلاَّ لله، وأن يَكْرَهَ أن يعودَ في الكُفْر كما يَكرَهُ أن يُقْذَفَ في النَّار**»[1].

إنَّ ما ورد في هذا الحديث ليس كلاما عابرًا يُقال ويُحْفَظُ، ولكنَّها أمور حقيقية يعيشها المؤمن بذوقه وروحه وبقلبه ووجدانه، وفي عمله وسلوكه وفي معاملته وعبادته، ولن يصِل أحد إلىٰ الإيمان الذَّوقي بحفظ الألفاظ والتّشدُّق بالكلام، لأنَّ أصل الإيمان مبنيٌّ علىٰ اليقين الكامل الذي يرفع الشَّكَّ والوَهْمَ والظَّنَّ، ولأنَّ كلَّ إيمان يشوبُه أمر من هذه الأمور هو إيمان فاسد، وقد تكون بذرة الإيمان موجودة ولكنَّها مريضة أو شبيهة بالميِّتة، وهناك أمور ينبغي للمؤمن أن

(1) رواه البخاري ومسلم والتِّرمذي وغيرهم بألفاظ مُتقاربة، واللَّفظ هنا للبخاري.

يكون عليها ليجِد حلاوة الإيمان في قلبه، ويذوقها ويشعر بها، وأوَّل هذه الأمور أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سِواهما، أي لكي يكتمل إيمان المؤمن يجب أن يكون عنده حبُّ الله ورسوله أكثر من حبِّه لنفْسه وماله وأهله وأبويه والنَّاس أجمعين.

وهكذا كان حال الصَّحابة (رضي الله عنهم جميعًا)، فقد ورد في حديث أنَّ سيِّدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال للنَّبيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ**»[1]، وإذا كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليك ممَّا سِواهما، فلا بُدَّ أن يمتلئ قلبُك بهذا الحُبِّ، ويفيض علىٰ جوارحك وبدنك، فتُصبِح طائعًا لله ﷻ، ومُقتدِيًا برسوله ﷺ في جميع حياتك، وفي كلِّ سلوكك وتصرفاتك، وحتَّىٰ في طعامك وشرابك، وفي نومك ويقظتك، فإذا أردتَ أن تتميَّز عن الكافر فلا بدَّ أن تتذكَّرَ حُبَّ الله ورسوله أثناء الطَّعام، فتمتثِل أوامرهما وتجتنب نواهيهما، فيكون طعامك حينئذ طاعة وعبادة، وهكذا في سائر العبادات والطَّاعات والمعاملات.

وانظرْ إلىٰ عظمة هذا الدِّين فإن في تعاليمه سعادة المرء في الدُّنيا والآخرة، ولكنَّ الإنسان يكتفي بدونه وينشد السَّعادة في غيره، ولن يتحقَّقَ له ذلك إلاَّ بالعودة إلىٰ دين الإسلام وتحقيق العبودية في نفسه لله، والاقتداء بالنَّبيِّ ﷺ، والاعتصام بسنَّته فإنَّ فيها الخير كلَّه، ولذا يجب علينا أن نهتَمَّ كلَّ الاهتمام بالسُّنَّةِ النَّبويَّة الطَّاهرة، ونُعظِّمَها ونُجِلَّها، ونتفاعل معها في كلِّ حركاتنا وسكناتنا، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يُحِبُّ التَّيامن في كلِّ شيء، وقد قالت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان رسولُ الله ﷺ يُحِبُّ التَّيامن في طُهُوره وتَنَعُّله وترجُّلِه»[2]، فمن يعمَل بسنَّة النَّبيِّ ﷺ عند لبس النِّعال، فيذكر اسم الله عليه ابتداء مستعينا بربِّه ومُستشعرًا

(1) رواه البخاري وأحمد وغيرهما.

(2) رواه أحمد والنَّسائي وابن حِبَّان وغيرهم، واللَّفظ لأحمد.

لنِعَمِه، ويُقدِّم رجله اليُمنىٰ علىٰ اليُسرىٰ، فهو في طاعة لله، وتُعَدُّ حركاته هذه عِبادة لمولاه، وهكذا يحصُل الانسِجام بين العبد الذَّاكر ونعله الذي يريد أنْ يلبسه، لأن نعلك نِعمة مُسَخَّرة لك من الله.

وقد يرىٰ بعضنا أنَّ الحِذاء جِلد أبكم لا ينطق ولا يسمع، ولا يفهم عن ربِّه، ولكنَّه في حقيقته يُدرك من أمر الله إدراكًا كاملاً، ويفهم عنه فهمًا تامًّا، ويعرِف ربَّه تمام المعرفة، ويُسبِّح بحمده في كلِّ حين، ألم يقل الحقُّ ﷻ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: 44]، فكلُّ شيء في السَّماء والأرض يسبِّح بحمد ربِّه، وعندما تشتري حذاء وتذكر اسم الله عليه، فإنَّه يشهد لك يوم القيامة بأنَّك كنتَ ذاكِرًا عند تعاملك معه، ولم تكن من الغافلين الجاحدين لنِعم الله المُسَخرة لهم، بل كنتَ من الشَّاكرين لربِّهم علىٰ نعِمة تسخير الحِذاء لهم، وقد ورد في بيان فضل هذه النِّعمة حديث جاء فيه: «**اسْتَكْثِروا من النِّعال، فإنَّ الرّجلَ لا يزال راكبا ما دام مُنْتَعِلاً**»[1].

وإذا نظرنا إلىٰ الحِذاء من ناحية أخرىٰ، فَمَنْ عَلَّمَ صانعَه مهنته، ومَن ألهمه أن يصنع هذا الحِذاء؟ إنَّه الله، وكلُّ ذلك إكرام لبني البشر، وهذه نِعمة يستحِقُّ الله ﷻ عليها الشُّكر والطَّاعة، ولا ينبغي لأحد أن يسعىٰ بهذه النِّعال التي امْتَنَّ الله بها عليه إلىٰ معصية من المعاصي، لأنَّ الحِذاءَ نِعمةٌ من الله، والنِّعمة تستوجب الشُّكر، ولا تستوجِبُ الكُفْرَ والجحود.

وممَّا سبق يتَّضِح لنا جليًّا أنَّ الإسلام يشمل كلَّ ميادين حياة المسلم، ويحميه من الفساد، وأنَّ الإسلام منهج قويم ودين حياة، وليس دين طقوس، بل هو جامع لسعادة الإنسان في الدُّنيا والآخرة.

ولنعُد إلىٰ الحديث عن الصِّفات التي ينبغي أن يتحلَّىٰ بها المؤمن ليذوق حلاوة الإيمان، فمن هذه الصِّفات أن يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلاَّ لله، أي أنَّك تحِبُّ

(1) ذُكر هذا الحديث في كتاب معجم أساسي شيوخ أبي بكر الإسماعيلي.

غيرك لله لا لغرض آخر، فتحِبُّ أباك لله، لأنَّ الله أمرك بحبِّه وبطاعته في حدود ما شرعه الله، فإذا خرج عمَّا شرعه الله، فلا تُطِعه، لأنَّه ورد عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «**لا طاعةَ لمَخْلُوقٍ في مَعْصِيةِ الخَالِق**»[1]، وهكذا يجب أن تُحِبَّ غيرك لله، وتتعامل معه لله وبشرع الله، وأمَّا الصِّفة الثَّالثة التي تجعل من اتَّصف بها يذوق حلاوة الإيمان، فقد أشار إليها النَّبيُّ ﷺ فقال: «...**وأن يَكْرَهَ أنْ يعودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّارِ**»، وهذا الأمر طبيعي، لأنَّك إذا أحببتَ الله ورسوله فسيؤدِّي بك هذا الأمر حتمًا إلىٰ أنْ تكره الكفر وأهله، وبذلك تحذر من النَّار وتُنقِذ نفسك منها.

إذن العقيدة الذَّوقية الشُّعوريَّة ضرورية للمُسلِم ليكمل إيمانه ويُحقِّق العبودية لله في نفْسِه، لأنَّه ليس هناك انعزالية بين العبد وربِّه، والله ﷻ يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [**الحديد: 4**]، أي أنَّ الله ﷻ يقول: أنا معكم أُبصِرُ وأعْلَمُ ظواهرَكم وبواطِنَكم، وسأُحاسِبكم علىٰ كلِّ ذلك، ولِذا لا ينبغي لنا أن ننعزِلَ عن الله بمجرَّد انقضاء الصَّلاة أو الخروج من المسجد، بل يجب أن تكونَ صِلتُنا بالله دائمة، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [**المعارج: 19-23**].

السُّؤال الرّابع: سيِّدي الشَّيخ الفاضل، إضافة إلىٰ الدُّروس والمواعظ ومجالسة الصَّالحين، ما هي الوسائل الأُخرىٰ التي تساعد علىٰ تقوية الإيمان، وتُعينُ المؤمِن علىٰ الانتصار علىٰ مكائد الشَّيطان، وشهوات النَّفس الأمَّارة بالسُّوء وحبِّ الدُّنيا وزخارفها، وكيف تكون للمؤمن وِقاية حقيقيَّة من كلِّ ما يُعِيقه علىٰ الإقبال علىٰ الله، ليُحقِّق العبودية في نفسه لسيِّده ومولاه؟[2]

---

(1) رواه أحمد والطَّبراني وابن أبي شيبة في مصنَّفه، واللَّفظ لابن أبي شيبة.

(2) سؤال طرحه علىٰ فضيلة الشيخ عليّ تابعي، السيد داود قندوز، وهو من أتباع الطَّريقة التَّابعيَّة وأحد أعيان مدينة بسكرة. (جامع الكتاب).

الإجابة: إذا أردنا أنْ يزداد إيماننا بالله ورسوله، فلا بدَّ علينا أنْ نعود إلىٰ تعلُّم العِلْم علىٰ أهله ونصحبَ أهل الله المتَّقين أرباب القلوب، ليدلُّونا علىٰ عيوب النَّفس ورعونتها، ويُبَصِّرونا بشهواتها وحظوظها، ويتدرجون معنا في التَّربية حتىٰ تتزكَّىٰ نفوسنا، وتتطهَّر قلوبنا وتنجلي عنَّا الغفلة فنُقْبِل بكلِّيتنا علىٰ طاعة الله ﷻ، لأنَّه كلَّما كثرت الطَّاعات قَوِي الإيمان، وكلَّما قلَّت الطَّاعات وكثُرت المعاصي ضَعُف الإيمان، ولكن البعض منَّا حصر الطَّاعات في أركان الإسلام وقواعده، وهو يظنُّ أنَّه يجوز له أن يفعل ما يشاء في بقية حياته دون رادع يردعه ولا هَدْيٍّ يهتدي به، وهذا غير صحيح، لأنَّ حياة المؤمن يجب أن تكون مربوطة كلِّيًّا بالإسلام ربطًا دقيقًا، وهذا لحماية العبد من الوقوع في الآفات، وحصانة له من ارتكاب الزَّلاَّت.

لأنَّك ما دمت ممتثلاً لأوامر الله ومُجْتَنِبًا لنواهيه فأنت في حِرْز من الشَّيطان وحِفْظٍ من النَّفْس، فالحفظ من انحرافك مرهون بمدىٰ التِزامك بما شرعه الله لك، وما دمتَ مُتَمَسِّكًا بالشَّريعة فلن يجرؤ الشَّيطان علىٰ الدُّنوِّ من ساحتك، لأنَّك في معيَّة الله، والشَّيطان ليس له قُدرة علىٰ إغواء من كان في معيَّة ربِّه وفي صِلة دائمة مع مولاه وسيِّده، والشَّيطان جنسان كما بيَّن الله ﷻ ذلك في سورة النَّاس فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس].

إذن حماية المؤمن من الشَّيطان سواء كان من الجِنِّ أو الإنس يكمُن في دوام طاعة الله ﷻ، وفي قلب الإنسان زاويتان، فزاوية يقيم فيها مَلَكٌ، وزاوية يقبع فيها شيطان، فإذا سَكَتَ المرءُ عن ذِكْر الله خرج الشَّيطان من زاويته اليُسرىٰ وبعث في النَّفس ميلا إلىٰ المعصية، وطلب منها ذلك، لأنَّ من طبيعة الشَّيطان حثُّ الإنسان علىٰ ارتكاب أيِّ معصية من المعاصي ولو كانت بسيطة فهو يقبَل بها ويرضىٰ، المُهِمُّ عنده أن يزُجَّ بك في معصية لربِّك، وأمَّا النَّفْسُ فمن طبيعتها أن تطلُب منك معصية مُعيَّنة، وتُصِرَّ عليها وتُلِحَّ في طلبها ولا ترضىٰ بغيرها بديلاً، ولذا أمرنا

النَّبيُّ ﷺ بمجاهدة أنفسنا للتَّخلُّص من شهواتها وحظوظها فقال: «**أفضلُ الجِهادِ أنْ تُجاهِدَ نفْسَكَ وهَوَاكَ في ذَاتِ اللهِ**»[1].

وما معنىٰ المجاهدة؟ هناك موازين شرعيَّة علينا أنْ نُراعيها، وقد ترغبُ النَّفْسُ في أمر مُعيَّن قد يكون معصية، أو أمرًا مُباحًا يُوصِل إلىٰ المعصية، لأنَّ هناك أمورًا مباحة تجرُّك إلىٰ ارتكاب المعاصي، فمثلا إذا اكتسبتَ طعاما من الحلال واستحسنَتْه نفسُك وأقبلتَ علىٰ أكله بحِرْصٍ وشَرَهٍ، فتضرَّرَ بدنُك وفسد مزاجُه وتكاسلتَ عن الصَّلاة والطَّاعات، فأنت قد بدأتَ بأمر مباح، ولكن ذلك المباح جرَّك إلىٰ معصية، وكلُّ هذا من دسائس النَّفْس التي لا يُمكن أنْ يطَّلع المرءُ عليها ويعرِفها لوحده، بل لا بدَّ له من مُعِين يُعينُه ومُرشِد يُرشِده، وقد قيل:

لا بدَّلك من شيخ يُريك شُخُوصها وإلَّا فنصفُ العِلْمِ عندك ضائع

إذن لا بدَّ لك من صُحبة عالِم عارف بالله تعرضُ عليه ما استشكل من أمورك وأحوالك، ليبيِّن لك الحقَّ من الباطل، والضَّلال من الهُدىٰ، والفساد من الصَّلاح، لأنَّ العارفين يعرِفون دسائس النَّفْس وخسائسها، ويخلِّصونك منها بإرشاداتهم ونصائحهم، ويوصِلونك إلىٰ معرفة الله، رُوِي أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَن عَرَفَ نفْسَه فقد عَرَفَ ربَّهُ**»[2].

وممَّا سبق بيانه يتَّضح لنا أنَّه لا بدَّ لك من شيخ عارف بالله سلك طريق التَّربية وعرف دروبها وشِعابها لِيُرافقك في سيْرِك، ويُجَنِّبك الوقوع في المهالك، ويشخِّص لك عيوب نفْسِك لتتخلَّص من رعونتها، ورُوِي عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «**التمِسُوا الرَّفيق قبْل الطَّريق**»[3].

وفي هذا القدر كفاية وإلىٰ لقاء آخر إن شاء الله، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالَمين.

---

(1) رواه الدَّيلمي.

(2) ذكر هذا الحديث الرَّازي وابن عجيبة وإسماعيل حقِّي في تفاسيرهم.

(3) رواه الطَّبراني في الكبير كما جاء في المقاصد الحسنة للسخَّاوي.

الحِوار السَّادس[1]

حول «العِمارة» و«الفِرقة النَّاجيَّة» و«العبودية لله»

بعد تلاوة مباركة عطرة من أحد المُقرئين للآيات القرآنية الكريمة التَّالية من سورة العصر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [سورة العصر]، فتح فضيلة الشَّيخ عليّ تابعي ﷺ للحاضرين باب الأسئلة في ميدان السُّلوك والتَّربية الرُّوحية وعما يَسْتَشْكِلُونَهُ من أمور في بعض المفاهيم الخاصَّة بموضوع تزكية النُّفوس وطهارة القلوب، وسلوك الطَّريق المستقيم ومنهج الحقِّ، بُغية الوصول إلىٰ معرفة الله ﷻ والإقبال عليه، فكانت الأسئلة التَّالية من الحاضرين والتي أجاب سماحته علىٰ فحواها، وأزال كلَّ التباس يتعلَّق بمبادئ الطَّريق ومفاهيمها ونهجها القويم.

❁ ❁ ❁

السُّؤال الأوّل: ما هي حقيقة العمارة؟

الإجابة: العِمارة تُسمَّىٰ بهذا الاسم في بلاد المغرب، ويُسَمِّيها المشارقة الذِّكْرَ بالصَّدر، أو الذِّكْرَ الصَّدْريّ، وهو ذِكْرٌ للاسم الأعظم اسم الجلالة، حيث يُشخِّصُ الذَّاكِرُ هذا الاسم المبارك يخرج من قلبه ويعود إليه، مُسْتَشْعِرًا بقلبه جلال الله ﷻ وعظمته، وجامعًا هِمَّته علىٰ مولاه، ومُقبِلا بكُلِّيته عليه، وصارفًا قلبه عمَّن سواه، باعتبار أنَّ الله ﷻ قال في حديث قدسيٍّ: «**لَمْ يَسَعْنِي أَرْضِي ولا سمائِي، وَوَسِعَنِي قَلْبُ عبْدي المؤمِن اللَّيِّن الوادِع**».

وقد ورد في حديث إشارة إلىٰ هذا المعنىٰ، فقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ لله آنيةً مِن أهْل الأرضِ، وآنية ربِّكم قُلُوب عبادِه الصَّالِحين، وأحبّها إليهِ ألينها**

(1) جرىٰ هذا الحوار بتاريخ 08 أوت 2003م، في بيت السيد «أعمر بدغيو» مقدم الطَّريقة التَّابعيَّة بدائرة «قايس» ولاية خنشلة. (جامع الكتاب).

وأرقّها»[1]، وذكر الإمام السُّيوطي في كتابه «الدُّرر المُنتثرة في الأحاديث المُشتهرة» أنَّ الإمام أحمد بن حنبل أخرج في الزُّهد عن مُنَبِّه أنَّ الله ﷻ قال في حديث قدسيٍّ: «**... إنَّ السَّمَوات والأرْض ضَعفْن عن أنْ يَسَعنَنِي، وَوَسِعَنِي قلبُ المؤمِن الوادِع اللَّيِّن**».

والمقصود من ذِكْر الاسم الأعظم «الله» بالكيفية السَّابقة، تصفية القلوب من أمراضها، وتزكية النُّفوس وتطهيرها من عِلَلِها، وللعمارة سِرٌّ لا يُدْرَك إلاَّ بالذَّوق والمعايشة، وهذه هي مشكلة مَن يُنْكِر علىٰ الذَّاكرين أحوالهم، وكان الواجب أنْ يُسَلِّمَ لهم في هذه الأحوال، ولا يبادر بالإنكار عليهم، ولا يتكلَّم في أمور لا يُدْرِك أبعادها، ولا يعرِف حقيقتها، فتظهر من خلال تفكيره بأنَّها أمور غريبة، وقد قال العالم الربّاني الشَّيخ أحمد بن مصطفىٰ العلاوي رضي الله عنه:

أيُّـهـا الـحـاضـر اذْكُـر وذاكِـرْ إيَّـاكَ تـنـكـر حـال أهـلِ الـلـه
فـسـلِّـم لـهـم فـيـمـا عـراهـم واعـلـم أنَّـهـم غـابـوا فـي الـلـه
فـالـوَجْـدُ فـيـهـم داع يـدعـيـهـم يـطـرًا عـلـيـهـم فـي ذِكْـر الـلـه

والحقيقة أنَّ الإسلام ذوقٌ ومعايشة، فعندما يقوم الإنسان في الصَّلاة مثلاً لا تبقىٰ فيه جُزئية في داخله أو في خارجه إلاَّ وتخضع وتذلُّ وتسجدُ لله ﷻ، وعندما يُكَبِّر تكبيرة الإحرام فقد وضع الدُّنيا والآخرة جانبًا، ولم يبقَ في قلبه وفي ذاته وفي فِكره إلا الله ﷻ، وهذه هي حقيقة الصَّلاة، وعلىٰ هذا الأساس سُمِّيتْ بالصَّلاة، لأنَّها صِلة بين العبد وربِّه، وليست الصَّلاة صِلة بينه وبين الدُّنيا، ولا بينه وبين الآخرة.

إذن علىٰ الإنسان أنْ يكونَ في سائر أوقاته سواء في أحواله التَّعبدية أو التَّعاملية خاضعًا وخانعًا وخاشعًا لله، لأنَّ الدِّين عبادة ومعاملة، ونحن نظنُّ أنَّنا عندما نؤدِّي الصَّلاة في المسجد ونتحلَّل منها بالسَّلام فقد انتهت علاقتنا بالله، وأنَّه يحِقُّ لنا بعد ذلك أنْ نفعلَ ما نشاء ونُحِبُّ ممَّا يخطر في البال وما تشتهيه النَّفْس

(1) رواه الطَّبراني في مسند الشَّاميِّين.

وتريده، وهذا من جهلنا بالإسلام وسوء فهمنا له، ولو فهمناه حقًا لأدركنا بأنَّ الإسلام كلٌّ لا يتجزأ، وهو الاستسلام لله ﷻ بجميع الجوارح الحِسِّية والمعنويَّة الظَّاهرة والباطنيَّة.

ولا يمكن للمُسلِم أنْ يعيشَ الدِّين في المسجد فإذا خرج منه ترك دينه وتحرَّر من إسلامه، وهذا يعني أنَّ فهمنا للإسلام فهم خاطئ، لأنَّ كلَّ ما في الإسلام وفي الشَّرع من أحكام سواء كانت فرائض وواجبات أو سُننا ومستحبَّات أو غير ذلك، فكلٌّ منها له معنىٰ جليل عظيم القَدْر في نفْس الإنسان، وفي حركاته وسكناته، وهذه هي الحقيقة.

ولكنَّ البعض منَّا عندما يجهل هذا الإسلام، فقد يرىٰ الأمور علىٰ غير حقيقتها، والنَّاس أعداء ما جهلوا، وعندما يجد بعضنا قومًا يذْكرون الله ﷻ كثيرًا، يتعجَّب من أمرهم، ويراه غريبًا ويُنْكِر ذلك عليهم، لأنَّه لم يتعوَّدْ علىٰ هذا الأمر، ولم يعلم أنَّ الله ﷻ هو الذي أمر عباده المؤمنين بالذِّكْر الكثير في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: 41-43].

وقد قال الرَّسول ﷺ: «**سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ، قَالُوا: وَمَا الْمُفْرِدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْمُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ، فَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِفَافًا**»[1]، ومعنىٰ المُستهتِرون: المولعون بالذِّكْر والتَّسبيح. ولذِكْر الله ﷻ أثر كبير في نفوس الذَّاكرين لا يذوقه إلاَّ مَن اتَّبع منهج العارفين بالله، وتربَّىٰ في أحضانهم، وتأدَّب بآدابهم، وتعلَّق قلبُه بحُبِّ ربِّه، وكان لسانه رطْبًا بذِكْر الله، واقْشَعَرَّ جلده عند تلاوة وسماع ما نزل من الحقِّ، وعرجت روحه إلىٰ حضرة مولاه، ولذا قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: 23].

(1) رواه الترمذي في السُّنن بهذا اللَّفظ.

ولكن لما كان الذَّوق غير محسوس وغير ملموس فقد يُنكره البعض ممَّن كان ذوقه فاسدًا، ويتعجَّب من رؤية تأثير الذِّكْر علىٰ المولَعين به، وقد ينسبهم إلىٰ الجنون، ويستبشرون هم بذلك ويُعِدُّونه شهادة عند الله لهم، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللَّهِ حَتَّىٰ يَقُولُوا مَجْنُونٌ**» [1]، وقد قال العالم الربّاني الشَّيخ العلاوي رضي الله عنه في هذا الباب:

ومَن لم يجِدْ فليتواجد قصدًا يتعرَّض لفضل الله
هكذا قالوا ولذا مالوا ولقد غالوا في ذِكْر الله
حتَّىٰ قد ظنَّ مَن ليس منَّا أنَّا جُنِنَّا بذِكْرِ الله
هنيئًا لنا تَمَّ بشرانا إن كان لنا حُمْقٌ في الله

إنَّ معرِفة الله ﷻ هي الغاية القصوىٰ المنشودة للمُسلِم في هذه الحياة، لأنَّ المولىٰ تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، قال «مجاهد»[2] إلا ليعرفون، لأنَّه لو لمْ يخلُقْهم لم يُعْرَفْ وجوده وتوحيده، ومعرفة الله ﷻ أوَّل فرض عين علىٰ المُسلِم المُكلَّف، لأنَّه من العار ومن سوء الأدب ومن جهل الجاهلية أنْ تكون في مَمْلكة المَلِك، وكلُّ ما أنت فيه من النِّعَم ظاهرة وباطنة مُسداة لك منه، وأنت تجهله، ولا تسعىٰ لطلب معرفته، ولا تسأل عنه لتعرفه، وقد قال الحقُّ ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59]، أي فاسأل عنه العارفين به ليُعرِّفوك به.

وأمَّا أن تبقىٰ جاهلا بربِّك فلا تعرفه، وتكتفي بالعقيدة التَّقليدية العامَّة أو العقيدة العِلْمية، فهذا خطأ كبير لا يليق بالمُسلِم، بل يجب عليه أنْ يبحثَ باستمرار كيف يعرِف الله ﷻ، هذا الذي يُطعِمه ويسقيه، ويُضِلُّه ويهديه، ويُميته

(1) رواه أحمد والحاكم والبيهقي وابن حبان.

(2) هو مُجاهِد بن جَبْر، ويُقال «جُبير» (21هـ- 104هـ، الموافق لـ 642م- 722م)، مولىٰ السَّائب بن أبي السَّائب المخزومي القُرشي. ويُعرف اختصارًا في المصادر والكتب التُّراثية بـ «مجاهد». وهو إمامٌ وفقيه وعالمُ ثقة وكثير الحديث، وكان بارعًا في تفسير وقراءة القرآن الكريم والحديث النَّبوي، وقد روىٰ مجاهد الكثير عن ابن عبَّاس (رضي الله عنهما) كما عرض عليه القرآن ثلاث مرات.

ويُحْيِيه، وإذا مرِض يشفيه، وهل يليق بنا أنْ نكون في بيت أحد منَّا، وهو يُقَدِّم لنا كلَّ ما نحتاجه من مأكل ومَشْرب وغيرهما، ونحن لا نبحث عنه ولا نعرِف عنه شيئًا ولم نره؟! هذا غير معقول، وهو منطق لا يليق.

فكذلك الأمر في شأن الله ﷻ، فنحن كلُّنا في دائرة مَمْلَكَته ممْلوكين له، كما أنَّ كلَّ ما في الكون مملوك له، يُعطينا منه ما يشاء، ويمنع عنَّا ما يريد، وليس هناك في الكون شيء نُعطيه لأنفسنا، أو نمنع منه أنفسنا، وهو المُعْطي المانِع، والمُعِزُّ المُذِلُّ، وهو القائل ﷻ: «﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 26، 27].

إذن كلُّ ما في الكون مُلْك لله ﷻ، يتصرَّف فيه بمقتضىٰ حِكْمته، وأمَّا مشكلة الرِّزق، فهو إمَّا أنْ يُساقَ لك، أو تُساقَ له، ولستَ أنت الذي ترزق نفسك حسب إرادتك وهواك، بل الحقُّ ﷻ هو الرزَّاق الضَّامن لرزق كلِّ الخلائق، ولهذا يقول المولىٰ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56-58].

ومن العار وقلَّةِ الأدب والحياءِ أنْ تكونَ في مملكته وأنت لا تسعىٰ لطلب معرِفته، ولا تبحث عمَّن يدلُّك عليه، لأنَّ من طبيعة العبد أنْ لا يشغله أمر عن سيِّده ومالكه ولو لحظة واحدة، ولو سألتَ أيَّ أحد وقلتَ له: من أنتَ؟ فإنَّه يجيبُ تلقائيًّا ومباشرة قائلا: أنا عبد الله، ولكن أقواله وأفعاله وحركاته لا تدلُّ علىٰ ذلك، والسَّبب في ذلك أنَّه لا يعرف حقيقة العبودية لله لجهله بمولاه، وعدم معرفته إيَّاه، وكيف يعبدُ الإنسان ربًّا لا يعرفه؟ وكلُّ هذه القضايا بسبب جهلنا بحقيقة الإسلام.

وقد حصلتْ مشكلة عند بعض المُثَقفين من كلمة الطَّريق، حيث بمجرَّد أنْ يسمع أحدهم بهذه الكلمة يشمئزُّ منها، وكأنَّ الإسلام ليس بطريق، والحقيقة أنَّ

الإسلام طريق، وقد علَّمنا ربُّنا ﷻ أنْ ندعوه في كلِّ ركعة من الصَّلاة بقولنا: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ»، والصِّراط هو الطَّريق المستقيم، وكلمة الطَّريق تُذَكَّر وتُؤَنَّث، ولذا قال الله ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]، والطَّريقة تعني الشَّريعة، أي أنَّ الطريقة تعني التَّطبيق العملي للشَّريعة الإسلامية ظاهرًا وباطنًا في الحِسِّ وفي المعنىٰ، فعلىٰ المرء أنْ لا يستغرب كلمة الطَّريقة، وقد جاء في كثير من التَّفاسير أنَّ كلمة الطريقة في هذه الآية تعني: مِلَّة الإسلام.

إنَّ «الرَّحمانيَّة» و«التِّيجانيَّة» و«القادريَّة» وغيرها هي أسماء لأشخاص مُعَيَّنين سُمِّيَتْ الطَّريقة بأسمائهم لما كَثُر أتباعهم وكَثُرَ مُريدوهم، وليست الأسماء هي المقصد الأساسي، بل المقصد الرَّسمي أنَّ طريق هدىٰ الله واحدة غير متعدِّدة، ولكن في هذا الميدان قد دخلتْ أمور أخرىٰ أفسدتْ علىٰ النَّاس المقصود الحقيقي، وفهِم النَّاس من ذلك فهمًا خاطئًا، وهذا الأمر لا نتدخَّل فيه، لأنَّ فيه أمورًا غير صائبة، ووقع من جرَّائها سوء فهم عند البعض، وإذا سُئِل أحدهم يقول: أنا «رحمانيٌّ»، وهل أنت «رحماني» الأخلاق والفضائل، و«رحماني» السُّلوك والمعاملة أم لا؟ فإنْ لم تكن عندك هذه الصِّفات فلستَ «رحمانيًّا» ولو انتسبتَ إلىٰ «الرَّحمانيَّة»، ولا علاقة لك بها، لأنَّ القضيَّةَ ليست ألفاظًا بل هي حقائق.

السُّؤال الثّاني: ما هي الفِرقة النَّاجية؟

الإجابة: الفِرقة النَّاجية هي الفِرقة التي تتمسَّك بالكتاب والسُّنَّة، وليس هناك فِرقة ناجية غير هذه، وكلُّ مَن تمسَّك بالكتاب والسُّنَّة ولزم الآداب فهو من الفِرقة النَّاجية، ومن لم يكن كذلك فليس هو من هذه الفِرقة.

السُّؤال الثّالث: قد يقول البعض: «أنا أصلِّي وأصومُ، وأزكِّي مالي وأحجُّ بيت الله، وأؤدِّي شعائر الإسلام فأنا عبدٌ لله ﷻ»، فما هي حقيقة العبودية لله؟ وكيف أحقِّق هذه العبودية في نفْسي؟

الإجابة: العبودية لله ﷻ لا تتحقَّق لك إلا إذا كنتَ مُتمسِّكًا بالكتاب والسُّنَّة

من جميع الجوانب قلبًا وقالِبًا، لأنَّ كلَّ جُزئية في القرآن تشتمل علىٰ أمر أو نهيٍّ جاءت لتحقيق العبودية، وكلُّ حديث من أحاديث الرَّسول ﷺ تمسَّكْتَ به قولاً وعملاً وتطبيقًا علىٰ ذاتك ونفْسِك فهو تحقيق للعبودية، والنَّفس لا تتزكَّىٰ إلا بالقرآن والسُّنَّة، والله ﷻ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

فبماذا تتِمُّ تزكية النُّفوس؟ إنَّما تتزكَّىٰ النُّفوس بآيات الله ﷻ وسنَّة المصطفىٰ الهادي ﷺ، وهذه التَّزكية واجبة ومطلوبة علىٰ كلِّ فرد من أفراد المجتمع، ويشهد لهذا قول المولىٰ تبارك وتعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: 14، 15]، وقوله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7-10].

إذن تزكية النفوس واجبة، ومن لم يستطع ذلك لوحده فعليه أنْ يبحثَ بعزْم وإرادة علىٰ من يُعِينُه علىٰ تزكية نفْسه وتربية روحه، ويتدرَّج معه في ذلك، وهكذا كان شأن رسول الله ﷺ مع الصَّحابة الكِرام، يُزكِّي نفوسهم، ويربِّي أرواحهم، ويُطَهِّر قلوبهم بتوجيهاته وإرشاداته، وقد انتقلتْ هذه الخاصِّية من المُرشد الأعظم ﷺ إلىٰ العلماء الربَّانيِّين من أمَّته المباركة الذين ورثوا أقواله السَّديدة وأفعاله المجيدة وأحواله السَّنية المَرْضية، وقد قال ﷺ: «...**إنَّ العُلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا دِرهمًا، إنَّما ورَّثُوا العِلْم، فمَن أخذَ به أخذَ بحظٍّ وافِرٍ**»[1].

والأبوَّة الرُّوحيَّة كالأبوَّة الجسدية سواء بسواء، وكما أنَّه لابدَّ للجسد من أب فللروح أبٌ، وهذه ليستْ بِدعة ظهرت في الكون، بل بدأت من لدن سيِّدنا آدم عليه السلام الذي جمع الله ﷻ له الأبُوَّتَيْنِ معًا، أبوَّة الرِّسالة وهي الأبوَّة الرُّوحيَّة، وأبوَّة الجسد الطِّينيَّة، فكان سيِّدنا آدم عليه السلام أبا للجانبين البدنيِّ والرُّوحيِّ، وهذه هي الأبوَّة الكاملة.

(1) رواه أبو داود والتِّرمذي وابن ماجه وغيرهم، واللَّفظ للتِّرمذي.

إنَّ تزكيةَ نفْسِك مِن أدرانها ومن غوائلها، وتطهير قلبك من الأسقام والعِلل، فرض عَيْن عليك، ولكن تحت إشراف مَن يُحْسِن الأمر، لأنَّك لا تستطيع ذلك لوحدك، فهناك عوامل أخرىٰ قد تدخلُ عليك وتُفْسِد شأنك، كمكائد الشَّيطان، وشهوات النَّفس ورغباتها، وتَحَكُّم الهوىٰ، وقد تظنُّ أنَّك انتهيتَ من معالجة نفْسِك، وتغلبتَ علىٰ حظوظها وشهواتها، ولكنَّ الأمور المدسوسة لا تشعرُ بها ولا تُدْرِكها، حتَّىٰ يُقَيِّضَ اللهُ ﷻ لك من سلك هذا الدَّرب، وجرَّبه قبلك، وعرف أدغاله، فيُنبِّهك لأخطاره ويقيك من مهالكه، ولذا قال العالم الفاضل ابن عاشر رَحِمَهُ اللهُ:

يصحبُ شيخًا عارِفَ المسالِك يقيهِ في طريقه المَهالِك
يُذَكره اللَّهَ إذا رآهُ ويُوصلُ العبدَ إلىٰ مَولاه

وقد يقول القائل: وما الحاجة إلىٰ الشَّيخ المربّي والكتاب والسُّنَّة بين يديَّ؟ فنقول لمثل هذا: هَبْ أنَّك تعرف الأمور الجليَّة الواضحة في الكتاب والسُّنَّة، ولكنَّك تجهل دقائق هذه الأمور وأسرارها، ولذلك أنت في حاجة ماسَّة إلىٰ مَن يُرافِقك في ميدان السَّير والسُّلوك، ويُريك حقائق الدِّين، ويكشف لك ما خَفِي عليك من عيوب نفسك ودواهيها، وقد نبَّهنا الرَّسول ﷺ إلىٰ أهميَّة الرَّفيق في حياة المؤمِن فقال: «**المرءُ علىٰ دِينِ خليلِه، فلينظُرْ أحدُكم مَنْ يُخالِل**»[1]، وجاء في حديث آخر: «**التَمِسُوا الرَّفيق قبْل الطَّريق والجارَ قبْل الدَّار**»[2]، وقال أحد العارفين:

مَن لَمْ يكُنْ خلفَ الدَّليلِ مَسِيرُه تخالَفَتْ عليه طرائقُ الأوْهَام

ونحن نلاحظ أنَّ كلَّ الأمور في الحياة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة تدور بين مُعَلِّم ومُتَعَلِّم، فالذي يريد أنْ يتعلَّم مِهنة النِّجارة يقصد نجَّارًا ماهرًا ليتعلَّم منه، ويأخذ عنه مبادئ هذا الفنِّ، وعليه أنْ يُطيعَه وإنْ خالفَه فلن يُفْلِح أبدًا، وهذا المُتَعَلِّمُ يُعَدُّ

(1) رواه أحمد والحاكم والبيهقي وغيرهم.

(2) رواه الطَّبراني في الكبير كما جاء في المقاصد الحسنة للسخَّاوي.

تلميذًا، والمُعَلِّم له بمثابة شيخه وأستاذه المُربِّي، وهكذا الشَّأن في ميدان التَّربية الرُّوحيَّة والسُّلوك وتزكية النُّفوس، فالأمر ليس بالغريب، وقد يقول البعض وما حاجتي إلىٰ الشَّيخ، وما الضَّرورة التي تدعو إلىٰ ذلك وكتاب الله ﷻ مُتوَفِّر وسُنَّة رسوله ﷺ بين أيدينا؟ فنقول لمثل هذا القائل: هَبْ أنَّك تعرِف الأمور الجليَّة الواضحة في الكتاب والسُّنَّة، فهل أنت تعرِف وتُدرِك دقائقهما؟

إذن لابدَّ للمرء مِن قُدوة صالحة يقتدي به، ويتلقَّىٰ علىٰ يديه التَّربية بالتَّدرُّج، بشرط أنْ يكون المريدُ موافِقًا لأستاذه قلبًا وقالبًا، ويُطيعه فيما يشير إليه من التَّوجيهات حتَّىٰ يتخلَّص من رعونات نفسه، ويتوجَّه بقلبه إلىٰ ربِّه، ويُحقِّق العبودية لله ﷻ في نفْسه، ويكون عبدًا صِرْفًا لمولاه، مُتجرِّدًا مِن كلِّ الغيريات في كلِّ حركاته وسكناته، ولذلك جاءت تكبيرة الإحرام في الصَّلاة لتُشِير إلىٰ تجرُّد المُصَلِّي عن كلِّ ما سوىٰ الله، كتجرُّد المُحْرِم في الحجِّ، فالمُصَلِّي القائم بين يدي ربِّه ينبغي أنْ يكون كلُّ جزء منه خاضعًا وخاشعًا لله ﷻ، ويجب أنْ يجمَع هِمَّته علىٰ الحقِّ ﷻ، ليكون موصولاً بربِّه، وتقرَّ عينه في تلك الصَّلاة، ولذا قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ مِن الدُّنيا النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاة**»[1].

إنَّ الإسلامَ لم يتركْ الإنسان هملاً، بل قيَّد الله ﷻ الإسلام بقوانين شرعيَّة: افْعَلْ ولا تَفْعَلْ، فالأوامر والنَّواهي قيود شرعيَّة، فلا تفعلْ قيدٌ، وافْعَلْ قَيْدٌ كذلك، وإذا تركتَ هذه القيود أصبحتَ لعبةً للشَّيطان ومَسْخَرةً له، فالشَّرع مثلاً يأمرنا بالوضوء قبل أداء الصَّلاة، فالوضوء قَيْدٌ شرعيٌّ، وهذا القيد شرط في صحَّة الصَّلاة، فلا تصِحُّ صلاة بدون وضوء، والوضوء يشتمل علىٰ قيود متنوعة، فغسل الوجه قَيْدُ فرضٍ، ومسح الأذنين قيد سُنَّة، والشَّفع والتَّثليث في المغسول قيد مُستحبٌّ.

(1) رواه النَّسائي وأحمد والبيهقي وغيرهم، واللَّفظ لأحمد.

وهكذا اشتمل الإسلام على قيود شرعيَّة متنوعة جاءت لتربط العبد بمولاه، وليعيش في معيَّته موصولاً به في كلِّ أقواله وأفعاله وأحواله، فإذا أردتَ أن تأكلَ من رزق ربِّك فالشَّرع قيَّدك بالكسْب الطَّيِّب وأكل الحلال، أليس هذا قيد؟ بلى، فأنتَ مقيَّدٌ بالحلال، وهذا القَيْدُ شرف عظيمٌ للمؤمِن، لأنَّ الله ﷻ أمر به الأنبياء والمُرْسَلِين والمؤمِنين، وقد قال الرَّسول ﷺ مُبيِّنا هذا الأمر: «**أيُّها النَّاسُ إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبَل إلا طيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمِنين بما أمر به المُرسَلين** فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[1].

هذا وإنَّ القيود الشَّرعيَّة في الدِّين كثيرة، ولكنَّك أنت تجهلُها، ولا بدَّ لك إذا أردتَ أنْ تقومَ بأيِّ عمل أنْ تُقَيِّدَ نفْسَكَ بطلب الحلال، وفي داخل هذا القيد شروط مُعيَّنة ينبغي أنْ تُراعيها، ومنها أنْ تكون صادقًا في عملك وأمينا فيه، وأن تُتقِنه على أحسن ما يُرام، وأن تؤديَه على أحْسَن الوجوه، ولذا قال الرَّسول ﷺ: «**إنَّ اللهَ** ﷻ يُحِبُّ إذا عمِل أحدُكم عملاً أنْ يُتْقنَه»[2].

وقد اشترط الإسلام شروطًا كثيرة في العمل، وهي كلُّها قيود شرعيَّة، وإذا تقيَّدتَ بها كنتَ موصولاً بربِّك، لأنَّك أوَّلاً تعمل في أرض الله، وباقتدار الله لك، فلا قدرة لك على هذا العمل إلاَّ إذا أمدَّك الله بقدرة منه، وأنت تعمل بقوَّة الله وليس بقوَّتك، وتسعى على الأرض التي بسطها لك، وهو الذي وهبك العقل وملَّكك إياه، وجعل البعض مجنونًا مسلوب العقل، فالعقل ليس عقلك، والفهم ليس فهمك، بل فهم الله الذي وضعه فيك وفي عقلك، ثمَّ وهبَ لك العمل وسخَّره لك، وجعله طوع يديك، ووضع لك القيود التي تكلَّمنا عليها سابقًا، وبيَّن لك كيف تدخل في العمل، وكيف تخرج منه. فألزم قيود ربِّك واثبُتْ على ذلك،

(1) رواه مسلم والتِّرمذي وأحمد وغيرهم، واللَّفظ لمُسلم.

(2) رواه الطَّبراني والبيهقي، واللَّفظ للطَّبراني.

وقُلْ كما أوصاك الحقُّ ﷻ: «﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: 80].

وهكذا ينبغي أنْ تكون مُراقِبًا لربِّك في كلِّ حين، واعلمْ بأنَّ كلَّ النِّعَم التي أنعم الله ﷻ بها عليك هي مواهب من لدنه، فأولادك مثلًا الذين تُنْجِبهم مواهب من الحقِّ تبارك وتعالىٰ الذي يقول: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 49، 50].

وقد أخبرك الله ﷻ بأنَّ أولادك هِبَةٌ منه، وهل الهِباتُ هذه تقطعك عن الله؟ وهل يُعْقَلُ أنْ تكونَ مواهب الحقِّ سببًا في قطيعة بينك وبين ربِّك، وحِجابًا يحجبك عن مولاك، وذريعة للغفلة عنه؟ وهل يُحْسِن بك أنْ تقول: إنِّي مشغول بأولادي وغافل عن مَن وهبهم لي؟ لا، هذا كلام غير صحيح إطلاقًا، وإنَّما كلَّفك الله ﷻ بتربية أولادك، وجعل لك أبُوَّة لتربية الأجساد، كما جعل لك أبُوَّة لتربية الأرواح.

ومن هذا المنطلق فأنت مسؤول عن الجهتين، ومطلوب منك أنْ تجمع بين الأبُوَّتَيْنِ الجسديَّة والرُّوحيَّة، وتُعطي لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فينبغي أنْ تتحمَّل مسؤولية الرِّعاية لأولادك رعاية تامَّة، ولذا قال الرَّسول ﷺ: «**ألا كُلُّكم راعٍ وكُلُّكم مسؤُولٌ عن رعيَّته، فالإمَامُ الذي علىٰ النَّاس راعٍ وهو مسؤُولٌ عن رعيَّتِه، والرَّجل راعٍ علىٰ أهلِ بيتِه وهو مسؤُولٌ عن رعيَّتِه، والمَرأةُ راعيةٌ علىٰ أهلِ بيتِ زوجِها وولَدِه وهي مسؤُولة عنهم، وعبد الرَّجل راعٍ علىٰ مالِ سيِّده وهو مسؤُولٌ عنه، ألا كُلُّكم راعٍ وكُلُّكم مسؤُولٌ عن رعيَّتِه**»[1].

إذن فأنت مسؤول عن أبنائك وبناتك وزوجتك بأنْ تجعلهم خاضعين لله ﷻ، مُمْتَثِلين لأوامره ومُجتنِبين لنواهيه، وإنْ لم تفعل ذلك، ولم تقمْ بهذا الدَّور، فأنتَ مُعَاقَبٌ علىٰ تركك لهذه الرِّعاية الواجبة، وللأسف الشَّديد فإنَّك تظنُّ

(1) رواه البخاري ومُسلم وغيرهما، واللَّفظ للبخاري.

أنَّك مسؤول عنهم ماديًّا فقط، فتأتيهم بالطَّعام والشَّراب، وتبني لهم المساكن والدُّور، وتقتني لهم جهاز تلفاز، ولا يهمُّك أمر آخر من أمورهم، وهذا سوء فَهْم منك للدَّور الذي كُلِّفْتَ به تِّجاه من جعلهم الحقُّ ﷻ تحت رعايتك، وكان لا بدَّ عليك أنْ تُربيهم تربيةً دينيَّة، وتُطهِّرهم من كلِّ الأوصاف الذَّميمة والرَّذائل القبيحة، ثُمَّ تُحَلِّيهم بأزكىٰ الفضائل، وهذا دورك كأبٍ، فإذا لم تقم بهذه المُهمَّة، فقد قصَّرتَ في الأمر، وضيَّعتَ أمانة الرِّعاية لمن جعلك الله ﷻ راعيًّا لهم ومسؤولاً عن رعايتهم.

وقد يُقَدِّمُ أفراد عائلتك عريضة إلىٰ الله يوم القيامة تتضمَّن شكوىٰ بأنَّك لم تسهرْ علىٰ تعليمهم، ولم تحرصْ علىٰ تربيتهم، وقد قال الرَّسول ﷺ: «**مُرُوا صِبيانَكم بالصَّلاة إذا بلغُوا سبْعًا، واضرِبُوهم عليها إذا بلغوا عَشْرًا، وفرِّقُوا بينهُم في المضَاجِع**»[1]، ولكنَّ الملاحظ علينا الإهمال لتربية أبنائنا، فلا نُعَلِّمهم شؤون دينهم، ولا نُرَسِّخ في قلوبهم عقيدة الإسلام، ولا نهتمُّ بذلك، ولا نُعَلِّمهم أسس ومبادئ دينهم، بل نُعَلِّمهم كيف يتكالبون علىٰ الدُّنيا، وكيف يجمعون حُطام هذه الدُّنيا الفانية.

وإذا قُمنا بتعليمهم علَّمناهم بنيَّة غير شرعيَّة فاسدة وغير صالحة، ولا يهمُّنا إلاَّ أن يأتي لنا الولد بالأموال، ولا تهمُّنا الوسيلة التي انتهجها للوصول إلىٰ ذلك، لأنَّ نياتنا في طلب العِلْم ليست صحيحة، فنحن لا نطلب العِلْمَ ولا نتعلَّمه لله، بل نتعلَّمه لغير الله، وقد قال الرَّسول ﷺ: «**تَعَلَّمُوا العِلْم فإنَّ تعلُّمَهُ للهِ خَشْية ...**»[2]، فهل فينا أبٌ يُعَلِّم ولدَه لله؟ لا، بل أكثرنا يُعَلِّمه للحصول علىٰ شهادة، ويكون مُوَظَّفًا يجمع الأموال، وكفىٰ.

وكان المفروض أنْ تُعَلِّمَ ولدك العِلْم لله بنيَّة شرعيَّة صالحة، فإذا تحصَّل علىٰ وظيفة وأكل من الحلال، فهذا الأمر الطَّيِّب، وأما إذا علَّمتَه العِلْم لغير الله،

(1) رواه أحمد والبيهقي والدَّارقطني وغيرهم، واللَّفظ لأحمد.

(2) ذَكَرَهُ حجَّة الإسلام الإمام الغزالي في كتاب الإحياء.

فإنَّ العِلْم سَيْفٌ ذو حدَّين، ونحن نلاحظ أنَّ بعض المُثَقَّفِين في الإدارات يُفسِدون ولا يُصلِحون، ويأكلون الحرام ويقولون: هذا من حقِّنا، أوليس الذي يسرَق من وقتِ عمَلِه ولو دقيقة يأكل الحرام؟ وتلك الدَّقيقة التي ضاعتْ يأخذ عنها مالاً، فما حُكْم هذا المال؟ إنَّه مالٌ حرامٌ، والغالِب علىٰ أكثرنا أنَّه لا يهمُّه إلاَّ أن يكون الابن صاحب شهادة، ويعمل في مصلحة كبيرة وفي وظيفة مرموقة، ويتحصَّل عل الأموال الطَّائلة، ولو كان هذا الابن لا يؤدِّي صلاته، ولا يهتمُّ بأمر دينه، وهذا هو الخطأ الفادح والأمر الخطير، وهذا هو المُشكل الحقيقي الذي يتخبَّط فيه الكثير، إذ أصبح طلبُ العِلْم لغير الله، بل لأجل حُبِّ الدُّنيا وزخارفها، وحُبِّ المال والجاه.

وقد دأب بعض المُثَقَّفين علىٰ استعمال كلمة الضَّمير المِهني، ويقولون علىٰ الإنسان أن يكون له ضميرٌ مهنيٌّ حيٌّ، وكأنَّهم يقولون: عليك أنْ تستخدمَ هذا الضَّمير ما دمتَ في عملك، وعندما تغادِر العَمَل فاخرج بدون ضمير، أي أنَّ لك ضميرا ما دمت في مِهنتك، وبعد ذلك تصبحُ بلا ضمير، وهذا أمرٌ غير مقبول، بل هو مرفوض أصلاً معنًىٰ وصورةً.

إنَّ مَن لا ضمير له دينيًّا ليس له ضمير أصلاً، والضَّمير الحقيقيُّ هو حالة تلازم الإنسان في كلِّ أوقاته وأحواله، وفي كلِّ حركاته وسكناته، والحقيقة أنَّ الغربيين جاءوا لنا بالضَّميرِ المِهنيِّ لينزعوا منَّا الضَّميرَ الدِّينيَّ، وهم أذكياء ينزِعون منا الفضائل ويعطوننا البدائل، ونحن نأخذ الأمر مُسَلَّمًا، ولذلك ترىٰ الكثير منَّا ليس له ضمير دينيٌّ ولا ضمير مِهنيٌّ، والأب الذي لا يُربِّي أولاده تربية دينيَّة، ولا يُعَلِّمهم العِلْم خَشية لله، ولا يغرسُ فيهم الخِلال الحميدة، فهذا الأب يُعَدُّ من الخاسرين.

وقد وصل الحال بالبعض من الآباء أنَّه يخشىٰ من أن يتربَّىٰ أولاده تربية دينيَّة، ولذلك عاقبنا المولىٰ ﷻ بالعقوق من الأبناء والبنات، وكثير منَّا يشكو من ذلك وهو المُتَسَبِّب فيه، وهذه نتيجة حتمية لتربية أولادنا، ولا ينبغي لنا أنْ نغضبَ من الوضعية التي آلتْ إليها أحوالنا، لأنَّ هذه ثمرة ما غرسنا نحن في أولادنا.

ليس من العيب أن نُعَلِّم أحدًا من أولادنا العِلْم ليتحصَّل على شهادة للعمل، ولكن لا بدَّ أنْ نربطَه بالدِّين ربطًا دقيقًا، حتَّى إذا ذهب إلى عمله، كان فيه مُخْلِصًا وصادقًا، ولا يشغله المال عن دينه، ولا يصرِفه عنه، لأنَّ المال فتنةٌ، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15]، والحقيقة أنَّ الأصل في الدِّين أنَّه قضيَّة وِراثية من لدن سيِّدنا آدم عليه السلام إلى يوم الدِّين، ولكنَّ ناس كثيرينَ ضيَّعوا هذه القضيَّة، لأنَّ الدِّين في رأيهم أمر زائد، وليس من اللَّوازم، وهذا هو الغلط الواضح والخطأ البيِّن، لأنَّ الله تبارك وتعالى لما خَلَقَكَ وبمجرَّد أن بعثك من العدم إلى هذا الوجود، جعل لك مَنهجًا تُقوِّم بها حياتك، ذلكم المنهج هو القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة العطِرة، والذي هو منهج حياة لك يصحبك من الميلاد إلى الوفاة.

والكثير منَّا اليوم لا يهمُّه من ولده إلاَّ أن يكون عاملاً يجمع الأموال، وأمَّا مِن النَّاحية الدِّينيَّة فالأمر ليس مُهِمًّا بالنسبة إليه، حتَّى ولو كان ذلك الولد لا يؤدِّي الصَّلاة، فالأمر عاديٌّ ولا مُشكلة في ذلك، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**مَن أشرب قلبه حبّ الدُّنيا، إلتاطَ منها بثلاثٍ: شَقَاءٌ لا ينفَدُ عنَاه، وحِرْصٌ لا يبلغُ غِناه، وأَمَلٌ لا يبلغُ مُنتهاه**»[1]، وكان سيِّدنا عيسى عليه السلام يقول: «حُبُّ الدُّنيا أصلُ كُلّ خَطِيئة، والمالُ فيه داءٌ كبيرٌ ...»[2]، ويقول العالم الفاضل ابن عاشر رحمه الله:

رأسُ الخَطَايَا هُوَ حُبُّ العاجِلة لَيسَ الدَّواء إلَّا في الاضْطِرار لَه

إذن إذا حبَّبْتَ لولدك الدُّنيا ورغَّبْتَه فيها ترغيبًا شديدًا، فإنَّك قد علَّمتَه كلَّ الشُّرور، وأعطيتَه كلَّ المصائب والبلايا، والدُّنيا لا يجبُّ أنْ تكون هدفًا للإنسان، وإنَّما الهدف منها ما دام الإنسان على ظهر الأرض أنْ يعملَ لمرضاة الله ﷻ ليحقِّق العبودية له، لأنَّ الله ﷻ أمرنا بالقيام بحقوق العبودية، وضمن لنا القيام بشؤون

(1) رواه الطَّبراني في المعجم الكبير.

(2) رواه البيهقي في شُعب الإيمان.

الـرِّزق فـقـال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56-58].

ولذا المطلوب منَّا جميعًا أنْ نجمعَ هِمَّتنا علىٰ الله، ونرغب فيه، ولا تشغلنا الدُّنيا عنه، ولكن بسبب انطماس البصائر -والعياذ بالله- انقلبت الأمور عندنا، وأصبح هَمُّنا الدُّنيا وجمع حُطامِها، والاجتهاد في طلب الرِّزق المضمون، والتَّقصير فيما هو مطلوب منَّا من تحقيق العبودية، ولذا قال ابن عطاء الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «اجتهادُك فيما ضُمِنَ لك، وتقصيرُك فيما طُلِبَ منك، دليلٌ علىٰ انطماسِ البصيرةِ منك». وقد وصل الحال ببعضنا إلىٰ أنَّه لا يحبُّ أن يرىٰ ولده مهتمًّا بأمر دينه، ويتردَّد علىٰ المساجد، ويشتغل بتعلُّم أمور دينه، والحقيقة أنَّ أفضلَ ما يُوَرِّثُه الإنسان لأولاده هو العِلْمُ والدِّينُ، وهذا هو الكنزُ الحقيقيُّ.

وقد ذَكَرَ النَّسفي في تفسيره أنَّهُ رُوِيَ أنَّ سيِّدنا عثمان ابن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل علىٰ عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مرض موته فقال: ما تشتكي؟ فقال: ذنوبي، فقال: ما تشتهي؟ فقال: رحمة ربِّي، وفي رواية ما يقضي ربِّي، فقال: أفلا ندعو الطَّبيب؟ فقال: الطَّبيب أمْرَضَني، فقال: ألا نأمر لك بعطاء؟ فقال: لا حاجة لي فيه، قال: ندفعه إلىٰ بناتك، قال: لا حاجة لهنَّ فيه، قد أمرتهن بأن يقرأن سورة الواقعة، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَن قَرأ سُورَةَ الواقِعة كلَّ ليلةٍ لَمْ تُصِبْه فاقَةٌ أَبَدًا**».

والدِّين هو الكنز الغالي، والمال الحقيقيُّ، والهِداية التَّامَّة، وهو خير ما يتركه الوالد لأبنائه ويُوَرِّثهم إياه، غير أنَّ الغالب علىٰ أكثرنا أنَّه منذ أنْ يُنجِبَ الأولاد يبدأ في التَّفكير فيما يترك لهم من أموال ضخمة، وما يُوَرِثُهُم من متاع الدُّنيا وزخارِفها، وفي الأخير يجد نفْسَه صِفْر اليَدَيْنِ.

الحِوار السَّابع

مع المُسْتَفْسِرينَ في لِقَاءِ مدينة باتنة

بعد تلاوة مباركة من أحد المُقْرِئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: 62-64]، فتح الشَّيخ الجليل عليّ تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه باب الأسئلة للحاضرين، فكانتْ هذه الاستفسارات التي سأُثْبِتُ بعد كلٍّ منها الإجابة عنها.

❁ ❁ ❁

السُّؤال الأوّل: لماذا يُسَارِعُ البعضُ إلىٰ إنكار وجود أولياء الله عمومًا والمُعاصرين له خصوصًا؟

الإجابة: إنَّ النَّفْسَ تُحِبُّ المظاهر والشَّكليات، والمُهِمُّ عندها أنْ تتعلَّق بما تشتهيه وترغبُ فيه، ولا تقبَل الأمور الطَّبيعيَّة والعادية، ولذا لما بعثَ الله ﷻ النَّبيَّ ﷺ اسْتَغْرَبَتْ قريشٌ الأمر، لأنَّهم لم يتعوَّدوا عليه، وتعجَّبوا من أنْ يكونَ الرَّسولُ بشرًا عاديًّا، ولذا قال الله ﷻ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: 7، 8].

وكأنَّهم يقولون لله ﷻ: «أمَا وجدتَ غير هذا الفقير المحتاج لتُرسِلَه رسولاً إلينا؟ وهكذا كانت ترىٰ نفوسُهم التي جُبِلَتْ علىٰ حبِّ المظاهر والشَّكليات، ولذا قال المولىٰ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 31، 32].

والخُطَّة التي انتهجها أهل مكَّة مع رسول الله ﷺ هي التي ورِثناها وتعاملنا بها مع الأولياء، فالبعض منَّا يُنْكِرُ هذه الولاية، وكأنَّنا نُريد من الله ﷻ أنْ يجعل لنا الأولياء علىٰ حسب عقولنا وما تشتهيه نفوسُنا.

والقضيَّة ليستْ هكذا، وهذا المقياس غير صحيح، بل هو مقياسٌ خاطئٌ، والحقيقة أنَّ مَن جمع بين الإيمان والتَّقوىٰ فهو وليٌّ، أعني الوِلاية العامَّة، وكلُّ مَن حقَّق الإيمان والتَّقوىٰ فله من الولاية قدر ذلك، ولكن هنالك ولاية خاصَّة بالذين جمعوا بين الحقيقة والشَّريعة، وسلكوا طريق المُتَّقين، وصحِبوا الصَّادقين في تقواهم، والله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

وسُئِل رسولُ الله ﷺ: مَن أولياء الله؟ فقال: «**الَّذِين إذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ**»[1]، وقد سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: يا رسولَ الله، أيُّ جلسائنا خير؟ قال: «**مَن يُذَكِّرُكُمْ اللهَ رُؤْيتُه، وزَادَ في عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَذَكَّرَكُمْ الآخِرَةَ عَمَلُهُ**»[2].

السُّؤال الثاني: كُلُّ مُؤمِن تقيٌّ هو لله وليٌّ، فما الدَّاعي لصحبة الأولياء المُتَّقين؟

الإجابة: إنَّ كُلَّ مؤمِن تقيٍّ هو وليٌّ لله من حيث الولاية العامَّة، وهذا أمر طبيعي، ولكن الولاية درجات، وهل التَّقوىٰ درجة واحدة؟ لا، بل التَّقوىٰ مراتب، فالتَّقوىٰ التي أوصلتْ الصِّدِّيقين إلىٰ مراتب الصِّدِّيقيَّة ليستْ كالتَّقوىٰ العامَّة، والمولىٰ تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، فهناك تقيٌّ وهناك أتقىٰ، فالتَّقيُّ يأخذ علىٰ مَن هو أتقىٰ منه. وهكذا تَتَسَلْسَلُ القضيَّةُ إلىٰ أتْقَىٰ الخَلْقِ جميعًا رسول الله ﷺ.

وأمَّا الدَّاعي إلىٰ صُحْبة أولياء الله فهو أنَّ هناك خبايا وشهواتٍ نَفْسِيَّة خَفِيَّة حتَّىٰ في الأعمال الخيرية نفسها، لا يستطيع الإنسانُ أنْ يتخلَّص منها لوحده إلاَّ

(1) رواه الحافظ أبو نعيم في حِلية الأولياء.

(2) رواه بهذا اللَّفظ البيهقي في شُعب الإيمان.

علىٰ أيدي المُرْشِدين والمُرَبِّين، فهم الذين يعرفون خفايا الأعمال ودسائس النُّفوس فيها، وكما قال البوصيري رَحِمَهُ اللهُ في قصيدة البُردة:

واخْشَ الدَّسَائِسَ مِن جُوعٍ ومِن شبَعٍ فَرُبَّ مَخْمَصَة شَرٌّ مِنَ التُّخَم

وهذا يعني أنَّ للنَّفْسِ مكائد في الجوع، كما أنَّ لها دسائس في الشِّبع، وللشَّيطان قُوَّة كبيرة يتسلَّط بها علىٰ الإنسان، وهو لا يأتي لكلِّ النَّاس علىٰ نمط واحد وبكيفية واحدة، فعندما يأتي للجاهل ليُوَسْوِس له وليوقِعَه في مصائده، فإنَّه يأتيه بكيفية تُناسِبُ جهله، وبالمقابل إذا أراد أنْ يُوقِع العالِمَ في حبائله، فإنَّه لا يستطيع أنْ يغويَه ويُضِلَّه كما أضلَّ الجاهل، بل يأتيه في صورة عالِم يحتجُّ بالقرآن والأحاديث، لكي يجذبَه إلىٰ الهلاك، فيتبعه دون أنْ يشعرَ، لأنَّ الشَّيطان وعد الله ﷻ بإغواء كلِّ النَّاس، ولم يستثن من ذلك إلا العباد المُخْلَصِين، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: 82، 83]. وكلمة المُخْلَصِين (بفتح اللاَّم) تختلف في المعنىٰ عن كلمة المُخْلِصين (بكسر اللاَّم)، فالمُخْلَصِين مرتبة فوق مرتبة المُخْلِصين.

السُّؤال الثّالث: ألا يكفي العِلْمَ وحده ليتعلَّم المرءُ ويصل إلىٰ مرتبة المُخْلِصين، ثُمَّ يتدرَّج إلىٰ أن يصيرَ من المُخْلَصين؟

الإجابة: إنَّنا قد قرأنا القرآن الكريم، وطالعنا التَّفاسير الكثيرة، ودرسنا الفقه، واتَّصلنا بالعلماء واستفدنا منهم، وأخذنا منهم العِلْمَ، ولكنَّ الإنسانَ يعترِف ويُقِرُّ بالحقيقة، فنحن عندما وفَّقنا الله ﷻ لصحبة العالم الربّاني والعارف بالله شيخنا الجليل سيِّدي عثمان (رحمه الله وجزاه عنَّا كلَّ خَيْرٍ)[1]، فوا لله العظيم لقد عرفنا أمورًا، وأدركنا حقائق لم نكن علىٰ عِلْم بها، رغم أنَّها موجودة في الكتاب والسُّنَّة، ولكنَّنا كنَّا محجوبين عنها، ولكن الله تبارك وتعالىٰ بفضله

(1) وهو الشَّيخ الجليل سيِّدي «عثمان بن الأخضر الحسنيِّ الشَّريف»، الذي كان يسكن بضواحي مدينة «حساني عبد الكريم» بولاية الوادي، وهو المربِّي الذي تتلمذ علىٰ يديه شيخنا الفاضل سيِّدي عليّ تابعيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتلقَّىٰ منه المعارف الصُّوفيَّة ونفحاتها. (جامع الكتاب ومدونه).

وجوده فتح لنا أبواب معرِفته ببركة صحبة شيخنا المبارك، واستفدنا منه ما لم نستفد من أيِّ أحد.

وهذا أمر نعترِف ونُقِرُّ به، لأنَّنا كنَّا مصاحبين لشيخنا سيِّدي عثمان، لله، وكنَّا نأخذ منه، وهذه شهادة نشهد بها، وهو الذي أكرمنا واعتنىٰ بنا، وبذلك نِلنا بصحبته المُنىٰ، فبالله لولا إكرامه لنا لم نكن لنتحصَّلَ علىٰ شيء، وكان الله يُدَرِّجنا للأمور بتيسير، لأنَّ الإنسانَ لا يحيط بشيء من عِلْمه إلا بما شاء.

إذن الله تبارك وتعالىٰ يَكِلُ الإنْسان إلىٰ نيَّته ويُوَلِّه ما تولَّىٰ، فالأمر الذي تتولاَّه أنت وتتعلَّق به يكِلُك الله إليه، وإذا أوْكَلَكَ اللهُ إلىٰ نفسك -والعياذ بالله- فإنَّك سَتُحْجَبُ بها وتُفْتن بها، والله ﷻ يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

ونحن نعتقد أنَّ الاقتداء برسول الله ﷺ محصور في حيِّزٍ صغير، وهذا غير صحيح، ويجب أنْ يكون هذا الإقتداء في نطاق العبادات والأحكام، وفي نطاق التَّصرُّفات والمعاملات الخاصَّة بالإنسان، ومن هنا ينبغي عليك أنْ تتذَكَّر دائمًا مضمون الآية الكريمة السَّابقة، وتجعلها نصْبَ عينيك عند وضوئك وصلاتك وعند كلِّ عبادة من عباداتك، وفي كلِّ حركاتك وسكناتك، وفي كلِّ معاملاتك وتصرُّفاتك.

السُّؤال الرّابع: لقد اعتاد مشايخ الصُّوفيَّة علىٰ مبايعة تلاميذهم عند الانتساب للطَّريق، فما أدِلَّة هذه المُبايعة من الكتاب والسُّنَّة؟

الإجابة: إنَّ أمور القوم لو تتبَّعْتَها خطوة خطوة تجدها مبنية كلَّها علىٰ الكتاب والسُّنَّة، سواء كان ذلك في الواجبات والسُّنن، أو في الفضائل والآداب، وكلُّ أمر مأخوذ من محلِّه، ففي مجال مبايعة الرِّجال أُذَكِّرُك بحديث رواه الإمام البخاري عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه وهو من الذين شهدوا بدرًا مع رسول الله ﷺ، ومن أصحابه ليلة العقبة، أخبر أنَّ رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «**تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ،**

وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّىٰ مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، قَالَ: فَبَايَعْتُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ»[1].

وقد كانت هذه المبايعة الجماعية غير المبايعة علىٰ الإسلام، كما بايع النَّبيُّ ﷺ بعض الصَّحابة فُرادىٰ، كما حدث مع سيِّدنا جرير بن عبد الله الذي قال: «بايعتُ رسول الله ﷺ علىٰ شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدا رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والسَّمع والطَّاعة، والنُّصْحِ لكلِّ مُسْلِم»[2]. وهذا فيما يخصُّ مبايعة الرِّجال، وأمَّا فيما يخصُّ مبايعة النِّساء فقد ورد في القرآن الكريم قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12].

وأمَّا الأدِلَّة علىٰ مبايعة النَّبيِّ ﷺ للنِّساء من السُّنَّة فكثيرة، نكتفي منها بحديث سلْمَىٰ بنت قيس، وكانت إحدىٰ خالات رسول الله ﷺ، وقد صلَّت معه القِبلتين، وكانت إحدىٰ نساء بني عدي بن النِّجار قالتْ: «جئتُ رسولَ الله ﷺ فبايعتُه في نِسوة من الأنصار، فلمَّا شرط علينا أنْ لا نُشْرِك بالله شيئًا، ولا نسرق ولا نزْني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببُهتان نفترِيه بين أيدينا وأرجُلِنا، ولا نعْصِيه في معروف، قال: ولا تَغُشُّشْن أزواجكُنَّ، قالت: فبايعناه ثُمَّ انصرفنا، فقلتُ لامرأة منهنَّ: ارْجعي فاسألِي رسولَ الله ﷺ: ما غشُّ أزواجِنا؟ قالتْ: فسألتْه، فقالَ: **تأخُذُ مالَه فتُحَابي به غيرَه**»[3].

فها هو النَّبيُّ ﷺ كان يُبايعُ الرِّجال والنِّساء علىٰ السَّواء، ويتبيَّن من هذا أنَّ

(1) رواه الإمام البخاري.

(2) رواه البخاري.

(3) رواه أحمد في مسنده والطّبراني في المعجم الكبير.

أمور السَّادة الصُّوفيَّة كلَّها مبنية علىٰ قواعد الكتاب والسُّنَّة، فإذا كان البعض منَّا لا يريد أن يفهم الكتاب والسُّنَّة كما هو مطلوب، فالذنْب ليس ذنْب القوم[1].

السُّؤال الخامس: لماذا يُسَمَّىٰ كلُّ من ينتسبُ إلىٰ القوم «فقيرًا» أو مُريدًا؟ وما سِرُّ هذه التَّسمية؟

الإجابة: إن كلمة «الفقير» مأخوذة من قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، فالذي سمَّىٰ النَّاس «فقراء» هو الله ﷻ، فالقوم طبَّقوا الآية الكريمة علىٰ أنفسهم، فتحقَّقُوا بفقرهم إلىٰ الله، إذْ لا قيام للعبد إلا بربِّه، والعبد مفتقِر إلىٰ مولاه إيجادًا وإمدادًا، والغِنَىٰ الحقيقي هو غنىٰ النَّفس بالله، ولذا قال الرَّسول ﷺ: «**ليسَ الغِنَىٰ عن كثْرَة العَرَضِ، ولكن الغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ**»[2]، وقد قال العارف بالله ابن عطاء الله رحمه الله في إحدىٰ حِكَمِه: «تحقَّق بأوصافِك يمدُّك بأوصافِه، تحقَّق بذُلِّك يمدُّك بعِزِّه، تحقَّق بعجْزِك يمدُّك بقُدرته، تحقَّق بضعْفِك يمدُّك بحوله وقُوَّته».

إذن هذا فيما يخصُّ كلمة «فقير»، أمَّا فيما يخصُّ كلمة «مُريد»، فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: 20]، والمُريد هو المتجرِّد عن الإرادة مع مولاه، أي لا إرادة له مع الله، لأنَّه علِم أنَّه لا يقع في الوجود إلا ما يريده الله تعالىٰ، والمُريد الحقيقيُّ لا يريد إلاَّ ما يريده الحقُّ ﷻ، وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ القوم الصُّوفيَّة بَنَوْا كلَّ أمورهم علىٰ قواعد الكتاب والسُّنَّة، فلا ينبغي علىٰ كلِّ مَن تعتريه حيرة في شأن من شؤونهم أنْ يتعجَّل في الحُكم عليهم، حتَّىٰ يتَّصل بهم ليدلُّوه علىٰ أصله وحقيقته.

---

(1) وهنا يبتسم الشيخ الجليل علي تابعي. (جامع الكتاب ومدونه).

(2) رواه البخاري ومُسلم والتِّرمذي وغيرهم.

الحِوار الثَّامن

مع المُسْتَفْسِرينَ بزاوية «مشماشة» ولاية الطَّارف

بعد تلاوة مباركة عطرة لأحد المُقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: 107-110]، فتح الشَّيخ الجليل رضي الله عنه للحاضرين باب الأسئلة، فكان السؤال التَّالي من أحد الحاضرين، والذي أجاب عليه سماحته مزيلا كلِّ التباس يتعلَّقُ بمفهوم الطَّريق ومبادئها.

❁ ❁ ❁

السُّؤال: ما هي حقيقة الانتساب إلىٰ أيَّة طريقة من الطُّرق الموصلة إلىٰ الله؟ وما هي الغاية من صحبة مشايخ التَّربية والسُّلوك؟

الإجابة: الملاحظ أنَّ الكثير من النَّاس يفهمون من قضيَّة الطَّريق أنَّها مجرَّد انتساب، أي كون الإنسان أنَّه ينتسب إلىٰ طريقة ما كالطَّريقة التِّيجانيَّة أو الرَّحمانيَّة أو القادريَّة أو العلويَّة أو غيرها من الطُّرق، ويكتفي في حياته بمجرَّد الانتساب، وكأنَّ هذه الطَّريق مبنية علىٰ أساس مُعيَّن خاصٍّ، أو اسم شخص مُعيَّن، وهذا خطأ فادح يتخبَّط فيه البعض من أهل النِّسبة مع الأسف، وللنَّفْس مخادع كثيرة في هذا الميدان، وللشَّيطان مداخل كبيرة، لأنَّه قال للحقِّ ﷻ كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16].

والصِّراط المستقيم هو الطَّريق الموصل إلىٰ معرفة الله، وقد يربط الشَّيطان شخصا ما بنسبة معيَّنة، ويقول له: إيَّاك أنْ تخرجَ من هذه النِّسبة فتهلك، وكأنَّ الطَّريق مبنية علىٰ النِّسبة إلىٰ الشَّيخ المربّي هذا أو ذاك من مشايخ التربية. والحقيقة

أنَّ الطَّريقة بالمفهوم الصَّحيح ليست انتسابًا لأشخاص مُعيَّنين، بل اسمها الطَّريق إلىٰ الله، وليست الطَّريق إلىٰ فلان أو فلان.

إذن الطَّريق إلىٰ الله هي الطَّريق التي تسلكها من أوَّل خطوة وغايتك وهدفك منها الوصول إلىٰ معرفة الله، وما الشَّيخ المربّي في هذه الطَّريق إلاَّ عبارة علىٰ دليل يُريك المضارَّ والمنافع، ويُجنِّبك الأخطاء ويُبعِدك عنها، وأمَّا السَّير فأنت الذي تسير في الطَّريق، والشَّيخ المربّي يُدَرِّبك علىٰ هذا السَّير، فأنت السَّالك، وهو المراقب لك في السُّلوك، فكلَّما يُريد الشَّيطان أنْ يقعدَ لك في طريقك يُنبِّهك الشَّيخ ويقول لك: احذر فإنَّ الشَّيطان لك بالمرصاد يريد أنْ يغويك، وكلَّما حاولت النَّفس أنْ تُلَبِّسَ عليك الأمور، وتدسَّ لك دسيسة ما، يُنبِّهُك الشَّيخ ويُحذِّرك من أنَّ القضيَّة مرادة من نفْسِك.

والنَّفس تنصح صاحبها ولكنَّها تغشُّه في تلك النَّصيحة، ومن النَّصيحة التي تُسديها لك لكي تُبعدك عن ربِّك هي التعلُّق بنسبة ما، فتقبَل أنت هذه النَّصيحة وتقول: أنا منسوب إلىٰ الطَّريقة الفلانيَّة، ولن أفارق هذه النِّسبة أبدًا، وكأنَّ النِّسبة هي المطلوبة في الأساس، وكأنَّ الشَّيخ المربّي الذي سُمِّيتْ باسمه الطَّريق هو المقصود، وتظنُّ في نفسك أنَّك عندما تأخذ الطَّريق علىٰ شيخ حيٍّ لتُحَقِّق نسبتك إلىٰ الله قد خُنْتَ العهد مع شيخك الذي كنت مريدًا له في حياته، وهذا خطأ فادح وهذه دسيسة من دسائس النَّفْس، ومكيدة من مكائد الشَّيطان، ولُعبة من ألاعيبه.

لأنَّ مراده أنْ يُقيمَك في الانتساب، ولكن يُحْرِمك من السُّلوك ومِن الوصول إلىٰ معرفة الله، لأنَّك عندما تعرف ربَّك تتفطَّن لمكائد الشَّيطان، وستعتصِمُ بمولاك منه، لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 65]، وقوله عبادي أي مَن تحقَّقتْ فيهم العبودية لله، فأصبحوا لعبوديتهم هذه مُحَصَّنِينَ من الشَّيطان، ولا يستطيع أنْ يقرب منهم، فإذا قرب منهم أصبح لهم مُوَجِّهًا ومُرشِدًا، ولذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، فشيطانهم هو دليلهم، وكان

ولم يزل الله ﷻ يمنع عنهم الشَّيطان فلا يُضِلُّهم لصِدقهم التَّامِّ مع مولاهم وعبوديتهم الخالِصة له.

وهؤلاء هم الذين اختصَّهم الحقُّ ﷻ بهذه العبودية، وتحقَّقتْ فيهم بحيث لا يمكن للشَّيطان أنْ يدنو منهم، فإذا أراد أنْ يُوَسْوِسَ لهم فوَسْوَسَتُه تعود عليهم بالهِداية والإرشاد، وترجع بهم إلىٰ الحقِّ ﷻ، لأنَّ الصِّدْق مع الله ﷻ يجعل من الشَّيطان كأنَّه مَلَكٌ، وقد وقعتْ هذه القضيَّة مع سيِّدنا أبي هريرة رضي الله عنه، فعنه قال: «وكَّلني رسول الله ﷺ بحِفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعلَ يحثُو من الطَّعام فأخذتُه وقلتُ: والله لأرفعنَّك إلىٰ رسول الله ﷺ، قال: إنِّي محتاج وعلي عِيال ولي حاجة شديدة، قال: فخلَّيتُ عنه فأصبحتُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: **يا أبا هريرة ما فعلَ أسيرُك البارحة؟** قال: قلتُ: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحِمْتُه فخلَّيتُ سبيله، قال: **أما إنَّه قد كذبك وسيعود**، فعرفتُ أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنَّه سيعود، فرصدتُه، فجاء يحثو من الطَّعام فأخذتُه فقلتُ: لأرفعنَّك إلىٰ رسول الله ﷺ قال: دعْني فإنِّي محتاج وعلي عيال لا أعود، فرحِمْتُه فخلَّيتُ سبيله، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: **يا أبا هريرة ما فعل أسيرُك؟** قلتُ: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحِمْتُه فخلَّيتُ سبيله، قال: **أما إنَّه قد كذبك وسيعود**، فرصدتُه الثَّالثة فجاء يحثو من الطَّعام فأخذتُه فقلت: لأرفعنَّك إلىٰ رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرَّات أنَّك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: **دعني أعلِّمك كلمات ينفعك الله بها**، قلتُ: ما هو؟ قال: **إذا أويتَ إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكُرسيِّ** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ **حتَّىٰ تختِم الآية، فإنَّك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنَّك شيطان حتَّىٰ تصبح**، فخلّيتُ سبيله فأصبحتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: **ما فعل أسيرُك البارحة؟** قلتُ: يا رسولَ الله زعم أنَّه يُعلِّمني كلمات ينفعني الله بها فخلَّيتُ سبيله، قال: **ما هي؟** قلتُ: قال لي: **إذا أويتَ إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكُرسيِّ من أوَّلها حتىٰ تختِم الآية** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، وقال لي: **لن يزال عليك مِن الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتَّىٰ تُصْبِحَ،**

وكانوا أحرص شيء علىٰ الخير، فقال النَّبيُّ ﷺ: **أما إنَّه قد صدقك وهو كذوب، تَعْلَمُ مَن تخاطِبُ منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة، قال: لا، قال: ذاك شيطان»**[1].

أنظر إلىٰ صِدْق سيِّدنا أبي هريرة رضي الله عنه مع الله بحيث أصبح الشَّيطان ناصحًا له، وهذه النَّتيجة ليست خاصَّة بهذا الصَّحابيِّ الجليل، بل هي لكلِّ مَن صدق مع ربِّه وحقَّق في نفسه العبودية لله ﷻ الذي خاطب الشَّيطان بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 42].

وقد يقول القائل: وهل نحن عباد لله، أم لسنا عبادًا له؟ وكلٌّ منَّا إذا سُئِل لمن أنت عبد؟ يقول: أنا عبد لله، ولكن هذه العبودية العامَّة، وأما العبودية المذكورة في هذه الآية فهي عبودية خاصَّة بقوم اختصَّهم الله ﷻ واصطنعهم لنَفْسِه فوصلوا إلىٰ درجة أنَّه لم يُصبِح للشَّيطان عليهم سلطان، ودخلوا تحت قول الحقِّ جلَّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]. ما ذا يبصِرون؟ يبصِرون الحقَّ والحقيقة.

وهذا يعني أنَّ الشَّيطان يكون وسيلة لكي يُوقظهم من الغفلة، والشَّيطان يتربَّص بالذين يسيرون علىٰ الصِّراط المستقيم، لأنَّه قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16]، وهذا يُبيِّن أنَّ الشَّيطان هدفه الذين هم علىٰ الصِّراط المستقيم، ومُهمَّته تتعلَّق بالطَّريق الموصِلة إلىٰ الله ﷻ، فيأتي لكلِّ من سلك الطَّريق المستقيم، ويكيدُ له كيدًا، ويُلَبِّسُ عليه أمره، ويُشغِله بالتَّوافه لكي يضيع له الوقت، ويبقىٰ في التَّمنِّي والتَّسويف، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**الكيِّسُ مَن دانَ نفْسَه، وعَمِلَ لِمَا بعد الموتِ، والعاجزُ من أتبع نفْسه هواها، وتمنَّىٰ علىٰ الله**»[2].

وقال العالم الصالح ابن عطاء الله رحمه الله في إحْدىٰ حِكَمه: «الرَّجاءُ ما قارنَه العملُ، وإلاَّ فهو أمْنِية». والتَّسويف مَضيعة للوقت، وخسارة للعُمر، والسُّلوك في طريق الله فُرصة ثمينة لا تُعَوَضُ، وفي حياتنا كثير من الصَّالحين المُرشِدين ومِن

(1) رواه البخاري.

(2) رواه التِّرمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم.

المُربِّين العارفين رحلوا عنَّا ولم ينتبه إليهم النَّاس، ولم يستفيدوا منهم، والسَّبب في ذلك هو التَّعصُّب الأعمىٰ لطريقة ما، واكتفاء البعض بالانتساب إلىٰ نسبة معينة بالاسم دون التَّحقُّق بأهداف الطَّريق المنشودة وغاياتها المقصودة.

فإذا دخلتَ علىٰ باب أيِّ شيخ من المُربِّين فالأمر المُهِمُّ هو إلىٰ أين وصلتَ في السُّلوك؟ وعلىٰ ماذا تحصَّلتَ؟ وهل وصلتَ إلىٰ غاية الطَّريق وهي معرفة الله، أم أنَّك ما زلتَ لم تتحصَّل علىٰ ثمار التَّربية والسُّلوك؟ وكلُّ مَن يبتدئُ السَّير والسُّلوك في طريق ما فلا بدَّ له من نهاية، ولتبحثْ عن نهايتك التي انتهيتَ إليها في سيرك في الطَّريق التي انتسبتَ إليها، وإذا قلتَ: إنِّي أحِبُّ الشَّيخ المربّي الفُلاني وأنت لا تتَّبِعه، فهذا يُعَدُّ كذِبًا، لأنَّك أحببتَ عارفًا بربِّه ولم تسلكْ نفْس الطَّريق التي سلكها، لأنَّ من شروط المحبَّة المُتابعة، والمحبَّة ليستْ كلاما يُقال، بل هي حقائق تُعايش، وإتِّباع مُستمر لمن تُحِبُّه، واقتداء تامٌّ به، وهذا ما ذكره القرآن الكريم في قصَّة سيِّدنا نوح عليه السلام حين دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: 45]، فأجابه الحقُّ جلَّ جلاله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: 46].

وما معنىٰ ليس من أهلك؟ هل يعني أنَّه ليس ولد صُلْبه؟ لا، ولكن معناه أنَّه ليس ولد المتابعة، لأنَّه لم يتَّبِعْك، وأولادك أنت كنبيٍّ هو كل من اتَّبعك واهتدىٰ بهداك، وسار علىٰ منوالك، ومَن لم يكن علىٰ هذه الحالة فهو ليس بابنك ولو كان من صُلْبك، والمقصود في هذه الآية بالأهل أهله الذين اتَّبعوه وتربوا علىٰ يديه تربية ربَّانِيةً.

إذن كلُّ مَن يعتقدُ أنَّه يحبُّ أحدًا من الأولياء ولم يسلكْ طريقه فليس بصادق في هذه المحبَّة، والطَّريق ليستْ هي الشَّكليات من الاجتماعات والسَّماع، بل هذه وسائل، ولا تُعَدُّ غايات، وقد تتحوَّل الشَّكليات أحيانًا إلىٰ غير الهدف الذي وُضِعتْ من أجله، فيُصبِح السَّماعُ عادةً، وهل الذين وضعوا السَّماع وكتبوا القصائد كان هدفهم مجرَّد السَّماع وإنشاد القصائد والتَّرَنُّم بها فقط؟ لا، فهذا المفهوم خاطئ، وغير صحيح.

وفي بعض الأحيان تأخذ القضيَّة مجرىٰ آخر، فالمُسَمِّع الذي له صوت شجيٌّ يدخله العُجْبُ ويعجُبه صوته، فيصبحُ السَّماع مجرَّد غناء يطرب له السَّامعون وكفىٰ، ومِن هنا يخرج السَّماع عن الهدف الشَّريف الذي وضعه أهله من أجله، وهذا السَّماع مملوء بالمعارف ومشحون بالمفاهيم الربَّانيَّة، اتَّخذه أهله للتَّفريج علىٰ ما في قلوبهم من المعارف، ويُرَوِّحُون به علىٰ ما في صدورهم من الأشواق والمحبَّة، ولهذا يقول العالم الربّاني الشَّيخ العلاوي رضي الله عنه:

يا حَادِيَ القَوْمِ باللهِ يا حَادِي رَوِّحْ بينهُم واجعلْ نظْرك لي

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ هذه الأمور الربَّانيَّة يجب أنْ نتركها في قالبها الذي وُضِعتْ من أجله، فإذا تحوَّلتْ إلىٰ شكليات وعادات فقد خرجتْ عن مسارها الحقيقيِّ ومجراها الطَّبيعي، لأنَّ السَّادات جعلوا للسَّماع أهدافًا نبيلة، وقد يستغنون عنه نهائيًّا، لأنَّ وجدَهم صار فيهم، وأمَّا السَّماع فيحتاجه الضُّعفاء الذين يتواجدون له، ويُرَوِّحون به علىٰ قلوبهم، وأمَّا الأقوياء فوجْدُهم دائم وحضورهم مع الله مُستمرٌّ لا ينقطع.

إنَّ مثل هذا الكلام يُخاطَب به من أراد سلوك الطَّريق، وأمَّا الذي يريد التَّبرُّك بالقوم فهذا له كلام آخر يخصُّه، والهدف الأعلىٰ من صحبة أهل الله والمُربِّين العارفين هو السُّلوك للوصول إلىٰ معرفة الله، ولكلِّ طريق بداية ونهاية، فبدايتها أخذك العهد من شيخ التَّربية، وتسليم النَّفْس إليه والامتثالُ لأمره، وعدمُ مخالفته في الظَّاهر والباطن، وفي السرِّ والعَلَن، لأنَّك إذا سلكتَ الطَّريق لوحدك قد تدخلُ عليك النَّفْس بشهواتها وحظوظها، ويُضِلُّك الشَّيطان بألاعيبه ومكائده وأنتَ لا تشعر بذلك، فيأتي هنا دور الشَّيخ المربّي ليُصَحِّحَ لك المسارات، ويقيك شرور نفْسك وهواك ويُبصِّرك بعيوبك، ويُحذِّرك مِن المهالك، فأستاذك هو حِصْنك الحصين، ودليلك في سلوك الطَّريق المبين، وقد قال الرَّسولُ ﷺ: «**التَمِسُوا الجارَ قبل الدَّارِ، والرَّفيقَ قَبْلَ الطَّريقِ**»[1].

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير.

فالشَّيخ المربّي هو دليلك في سلوك الطَّريق، ورفيقك فيها ليوصِلك إلىٰ التَّحقيق، فإذا بقيتَ معه لمجرَّد الانتساب، فهل أنتَ مُنتَسِب إليه؟ لا، لأنَّ هذه النِّسبة لها منهج، وكلُّ مَن انتسبَ إليها ولم يسلكْ منهجها فلا علاقة له بها، حتَّىٰ ولو ادَّعىٰ محبَّة الشَّيخ المربّي، لأنَّ التَّابع جزء من المتبوع، فإذا أنتَ لم تتَّبع الشَّيخ المربّي، ولم تقتد به، ولم تسلك منهجه، فأين جزئيتك مِن كلِّ ذلك؟ ليس لك من ذلك شيء، فما هي حقيقة انتسابك إلىٰ الطَّريق؟ وما هي ثمرة صحبتك للشَّيخ المربّي؟

إنَّ الغايةَ من سلوك طريق التَّربية هو الوصول إلىٰ معرفة الله عزّ وجلَّ، وأنتَ لم تصلْ إلىٰ تلك المعرفة، ولا تعرف كيف تصلُ إلىٰ ذلك، فهل يكفيك مجرَّد الانتساب لأي شيخ من مشايخ التَّربية والسُّلوك؟ لا، أبدًا، ولو تبقىٰ إلىٰ أبد الآبدين وأنت تعتقد في هذا الأمر وتقدِّس ذلك الشَّيخ، فلن تتحصَّل علىٰ ثمرة التَّربية والسُّلوك إلاَّ إذا صحبتَ شيخًا مُربِّيًا حيًّا، وتسلك منهجه وتقتدي به في سيْرك وسلوكك، وإلاَّ ستبقىٰ من معرفة الله محرومًا، وهذا هو الحقُّ الذي ذَكَرَهُ كلُّ العارفين بالله، فقد قال العارف بالله الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه:

إذا ساعدكَ المقْدورُ أو ساقك القَضا إلىٰ شيخ حقٍّ في الحقيقة بارعُ
فقُمْ في رِضاه واتَّبِع لمُراده ودَعْ كلَّما كنتَ من قبلُ تصانِعُ
وكنْ عنده كالميّت عند مُغَسِّل يقَلِّبه كيفما شاء وهُو مطاوعُ

إذن كلُّ مشايخ التَّربية والعارِفين بالله نصحوا مُريديهم بالأخْذ عن الشَّيخ المُربِّي الحيِّ، لأنَّ الغُلُوَ في كلِّ شيء ليس أمرًا محمودًا، والإفراط في المحبَّة والغُلُو فيها لدرجة أنَّها تصبِح حجابًا عن الحقِّ ليستْ محبَّة صحيحة، بل هي محبَّة زائفة، لأنَّها تحجب صاحبها عن الله، وكلُّ ما يحجب عن الحقّ ﷻ زيْفٌ وضلال.

وهذا ليس معناه أنَّني لا أحترم شيخي المربّي الذي انتقل إلىٰ جوار ربِّه، بل أحترم كلَّ الصَّالحين، فالشيخ بمثابة أبي، وكلُّ شيخ من مشايخ التربية الآخرين

أُعِدُّهُ بمثابة عمِّي، فينبغي عليَّ أنْ أحِبَّ أبي، وأحترِم عمِّي، ولكن لا ينبغي للمريد أنْ تكون محبَّة شيخه المربّي الذي تُوفِي حجابًا يحجبه عن السَّير في الطَّريق، ويمنعه من الانتقال إلىٰ صحبة الشَّيخ المُربِّي الحيِّ للأخذ عليه والتَّربية علىٰ يديه طلبًا للوصول إلىٰ معرفة الله ﷻ.

ومن هذا المنطلق ينبغي علىٰ من مات شيخه، ولم يصِل في حياته إلىٰ معرفة الله ﷻ أنْ ينتقلَ فورًا إلىٰ صحبة المُربِّي الحيِّ ويأخذ عنه، وبهذا أوْصَىٰ كلُّ المُرَبِّين تلاميذهم، ومَن لم يفعل ذلك فقد خالف شيخه، ولم يعملْ بوصيته بعد وفاته.

وفي هذا القدْر كفاية، وإلىٰ لقاء آخر إنْ شاء الله.

obeikandl.com

الحِوار التَّاسع

في مدينة بسكرة حول منهج التَّربية والسُّلوك[1]

تمّ هذا اللِّقاء السَّعيد المبارك بين فضيلة الشَّيخ الكريم والوفد المرافق له وبين مريدي وأحباب وضيوف الطَّريقة التَّابعيَّة المباركة الميمونة، وبعد تلاوة عطِرة مباركة للآيات الكريمة التّالية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: 57-59]، وبعد الانتهاء من قراءة المولد للبرزنجي[2]، قال شيخنا الفاضل رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا، **أما بعد**:

أيُّها السَّادة الحاضرون مَن كان له منكم سؤالاً أو استفسارًا حول موضوع التَّربية الرُّوحيَّة والسُّلوك فليتفضَّل، فإنَّ باب الأسئلة مفتوح.

السُّؤال الأول: سيِّدي الشَّيخ المحترم، ما هي حقيقة الاستغاثة؟ وما حُكْمُها الشَّرعيُّ؟

الإجابة: الاستغاثة وسيلة، واتِّخاذ الوسيلة في الحياة ضروريٌّ لا يستطيع الإنسان أنْ يتخلَّىٰ عنه، فهَبْ مثلاً أنَّك سقطتَ في حفرة أثناء سيرك في الطَّريق،

(1) جرىٰ هذا الحوار بتاريخ 11 جوان 2004، في منزل أحد مقاديم الطريقة التّابعيّة بولاية بسكرة السيد محمّد خزّاني.

(2) هو جعفر البرزنجي صاحب «المولد النَّبويِّ»المعروف، والذي جمع فيه سيرة مختصرة للمصطفىٰ ﷺ. (جامع الكتاب).

ولم تقدِر علىٰ الخلاص لوحدك، فهل تستغيث أم لا؟ لاشكَّ أنَّك ستستغيث بأيِّ أحد كان ليُنقِذك من هذه الورطة التي وقعتَ فيها ولكنَّك في داخلك تعتقد بأنَّ استغاثتك الحقيقيَّة هي استغاثة بالله ﷻ، وأنَّ الشَّخص الذي أنقذك ممَّا أنت فيه إنَّما سخَّره الله ﷻ لك، وهذا العمل الذي قام به مَنْ كان سببًا في خلاصك مطلوب منه شرعًا وواجب عليه وفرض عَيْنٍ في حقِّه، ليُنقِذك ممَّا أنت فيه، وافرض أنَّ البلدة لا قدَّر الله وقع فيها حريق، ولم يستطع عمَّال البلدية إطفاءه، فماذا يترتَّب علينا؟ يترتَّب علينا جميعًا عندما يُستغاث بنا المبادرة والخروج للمساعدة علىٰ إطفاء هذا الحريق، وإذا لم نُلَبِّ دعوة المُستَغِيثين كنَّا من الآثمين وحقَّت علينا العقوبة.

إذن الاستغاثة عبارة عن وسيلة، فلو وقعتَ غريقًا في البحر، فهل تستسلِم للغرق أم تستغيث بأيِّ أحد ليُنقِذك من هذا الغرق؟ إنَّ الواجب عليك حتمًا أنْ تستغيثَ بمن يُخلِّصك من مِحنتك هذه، ولكن يجب عليك أنْ تعتقدَ أنَّ الله هو الذي أغاثك حيث سخَّر لك الشَّخص الذي أنقذك من الهلاك وأخرجك من البحر، ولولا إرادة الله ما وقع لك كلُّ ذلك، ولا بدَّ عليك من أنْ تُفرِّق بين الخَلْقِ والخالِق، والله ﷻ أجرىٰ النَّفع للنَّاس علىٰ أيدي بعضهم البعض، وسخَّر النَّاس لخدمة بعضهم البعض، ولذا قال الله ﷻ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 32]، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «... **وخيرُ النَّاس أنفعُهم للنَّاس**»[1].

ونحن نقول إنَّ الله هو النَّافعُ والضَّارُّ، وهذا الكلام صحيح عقائديًّا، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ يعني أنَّ التعاون الموجود بين النَّاس من التَّكامل، فأنا أنفعك بشيء وأنت تنفعني بشيء آخر، فالنَّفع والضُّرُّ لا يكون إلاَّ مِن الله، ولكن كلَّ ذلك يكون عن طريق الخَلْقِ، ولا يمكن لأحد أنْ يستغنيَ عن غيره.

(1) رواه الطَّبراني في المعجم الأوسط.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الاستغاثةَ وسيلةٌ، والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35]، والوسيلة تكون في كلِّ أمر من الأمور وفي جميع الميادين، ولكنَّ المُنكرين يُحبُّون أنْ يوقِعوا النَّاس في الأخطاء، ويريدون تكفير العامَّة بالبديهيات المعروفة، فكلُّ مُسْلِم يعرِف أنَّ الضَّارَّ والنَّافع هو اللهُ، والمُغِيثَ الحقيقيَّ هو الله، والعَجَبُ أنَّ الذي يُنْكِر قضية الاستغاثة لو وقع في أزمة عائليَّة أو ماليَّة لاستغاثَ، لأنَّ الحياة مُرتبطة ببعضها، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**إنَّما الدِّين المعاملةُ**»، كما ورد عنه ﷺ في الحديث، فالاستغاثة تدخل ضمن معاملة النَّاس بعضهم لبعض، ونفع أحدِهم للآخر.

ولكنَّ المُسلِمَ يعتقد اعتقادًا جازمًا أنَّ النَّافعَ والضَّارَّ هو الله، وأنَّ الله هو الذي أجرىٰ النَّفع للإنسان علىٰ يد طبيب مثلاً أو غيره من النَّاس، لأنَّنا لو قلنا مثل قول هؤلاء المُنتقِدين لتعطَّلتْ مصالحُنا وكلُّ شؤوننا، وهذا غير مُمكن، فمثلاً لو أردتَ أن تبني دارًا، فهل تبقىٰ مكتوف اليدين ولا تستعين بغيرك، وتدعو الله قائلاً: يا ربّ ابن لي بيتًا؟ لا، إنَّ هذا الأمرَ غير معقول، لأنَّ الله ﷻ سخَّر لك البنَّاء ليبني لك بيتك، فامضِ عنده والتجئ إليه، وهكذا دواليك، فإن أردتَ أن تخيطَ ثوبًا فلا بدَّ لك من أن تقصِدَ خيَّاطًا وتضطرَّ إليه لينتفعَ بك وتنتفِعَ به، وهل يجوز لك أنْ تدعو الله وتقول: يا ربّ أَخِطْ لي ثوبًا؟ لا، لأنَّ هناك خيَّاطين قد علَّمهم الله ﷻ مِهنة الخياطة لينتفِع بهم النَّاس وينتفعون هم كذلك، وهذا يدخل في قِسمة الرِّزق، والحقُّ ﷻ يقولُ: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزخرف: 32].

وهكذا ينتفِع النَّاسُ بعضهم ببعض، ولكن النَّافعَ الحقيقي هو الله الذي سخَّر النَّاس لبعضهم البعض، والله ﷻ هو الذي يضطرُّك للنَّاس، ولو رفضتَ الأمور التي اضطرَّك الله إليها لما انتفعتَ بشيء، وعلىٰ هذا الأساس يجب أنْ يسودَ بين أفراد المجتمع التَّواضع والتَّآخي والتَّحابب، وعلىٰ كلِّ إنسان أنْ يعامل غيره من النَّاس ولو كان كافرًا بالاحترام والمودَّة والمحبَّة ما دام لا يُخرجك من وطنك ومن

بيتك ولا يحاربك، لأنَّك تجد فيه نفْعًا، ويجد هو فيك النَّفع أيضًا، وهذا الأمر ضروريٌّ، والحياة مرتَّبة من الله ﷻ وفْق هذا التَّرتيب، ولا يستطيع أحد أنْ يُغيِّرَ ترتيب الحقِّ ﷻ.

وهكذا قضىٰ الله الأمور ورتَّبها ترتيبًا مُحْكمًا، وكلٌّ يخدم الآخر، وليس هناك مخدوم وخادم، ولكنَّ الحقَّ ﷻ سخَّر النَّاس بعضهم لبعضٍ، ليتمَّ بينهم التَّعاون، ويحصل بينهم التَّكامل، وهؤلاء الذين يُنْكِرون الوسيلة يعتقدون أنَّهم سيعلِّمون النَّاسَ التَّوحيد، ولكنَّهم في الحقيقة يُدخلون الشَّكَّ في عقائد المُسلِمين، ويُشوشون عليهم أمور دينهم بنشر أفكار لا يمكن أنْ تتسرَّبَ إلىٰ عقيدة المؤمِنين، لأنَّ هناك أمورًا بديهية معروفة عند سائر أمَّة الإسلام قاطبة، فلو قلتَ لأحدهم: كيف أصلح لك الخيَّاط هذا الثَّوب؟ لقال لك: إنَّ الله ﷻ سخَّر لي هذا الخيَّاط فأصلح لي هذا الثَّوب، وقد سخَّرني ربِّي لهذا الخيّاَط فأعطيتُه الثَّمن.

لقد رتَّب الله ﷻ الحكيم العليم الكَوْنَ ترتيبًا مُحْكَمًا، وسخَّر الخَلْقَ بعضهم لبعض، وأجرىٰ علىٰ أيديهم النَّفع، فكلٌّ ينتفع بالآخر، وقد يعتقد الإنسان أنَّه يعمل لأجل نفْسِه وأولاده وأهله ويجمع لهم الأموال، ولكنَّه في الحقيقة مُسخَّرٌ لخدمة غيره وإن لم يشعر بذلك، وقد جعل الله ﷻ في مالك للمال علىٰ سبيل المِثال نصيبًا لبائع الخُضر، ونصيبًا آخر للجزَّار، وثالثًا للطَّبيب، وهكذا سخَّرك الله ﷻ لخِدمة غيرك، وأمرك أنْ تردَّ الأمانات إلىٰ أهلها، لأنَّ الحقَّ ﷻ رتَّب الكَوْنَ علىٰ هذا الأساس، ولا يمكننا أنْ نغيِّر السُّنن الكونيَّة.

فالله ﷻ أجرىٰ المنافع للنَّاس عن طريق بعضهم البعض، ومِن حقِّنا أنْ نشكرَ هذا الذي جلب لنا المولىٰ تبارك وتعالىٰ النَّفع والخَيْر علىٰ يديه، وينبغي علينا التَّأدُّبُ معه ومحبَّتُه والعطفُ عليه والتَّعاون معه علىٰ فِعل البرِّ والخيْر وبذل الشُّكر له، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَن لمْ يشكُر النَّاسَ لمْ يشكُر اللهَ**»[1].

(1) رواه التِّرمذي وأحمد والطَّبراني وغيرهم.

إذن إنَّ اتِّخاذَ الوسيلة أمرٌ ضروريٌّ في الحياة، وهذه القضيَّة تُعَدُّ من البديهيات، وهكذا جرتْ سنَّة الله ﷻ في كَوْنِهِ، فسخَّرَ الخَلْقَ بعضهم لبعض، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «... **وإذا استعنْتَ فاستعِنْ بالله** ...»[1]، فمثلاً إذا كان عندي كيس من الدَّقيق لم أستطع حمله لوحدي، فهل أجلس في مكاني مكتوف اليديْن وأدعو الله قائلاً: يا ربّ ارفع لي هذا الكيس؟ وهل يُعقَل هذا الكلام؟ لا، هذا غير معقول، بل الواجب عليَّ أن أستعينَ بأحد من النَّاس لحمْل هذا الكيس، وأعطيه أجرة علىٰ خِدمته التي أسداها إليَّ، وأشكره علىٰ سعيِّه، ولكنَّني في داخلي وفي عقيدتي أعلمُ بأنَّ الله ﷻ هو الذي أخذ بيدي وأنجدني، وسخَّر لي عبدًا من عباده وجعله لي عونًا.

السُّؤال الثاني: ما هو مفهوم الطَّريقة في الإسلام؟ وماذا يجب علىٰ مَن لم يجدْ الشَّيخ المُربِّي؟ وما هو الهدف من الانتساب إلىٰ طريقة ما من طرق التَّصوَّف؟

الإجابة: إنَّ أيَّ طريقة سواء كانت تيجانيَّة أو قادريَّة أو تابعيَّة أو غيرها في الأصل ميراث نبويٌّ من الشَّيخ المربّي إلىٰ رسول الله ﷺ، وهذا ما يُعْرَفُ بالسَّند الرُّوحيِّ عند القوم، وليستْ هناك طريقة بلا سَنَدٍ روحيٍّ، وأمَّا الميراث العائلي في طريق التَّربية الرّوحية فلا يصِحُّ، وإذا تُوفي الشَّيخ المُربِّي الذي كان يتصدَّر تربية المُريدين، فليس من الواجب المُحَتَّم أنْ يكون خليفته أحد أفراد عائلته كابنه أو أخيه أو عمِّه إلاَّ من جهة المحافظة علىٰ مصالح الزَّاوية والتَّكفُّل بشؤونها.

وأمَّا تنصيب أحد ما ليُشرِفَ علىٰ التَّربية الرُّوحيَّة عن طريق الميراث العائلي فقط فلا أصل له البتَّة، وكيف يُربِّي النَّاسَ مَن لم يَتَرَبَّ علىٰ يد غيره من المشايخ، ولم يسلُكْ طريق التَّربية الرُّوحيَّة علىٰ أيديهم؟ لا يُمكن ذلك، لأنَّ الذي يليق لتربية غيره هو الذي صحِب الشَّيخ المربّي ولازمه، وتربَّىٰ علىٰ يديه وأذِن له في حياته بالتَّربية.

(1) رواه التِّرمذي وأحمد والحاكم والطَّبراني والبيهقي وغيرهم.

وللشَّيخ أولاد روحيُّون من أماكن مختلفة ومن قبائل شتَّىٰ، فالذي يرىٰ فيه الأهلية للتَّربية يأذن له بذلك، لأنَّه ليس للشَّيخ التَّميِّز العنصري أو حمية الجاهلية، والمعروف في الجِسِّيَّات وفي الأبوَّة الطِّينيَّة أنَّ من لم تصِحْ نسبتُه إلىٰ أبيه فلا ميراث له، وكذلك الأمر في الجانب الرُّوحيِّ، فكلُّ مَن لم يتربَّ علىٰ يد شيخ التَّربية ويصل إلىٰ معرفة الله ﷻ في حياة شيخه فهو ليس بوارث، ولا يكون أهلا ليتولَّىٰ تربية المُريدين، وهذا هو الأصل في الميراث النَّبويِّ الرُّوحيِّ.

وأمَّا من لم يجد شيخ التَّربية العارف بالله بعد البحث عنه، فينبغي له حتَّىٰ لا يضيع أنْ يأخذ الطَّريق علىٰ يد شيخ من مشايخ التَّبرُّك، ويُلزِمَ نَفْسَهُ بتوجيهاته، ويتعلَّمَ منه بعض الأخلاقيات، فهذا خير للمُريد من أنْ يبقىٰ بدون شيخ، لأنَّ القوم يقولون: من لا شيخ له فشيخه الشَّيطان، غير أنَّ هذا المُريد الذي صحِب شيخ التَّبرُّك وأخذ عنه يجب عليه أنْ يبحثَ عن الشَّيخ المُربِّي العارف بالله، فإن عثر عليه فليرحل سريعًا إليه، ويأخذ عنه، ولا يتشبَّث بشيخ التَّبرُّك.

وهذا لا يُعَدُّ تعدِّيًا علىٰ منهج الطَّريق، أو خروجًا علىٰ أصل من أصولها، لأنَّ الطَّريقة في أصلها واحدة وليستْ متعدِّدة، وليست العِبرة بالأسماء، وطُرُق التَّربية لها غاية واحدة وهي الوصول إلىٰ معرفة الله، فالطَّريق الذي يُوصِلك إلىٰ معرفة ربِّك فذلك هو طريقك.

وأمَّا فيما يخصُّ مفهوم الطَّريق، فالطَّريق هو الإسلام وليس أمرًا زائدًا عن ذلك، وكلُّ مَن يقول: بأنَّ طريقتَه المُتَمسِّك بها غير الإسلام فهو كاذِب وطريقته فاسدة، فالطَّريقة هي الإسلام ذاته، ولكن بمعناه الحسِّيِّ والمعنويِّ، وليس بمعناه الحسِّيِّ فقط، وكما يقول العالم الفاضل ابن عاشر ﵀:

(فصل) وطاعةُ الجوارحِ الجميع قَولًا وفعلًا هو الإسلامُ الرَّفيع

فالطَّريقة هي الإسلام قولاً وفعلاً، والمُنْتسِبُ لهذه الطَّريقة يتمسَّك بما يطلبه منه الإسلام من الأقوال والأفعال والمعاملات، والشَّيخ يبيِّن له ما يقصِده بهذه الأعمال، لأنَّ المقاصد تختلف من شخص إلىٰ آخر، وقد تكون هذه المقاصد

عائقًا له عن البلوغ إلىٰ معرفة الله والتَّقَرُّب منه فالشَّيخ العارف بالله يُصحِّح للمُريد هذه الوضعية، لتكون كلَّ أفعاله خالصة لله دون سواه، ويوجِّهه إلىٰ أن يُصلِّي لله، ولا يكون له غرض من صلاته إلاَّ وجه الله الكريم، ويكون دائمًا علىٰ صِلة قويَّة بربِّه، وهذه هي الحِكمة من الصَّلاة، ولهذا سُمِّيت بهذا الاسم، لأنَّها صِلة بين العبد وربِّه.

وكلُّ صلاة لا تصِلك بربِّك فهي قطيعة -والعياذ بالله- ولهذا أوصانا النَّبيُّ ﷺ عندما نقيم الصَّلاة ونقول: قد قامت الصَّلاة نقول بعدها: أقامها الله وأدامها، لأنَّ الصَّلاة صِلة بين العبد وربِّه لا تنقطع أبدًا، ولكن متىٰ تظهر هذه الصَّلاة؟ إنها تظهر بعد الخروج منها فأنت تستطيع أن تعرِف نفسك بعد انتهائك من صلاتك هل أنت مُتَّصِلٌ بربِّك أم منقطع عنه، وليس المقصود بالصَّلاة هنا الصَّلاة التي يُصلِّيها الإنسان في المسجد ثُمَّ يخرج ليتصرَّفَ علىٰ هواه، وهذا الغالب علىٰ البعض الذي ينطلق بعد الصَّلاة حُرًّا يفعل ما يشاء، وهذا أمر غير صحيح، لأنَّ الإسلامَ كلٌّ لا يتجزَّأ، وحياة المُسلِم مربوطة بالإسلام من الميلاد إلىٰ الممات، وورد في الأثر: «اطْلُبُوا العِلْمَ من المَهْد إلىٰ اللَّحد».

وما هو هذا العِلْم الذي يجب علينا أنْ نطلبَه من المهد إلىٰ اللَّحد؟ إنَّه العِلْم بالله ومعرفته ومعرفة مُتطلِّبات الإسلام والإيمان والإحسان، والطَّريقة هي أفعال الإسلام كاملة، وللدِّين ثلاثة أركان: إسلام وإيمان وإحسان، ولكنَّ أغلب النَّاس مُتوقِّفون عند مرتبتي الإسلام والإيمان، والقليل منهم من يلتفتُ إلىٰ مقام الإحسان ويهتمُّ به.

ولو سألنا أحدًا عن الإحسان لاكتفىٰ بسرد بعض الأحاديث كقوله ﷺ: **«الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ، فإنْ لم تكنْ تَرَاهُ فإنَّه يراكَ»**[1]، وقوله ﷺ: **«إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ علىٰ كلِّ شيء، فإذا قتلتُم فأحسِنوا القِتلة، وإذا ذبحْتُم**

(1) رواه البخاري ومُسلم وأحمد وغيرهم.

فأحسِنوا الذِّبحة، وليُحِدّ أحدُكم شفرتَه وليُرِحْ ذبيحتَه»[1]، والحديثان السَّابقان اشتملا علىٰ تعريف مقام الإحسان، فكيف نتحقَّق بهذا المقام؟ والحقيقة أنَّ هذا المقام من مقامات الدِّين لا يعيشه إلاَّ مَن جاهد نفسه وهواه في الله، ولذا ورد أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِل أي الجهاد أفضل؟ فقال: «**أنْ تُجاهِدَ نفْسَك وهواك في ذاتِ الله**»[2].

إنَّ هناك الكثير ممَّن يُنكِرُ علىٰ أهل الله الذَّاكرين ويعيبُ طريقتهم، وذلك بسبب جهله لما هم عليه، وهذا طبيعي لأنَّ المرء عدوٌّ لما جهِل، ونحن لا نقول أنَّه ليس هناك انحرافات واقعة من أهل الطُّرق، لأنَّ كلَّ طوائف المُسلِمين فيهم الغثُّ والسَّمينُ، فبعض أهل الطَّريق ظهرتْ فيهم بعض الانحرافات عن منهج الحقِّ، ومن جملة تلك الانحرافات اعتقادهم بأنَّ الشَّيخ المربِّي الميِّت يمكن له أن يُربِّي المُريدين، وهذا غير صحيح البتَّة، لأنَّ التَّربيةَ الرُّوحيَّة تحتاج إلىٰ مُشافهة.

وهبْ أنَّك قد مِتَّ وتركتَ زوجتك حاملاً فأنجبتْ مولودًا، فهل يمكنك أنْ تربي هذا المولود وأنت ميِّت؟ وهل يصحُّ هذا الأمر؟ لا، فإنَّ ذلك مستحيلٌ، وهكذا فالشَّيخ المُربِّي بعد وفاته لا يمكن أنْ يتولَّىٰ تربية المُريد. وأن يعتقد المرء غير ذلك، يعد اعتقاده فاسد وأمر مرفوض عند العارفين بالله سيِّدي عبد القادر الجيلاني وسيِّدي أحمد التِّيجاني في كلامهما وفي كتبهما، ولكن بعض الأتباع لا يفهمون كلام مشايخهم فينحرفون عن مبادئ الطَّريق ويُضيِّعون أصولها، وقد قال أحد العارفين: «عِلْمُنا هذا إشَارَةٌ فإذا صارَ عِبارةً خَفِي».

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ طريق القوم مبنية في أصلها علىٰ الكتاب والسُّنَّة، ولكن هناك بعض الانحرافات الواقعة في أوساط بعض المُنْتَسِبين إليها، كما وقع ذلك في سائر طبقات الأمَّة، ففي كلِّ فئة من فئات المُسلِمين تجد الغثَّ والسَّمينَ، ولكن هذا الأمر لا ينبغي أنْ يجعلنا نبتعدُ عن الطَّريق علىٰ أساس أنَّ الطُّرق كلها فاسدة، لأنَّ تعميمَ هذا الحُكْم علىٰ الجميع خطأ واضح، وأنت مَحْكُوم عليك بما

(1) رواه مسلم وأبو داود والتِّرمذي وغيرهم بألفاظ متقاربة.

(2) رواه الدَّيلمي.

حكمتَ به علىٰ غيرك، والكثير من النَّاس يحكم علىٰ الأمور بحسب ما يتصوَّر، وكما ورد في القواعد الأصوليَّة: «الحُكْم علىٰ الشَّيء فرْعٌ عن تصوُّرِه».

وكثير منَّا يظنُّ أنَّ التَّصوُّف غريب عن الإسلام، وأمر خارج عنه ومُنعزِل، وهذا غير صحيح، لأنَّ التَّصوُّف هو الإسلام روحًا وجسدًا، وكلمة التَّصوُّف سبَّبَتْ إزعاج لكثير من المُثَقَّفين والمفكرين، وكأنَّ كلمة التَّصوُّف هذه كلمة غريبة عن الإسلام، ولكنَّ الحقيقة أنَّ الإسلام جاء لتصفية البواطن من أمراض النُّفوس، بدليل أنَّ الله ﷻ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

ما معنىٰ يُزكِّيهم؟ أي يُطهِّرهم من دسائس النَّفْس وغوايات الشَّيطان، وكلُّ آية من آيات القرآن الكريم لها عملٌ في الإنسان إذا عاش هذا الإنسان مع هذه الآية، وأمَّا إذا اكتفىٰ بسماعها بأذنيه دون قلبه فلا تفعل فيه شيئًا، لأنَّ الكثير منَّا يقرَا القرآن ولكنَّه لا ينصتُ إليه بقلبه، وإنَّما يسمعه بأذنيه، وشتَّان بين من يسمع القرآن بقلبه ويتفاعل معه، وبين من يسمعه بأذنيه فقط، لأنَّ القرآن كلام الله جلَّ جلاله، وهو يخاطِبك به، ولا ينبغي لك أن تفهم بأنَّه يخاطِب غيرك من النَّاس فقط، بل الحقُّ ﷻ يكلِّمك أنت بالدَّرجة الأولىٰ من خلال القرآن الكريم، ولذا يجب أنْ تتفاعلَ مع هذا القرآن ليتفاعل معك هو أيضًا، ولكن للأسف الشَّديد هذا الشُّعور مفقود عند الكثير منَّا، وهذا ما نحن واقعون فيه.

إذن لو عُدنا إلىٰ سؤالك وقلنا: ما معنىٰ كلمة الطَّريقة؟ فالطَّريقة ببساطة هي الكيفية، فكلُّ نجَّار له كيفية يمتاز بها في عمله، وكلُّ معلِّم له كيفية خاصَّة وأسلوب معيَّن يعلِّم به تلاميذه، وكلُّ طبيب له كيفية يُعالج بها مَرضاه تُسَمَّىٰ طريقته، فكلمةُ الطَّريق ليستْ غريبة، وهي كلمة وردتْ في القرآن الكريم، فقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]، أي أنَّ الله ﷻ سمَّىٰ الشَّريعة طريقة، ومن معاني السُّنَّة الطَّريقة، والذي يُنْكِر الطَّريقة علىٰ عمومها وكأنَّه يردُّ علىٰ الله ﷻ الذي سمَّىٰ ملَّة الإسلام الطَّريقة.

ونجد في سورة الفاتحة -التي نحن مُلزَمُون بقراءتها في كلِّ ركعة من الصَّلاة- قول الله ﷻ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي الطَّريق المستقيم، وكلُّ هذا يدلُّ علىٰ أنَّ المُنتقِدَ الذي يُنْكِر كلمة الطَّريقة لا حجَّة له في ذلك، وأنَّ الخطأ موجود في فهمه للتَّصوُّف وفي تصوُّرِه له.

وفي هذا القدْر كفاية، وإلىٰ لقاء آخر إنْ شاء الله، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

obeikandl.com

الحوار العاشر[1]

في مدينة تمنراست حول منهج التَّربية والسُّلوك

بعد تلاوة مباركة عطِرة للآيات الكريمة التّالية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ [**الأحزاب: 41-44**]، قال مُربِّي المريدين وقدوة السَّالكين الشَّيخ الجليل عليّ تابعيّ رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمُرْسَلِين، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا، **أما بعد**:

أيُّها السَّادة الحاضرون مَن له سؤال أو استفسار أو أمر غامض حول موضوع الطَّريق وميدان التَّربية الرُّوحيَّة والسُّلوك، فليتفضَّل بطرح انشغاله بدون حرج، والباب مفتوح للمناقشة والأسئلة.

السُّؤال الأوّل: ما هو المقصدُ من تحديد مشايخ الصُّوفيَّة أورادًا للمُريدين وتقييِّدها بأعداد مُعيَّنة ثابتة؟

الإجابة: المؤمِن لا يفترُ عن ذِكْرِ الله ﷻ، ولا يدخل إلى أيِّ عمل من أعماله إلاَّ بنيَّة شرعيَّة، وهكذا يجب أنْ تُباشِرَ عملك وأنت ذاكِرٌ، ولا تدخل فيه غافلا عن ربِّك كما يفعل الكثير من النَّاس، والغافل عندما يباشر الدُّنيا يغفل فيها عن الآخرة وعن الله تمامًا، بينما المؤمن الذَّاكر لا يغفل أثناء عمله عن الآخرة وعن ربِّه، لأنَّ الدُّنيا والآخرة عند المؤمن سِيَّان، والأصل أنَّ الدُّنيا تُوصِل إلى الآخرة، والآخرة توصِل إلى الله، وإذا لم ترتبط الدُّنيا بالآخرة فهي مفسدة.

(1) جرى حوار مدينة تمنراست في شهر نوفمبر 2004م.

ووجودك في هذه الدُّنيا مِنَّة عليك من الله، لأنّ الدُّنيا لله ومملوكة له، والعبد فيها لخالِقِه ومولاه، فإذا تحرَّك هذا العبد في الدُّنيا تحرَّك في أرض الله وباقتدار من الله، وبفعل الله المخْلُوق منه والمُكْتَسَبُ من العبد، فأين العبد؟ إنَّه غير موجود، ولكن مِن جهل الإنسان أنَّه يظنّ أنَّ هناك فرقًا بين الدُّنيا والآخرة، وهذا غير صحيح، وقد ورد في الأثر: «نعمَت الدُّنيا مَطِيَّةُ المؤمِن، عليها يبلغُ الخيرَ وبهَا ينْجُو من الشَّرِّ»، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**الدُّنْيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلاَّ ذِكْر الله وما والاه أو عالِمًا أو مُتَعلِّمًا**»[1].

إذن ينبغي للمُريد أنْ يكون ذاكِرًا لربِّه وعلىٰ صِلة دائمة به، والشَّيخ المربّي بالنِّسبة للمُريد يُعْتَبَرُ بمثابة الطَّبيب للمريض، وقد يحدِّدُ لكلِّ مُريد ما يناسِب حاله ووضعه من الأوراد والأذكار، وهكذا كان شأن رسول الله ﷺ مع الصَّحابة (رضي الله عنهم جميعًا) حيث كان يأتيه أحدهم يريد أنْ يصومَ الدَّهر فيمنعه، ويأمره بأنْ يصوم يومًا ويُفطر يومًا.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أُخْبر رسول الله ﷺ أنَّه يقول: لأقومنَّ اللَّيل ولأصومنَّ النَّهار ما عِشتُ، فقال رسول الله ﷺ: «**آنتَ الذي تقولُ ذلك؟ فقلتُ له: قد قلتُه يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: فإنّك لا تستطيع ذلك، فصُم وأفطِر، ونَمْ وقُمْ، وصُمْ من الشَّهر ثلاثة أيَّام، فإنَّ الحسنةَ بعشْر أمثالها، وذلك مثل صيامِ الدَّهر، قال: قلتُ: فإنِّي أطيقُ أفضل من ذلك، قال: صُم يوما وأفطِر يومين، قال: قلتُ: فإنِّي أطيقُ أفضل من ذلك يا رسول الله، قال: صُم يوما وأفطِر يومًا، وذلك صيام داود** عليه السلام وهو أعدلُ الصِّيام، قال: قلتُ: فإنِّي أُطيق أفضل من ذلك، قال رسول الله ﷺ: لا أفضلَ من ذلك، قال عبد الله بن عمرو بن العاصّ رضي الله عنهما: لأنْ أكون قد قبلتُ الثَّلاثة أيَّام التي قال رسول الله ﷺ أحبّ إليَّ من أهلي ومالي»[2].

(1) رواه التِّرمذي وابن ماجه وغيرهما، واللَّفظ لابن ماجه.

(2) رواه البخاري ومُسلم وأبو داود والنَّسائي وغيرهم بألفاظ متقاربة.

وهل يُستفاد ممَّا سبق أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يُحبُّ الزِّيادة من الصِّيام للمؤمن؟ لا، ولكنَّه بمثابة الطَّبيب يُراعي كلَّ الجوانب، ولا يهتَمُّ بجانب واحد فقط، لأنَّ جوانب العبادة كثيرة ومنها الصَّلاة والزَّكاة، والصَّوم والحجُّ، والذِّكْر وتلاوة القرآن، وكما أنّ التَّعامل بين النَّاس طاعة وعبادة، بدليل أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**خيرُ النَّاس أنفعُهم للنَّاس**»[1].

إنَّ تحديد الأذكار وضبطها بالعدد وتلقينها للعموم له أصل في الشَّرع، فقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنّهُ لَيُغانُ علىٰ قلبي، وإنِّي لأستغفرُ الله في اليوم مائة مرَّة**»[2]، وقد جاء التَّحديد للأذكار وتقيِّيدها بالعدد في كثير من الأحاديث النَّبوية الشَّريفة، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من قول النَّبيِّ ﷺ: «**من قال: لا إله إلاَّ الله وحدهُ لا شريك لهُ لهُ المُلْك ولهُ الحمدُ وهو علىٰ كلِّ شيء قدير في كلِّ يوم مائة مرَّة كانتْ له عدْلَ عشْر رقابٍ، وكُتِبتْ له مائةُ حسنة، ومُحِيتْ عنه مائةُ سيِّئَة، وكانتْ له حِرْزًا من الشَّيطان يومه ذلك حتَّىٰ يُمْسِي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ ممَّا جاء به إلاَّ أحدٌ عمِل أكثرَ من ذلك**»[3].

السُّؤال الثاني: لقد أمرنا الله ﷻ بذِكْرِهِ في آيات قرآنية كثيرة، وحثَّنا النَّبيُّ ﷺ في أحاديثه الشَّريفة علىٰ الاهتمام بذِكْر الله، فما الدَّاعي إلىٰ الاستعانة بالشَّيخ المربّي واتخاذه كواسطة في التَّعاطي مع هذه الأذكار الواردة في الكتاب والسُّنَّة؟

الإجابة: الواسطة هو النَّبيُّ ﷺ، والله تبارك وتعالىٰ ربط الْكَوْنَ بعضه ببعض، وقد رتَّب السُّنن الكونيَّة ترتيبًا مُحْكمًا، وربط الأسباب بالمسبِّبات، وهذا يعني أنَّ الوسائط لا بدَّ منها، فالإنسان يتوسَّط في معاشه وفي معاملاته، ويتوسَّط في صلاته فيصلِّي وراء إمام لينال بصلاته هذه سبعًا وعشرين درجة، فالإمام هنا يُعَدُّ

(1) رواه القضاعي عن جابر كما في الجامع الصَّغير.
(2) رواه مسلم وأبو داود وأحمد والحاكم وغيرهم.
(3) رواه البخاري ومسلم ومالك وغيرهم.

واسطة، ومن رفض هذه الواسطة فصلَّىٰ وحده مُنفردًا فليس له إلاَّ درجة واحدة، ومن هنا يتَّضِح لنا أنَّه لا يمكن أنْ نرفض الوسائط، ولذلك جاءنا الإسلام وبلغنا بالواسطة، فالنَّبيُّ ﷺ هو الذي بلَّغنا ديننا الإسلام، وقد أوحىٰ الله عزّ وجلَّ إليه وعصمه، لأنَّ الوحي يقتضي العِصمة والطَّهارة الكاملة، ولو انْتَفَتْ هذه العِصْمَةُ لانعدمت الثِّقة في النَّبيِّ ﷺ.

إذن لا بدَّ من الوسائط، والشَّيخ المربّي لم يأمرك بأنْ تذكر فلانا أو فلانًا، ولكنَّه يريد أنْ يعلِّمَك كيف تذكُر الله ﷻ وتواظبَ علىٰ ذلك، ويُعينك علىٰ تزكية نفسك وتخليتها من الرَّذائل وتحليتها بالفضائل، فإنْ رفضتَ الواسطة فستعتريك في طريقك المهالك، ويدخل عليك الشَّيطان فيُفْسِدُ أعمالك، وتتسلَّطُ عليك نفْسُك، وتُشغِلك بشهواتها وحظوظها، وتُبعِدك عن ذِكْرِ الله والإقبال عليه، ومن رفض الواسطة فقد أراد أنْ يسير علىٰ غير سُنن الله الكونية التي رتَّبها ترتيبًا مُحكمًا، فإذا أردتَ أن تتعلَّم كيفية تأدية الصَّلاة، فهل تكتفي بقراءة ذلك في الكتب فتصلِّيها باطلة؟ لا، بل ستلجأ إلىٰ منْ يُعلِّمك الكيفية التي تصحُّ بها صلاتك، وتتعلَّم منه كيف تتصرَّفُ إذا وقع لك سهْوٌ في تلك الصَّلاة، وهكذا تكون قد اضطررتَ إلىٰ الواسطة واتَّخَذْتها، فهل ترفض الصَّلاة أيضًا؟!.

وممَّا سبق يتبيَّن لنا أنَّ الحقَّ ﷻ ربط الأسباب بالمسبِّبات، ورغم أنَّ هذه الأسباب والمسبِّبات مخلوقتان معًا، ولكنَّ الله جعلهما واسطة، فأنت مثلاً عندما تمرض فهل ترفض أنْ تذهب إلىٰ الطَّبيب ليفحصك ويُعطيك دواء؟ فالواسطة بمثابة هذا الأمر، فالشَّيخ العارف بالله له دِراية بالذِّكْر وأسراره، وله معرفة بطرق تعليم الذِّكر، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**طلبُ العِلْم فريضَةٌ علىٰ كُلِّ مُسْلِم**»[1]، ومن يرفض الوسائط فقد رفض سُنن الله الكونيَّة، وهذه نزغة من نزغات الشَّيطان، وقد جاء في الحديث القدسيِّ: «**أنا جليسُ مَن ذَكَرني**»، والذي يرفض الذِّكْر ولا يحبُّ أنْ

(1) رواه ابن ماجه والطَّبراني والبيهقي وغيرهم.

يكون ذاكِرًا لله ﷻ يتبرأ من أن يكون أنيسًا لله، ويريد أن يكون أنيسًا لغير الله، أي أنيسًا للشَّيطان.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36]، ويقول الحقُّ ﷻ في آية أخرىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: 124-126]، ومعنىٰ: أعرض عن ذِكْري: أي رفض ذِكْري، فمن قلتَ له: اذْكُر الله فأبىٰ وقال: لا أذْكُر الله، ولن أرتبط بالذِّكْر، ولن آخذ عهدًا علىٰ ذلك، وأعْرَضَ عن ذِكْر ربِّه، فهو معترضٌ علىٰ مقام الربُّوبيَّة، والله ﷻ يخاطب سائر المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 41-43]، والذِّكْر وآدابه كسائر العلوم، وهو عِلْمٌ يحتاج إلىٰ التَّعلُّم، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: **«إنَّما العِلْم بالتَّعلُّم، وإنَّمَا الحِلْمُ بالتَّحلُّم»**[1].

إذن اتِّخاذ الواسطة سُنَّة من سُنن الكون التي رتَّبها الحقُّ ﷻ ترتيبًا مُحْكمًا، وأنت عندما تريدُ أنْ تحفظ القرآن الكريم فإنَّك ستلتجئُ إلىٰ مُعلِّم ليتولَّىٰ تعليمك ويُشرِف عليك لتحفظ القرآن بإتقان، وهذا المعلِّم يُعَدُّ واسطة، فهل ترفُضُ هذه الواسطة؟ والقرآن كلام الله ﷻ فلماذا لا تتلقَّىٰ هذا الخطاب مباشرة من ربِّ العزَّة جلَّ جلاله؟ إنَّ هذا الأمر غير مُمكن لأنَّه لا طاقة للعبد به، ومِن هنا كان كلام المُنْكِر للوسائط كلاما لا معنىٰ له ولا جدوىٰ منه، وهو كلام يدلُّ علىٰ جهل القائل به، وهو ناتج عن الغفلة عن ذِكْر الله، واتِّباع الشَّيطان وغوايته والرُّكون إلىٰ مجالسة الغافلين الذين يُنْكِرون علىٰ الذَّاكرين شغفهم بذِكْر ربِّهم، ويعتبرون ذِكْر الله من الخرافات.

---

(1) رواه الطَّبراني في المُعْجم الكبير.

وهل ذكْرُ الله خُرافة؟! لا، بل ذِكْرُ الله ﷻ مطلوب مِن كلِّ مُسْلم، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ يقول الله تعالىٰ في حديث قدسيٍّ: «**أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَني، فإنْ ذكَرني في نفْسِه ذكرتُه في نفْسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرتُه في ملإ خيرٍ منهم، وإنْ تقرَّب إليَّ بشبر تقرّبتُ إليه ذِراعًا، وإن تقرّب إليَّ ذِراعا تقرّبتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً**»[1].

إنَّنا مرتبطون بالله ﷻ ارتباطًا وثيقًا، ولن نرحل من الدُّنيا إلاَّ إليه، ولذا علينا أنْ نقتدي بعباد الله الصَّالحين المُتَّقين المُهتدين، وقد قال الله ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس: 21]، فالشَّيخ العارف بالله الذي إذا صحبته أيقظك من غفلتك وأصبحتَ ذاكِرًا لربِّك، وأمَّا إذا صحِبْتَ الغافل عن الله ﷻ فستكون من الغافلين، ويستولي الشَّيطان علىٰ قلبك ولا يفارقك أبدًا.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف: 36]، والعشا: هو عدم البصر باللَّيل، ومعنىٰ مَن يعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحمن أي يعمىٰ ويغفل عن ذِكْرِ الله، ويبتعدُ عنه ويُنكره، ومن كانت هذه أوصافه فإنَّ الله ﷻ يسلِّط عليه شيطانا خاصًّا لا يفارقه ليلا ولا نهارًا، ولا يُمكِن دفعه أبدًا، لأنَّه مأمور من قِبل الحقِّ ﷻ ومُرْسَلٌ من طرفه، ليكون قرينا للغافل عن الذِّكْرِ.

وممَّا سبق الحديث عنه يتَّضِح لنا أنَّ الوسائط لا بدَّ منها، ولكن هذه الوسائط ليست حجابًا بين العبد وربِّه، وإنَّما حجاب العبد علىٰ الله سببه إقامة العبد مع نفْسِه وانعزاله عن ربِّه، والدَّليل علىٰ أنَّ الإنسانَ مُقيمٌ مع نفْسِه غفلتُه عن ذِكْرِ الله ﷻ وعدم رغبته في أنْ يعاهد مولاه علىٰ الالتزام بذِكْر الله عزّ وجلَّ، وإبرام العبد عهدًا مع الله علىٰ طاعته، والاشتغال بذكره هو أساس المبايعة التي اعتادها القوم وليستْ أمرًا آخر.

وقد نبَّهنا الحقُّ ﷻ إلىٰ ضرورة الوفاء بالعهد فقال عزّ من قائل: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: 34]، وعلىٰ الإنسان أنْ يرعىٰ عهوده كلَّها

(1) رواه البخاري ومسلم والتِّرمذي وغيرهم، واللَّفظ للبخاري.

سواء كانت عهودًا لله أو للنَّاس، فإذا نقضْتَ عهدًا مع الله ﷻ فقد ارتكبتَ إثمًا مُبينًا، وإذا لم تَرْعَ عهدك مع عبد من العباد فقد نقضتَ الصِّلة بينك وبينه، وسادتْ عدم الثِّقة بينكما، فلا يثِق أحدكما في الآخر، وهذا يُسبِّب الفرقة بينكما، ورغم كلِّ هذا نحن لا نبالي بعهودنا مع غيرنا، وسيُسأل العبد يوم القيامة علىٰ عهوده التي لم يَفِ بها.

ولنعد إلىٰ الكلام علىٰ الوسائط والأسباب التي ربط الله ﷻ بها سُنن الكون ورتَّبها ترتيبًا مُحْكمًا فنقول: أنّ الأسبابَ مخلوقةٌ لا تنفع ولا تضرُّ، ولا تأتيك بالمنافع، ولا تدفع عنك الأضرار، وإذا وصل أجل أمر ما من الأمور الذي قُدِّر لك، فإمَّا أن يُوصِله الله إليك، أو يوصِلك إليه، فلا يجب أن تخطئ وتغفل عن هذا الشَّأن، وإذا جاءك مَن يُرشدك إلىٰ ذِكْر الله ﷻ، وينصحك بالإقبال علىٰ ربِّك، فلا تستنكِفْ ولا تمتنعْ.

وقد يقول القائل: إنِّي سآخذ أذكارًا مُعيَّنة ممَّا ورد في الكتاب والسُّنَّة وألتزم بها، ولا حاجة لي بمن يُلَقِّنُنِي الذِّكْر ويعلِّمني كيف أذكر، وهذا أمر صحيح وكلام معقول إلىٰ حدٍّ ما، ولكن هذه الأذكار الواردة في الكتاب قد ورد فيها ذكر للأجر والثَّواب الذي يتحصَّل عليه ويناله مَن يلتزم بذِكْرها، وقد تتعلَّق النَّفْس بقضيَّة الأجر والثَّواب، فيصبح الذَّاكر لهذه الأذكار يتاجر مع الله، وكأنَّه يقول له: إن أعطيتني حسنات فسأذكرك، وإنْ لم تعطني حسنات فلن أذْكُرك، وهل هكذا يكون العبدُ الحرُّ مع ربِّه؟!

إنَّ هذه تجارة وليستْ عبادة، وفي الحقيقة إذا قال أحد لربِّه: أعطني أجرًا وثوابًا علىٰ طاعتي وعبادتي فمن حقِّ الله ﷻ أنْ يقول له: سأفحص صلاتك وعبادتك وذِكْرك لنرىٰ هل تستحقُّ علىٰ كلِّ ذلك الأجر والثَّواب، أم تستحقُّ عليها اللَّوم والعِتاب؟ لأنَّ الذِّكْرَ مثلاً إذا كان باللِّسان فقط دون الجَنان، فهو استهزاء بالرُّبوبية، وقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «**المُستَغْفِرُ من الذَّنْب وهو مُصِرٌّ عليه كالمستهزئ بربِّه**»[1].

(1) أخرجه ابن أبي الدُّنيا في كتاب التَّوبة.

وأنت إذا ذكرْتَ مخلوقًا أحضرْتَه في قلبك، وإذا ذكرْتَ ربَّك ذكَرْتَه بلسانك وجعلتَ دنياك في قلبك، وهل هكذا يتعامل العبد مع سيِّده ومولاه؟ لا، لا يليق بالعبد أن يغفل عن ذِكْر ربِّه بلسانه وقلبه، وعليه أنْ يسعىٰ لتحقيق العبودية في نفْسِه لله ﷻ، ومِن أجل هذا يحتاج العبد إلىٰ الواسطة ليعلِّمه كيفية الذِّكْر وآدابه وشروطه، ويأخذ عنه مبادئ السُّلوك، ويتربَّىٰ علىٰ يديه، ويتعلَّم منه الإخلاص لله في الذِّكْر وفي سائر الطَّاعات والعبادات، فما الأمر الذي يُعيقُنا عن الإقبال علىٰ الله، ويخيفنا من الاشتغال بذِكْره؟ وكيف يخاف العبد من ذِكْر ربِّه، ولا يخشىٰ من الانهماك في الغفلة والبُعد عن مولاه وسيِّده؟!

والغافلون كالحيوانات، بل الحيوانات أشرف منهم، لأنَّها تسبِّح بحمد الله وتسجد له مصداقًا لقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: 44]، ويقول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: 15]، وكلُّ ما في الكون من الكائنات يسبِّح بحمد ربِّه وله يسجدُ، فإذا كنتَ غافلا عن ربِّك فليس هناك انسجام بينك وبين هذه الكائنات.

ولقد رزقك الله ﷻ العقل وميَّزك به عن كلِّ الكائنات والمخلوقات، وشرَّفك بهذا العقل لتهتدي إلىٰ سبيل ربِّك القويم ولا تكن من الغافلين الذين قال الحقُّ ﷻ في حقِّهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]، فتمعَّن جيِّدًا وأنصت إلىٰ القرآن، فربُّك يكلِّمُك ويخاطبك فافهم خطابه، فمَن الذين هم كالأنعام؟ إنَّهم القوم الغافلون عن الله ﷻ، ففي كلِّ لحظة تغفل فيها عن ربِّك تكون مقطوعًا عنه ولو كنتَ تأتي بالطَّاعات وتؤدِّي العبادات كالصَّلاة والصَّوم والحجِّ.

لأنَّ البعضَ يشوب عمله قلَّة الإخلاص، ويؤدِّي الطَّاعات تفاخرًا ومباهاة، فمن يساعدك علىٰ التَّخلُّص من هذه الآفات ويُخرِجك من هذه الوضعيات؟ إنَّه الواسطة، وهو الشَّيخ العارف بالله والأستاذ المُربِّي الذي يبصِّرك بعيوب نفسك

ورعونتها، ويُرشِدُك إلىٰ سلوك سبيل ربِّك، ويقيك من المفاسد والمهالِك، ولذا قال العالم الفاضل ابن عاشر رَحِمَهُ اللَّهُ:

يصحبُ شيخًا عارِف المسالِك يقِيهِ في طريقه المهالك

إذن الوسائط والأسباب من سُنن الله ﷻ في الحياة، فنحن في حاجة إلىٰ مُعَلِّم يعلِّمنا العِلْم، وإلىٰ إمام يُصَلِّي بنا، وإلىٰ تاجر يبيع لنا ونشتري منه، وهل تستطيع أنْ تستغني عن الوسائط والأسباب؟ لا، والله ﷻ أمرك بتعاطي الأسباب واستعمال الوسائط، وعندما تدعو الله ﷻ لأمر من الأمور يقول لك: عليك بالأسباب فإذا استنفذتها واضطررتَ إلىٰ الله حقَّ الاضطرار استجاب الله دعاءك مصداقًا لقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 62].

والاضطرار يكون بعد فقد الوسائط واستنفاذ الأسباب، فإنْ كنت مريضًا وذهبتَ إلىٰ الطبيب واستعملتَ الدَّواء وتعاطيتَ كلَّ الأسباب ولم ينفعك شيء من ذلك، فعندئذ يصحُّ اضطرارك إلىٰ الله ﷻ وتتيقَّن من أنَّه لا ملجأ ولا منجىٰ من الله إلاَّ إليه، وتدعوه وأنت في حالة خضوع وافتقار واستسلام إليه، فيُستجاب دعاؤك، ويأتيك الفَرَجُ من قريب إذا كنت صادقًا مع ربِّك، وأمَّا إذا كنت تناجي الحقَّ ﷻ بلسانك وقلبك مشغول بغيره وغافل عنه فلن ينفعك الأمر، لأنَّ منطق الإيمان أنْ تكون مؤمِنا صادقًا في إيمانك قلبًا وقالِبًا، والإيمان ليس كلمة تُقال باللِّسان بل حقيقة يشعر بها القلب ويعيشها ويتيقَّن بها، ولذا يقول العالم الفاضل ابن عاشر رَحِمَهُ اللَّهُ:

الإيمانُ جزْمٌ بالإلهِ والكتُب والرُّسْل والأملاك مع بعْثٍ قرُب
وقدَرٍ كذا صِراطٌ ميزَان حوضُ النّبيِّ جَنَّة ونيران

والمقصود بالجزْم أي الذي لا شكَّ ولا وهم ولا ظنَّ فيه، وهذا هو الإيمان الحقيقي الذي يجب أنْ ينعقدَ القلبُ عليه، ثمَّ إنَّ هذا القلب الذي هو سُلطان البدن يأمر الجوارحَ لتعمل علىٰ مُقْتضىٰ ما انعقد فيه من الإيمان، فالإيمان ليس

كلاما يُقال ويتشدَّق به اللِّسان، وقد يقول أحد: أنا مؤمن فإذا بحثتَ أمره فلا تجد عنده أخلاق الإيمان ولا أوصافه ولا سلوكه، رُوِي عن الحسن البصريِّ قوله: «ليسَ الإيمانُ بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكن هو ما وَقَرَ في القلبِ وصدَّقتُه الأعمال»[1]، ومعنىٰ التَّوقير أي التَّعظيم، وكفاه تعظيما أنَّه إيمان بربِّك خالق الأكوان كلِّها، والمُمِدّ لك بكلِّ ما أنت فيه، والحافظ لك في كلِّ حين، وهو القائل: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: 42].

ولنعُد إلىٰ الكلام علىٰ قضيَّة الواسطة، فإنَّ ما سبق بيانه هو الحقُّ، وعلىٰ المُنْكِر للوسائط والأسباب أنْ لا يغالِط نفسه، وينبغي له أنْ ينقاد إلىٰ هذا الحقِّ، لأنَّ من طبيعة المؤمن الانقياد إلىٰ الحقِّ إذا ظهر له واتَّضح، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «...**إنَّما المُؤمِن كالجَمَلِ الأنِفِ حيثما قيدَ انقادَ**»[2]، والويل للذي لا ينقاد إلىٰ الخير ولا يقبَله، ولا خير في من لا يقبَل النَّصيحة ولا يعمل بها، ومن كلام الصَّالحين قولهم: «ألْسِنَةُ الخَلْق أقْلامُ البَارِي»، فالمؤمن العاقل إذا دعاه أحد النَّاس إلىٰ الخَيْر ينبغي عليه تلبية أمر ذلك الدَّاعي ولو كان أقلَّ منه شأنًا، وإذا دعاك أحد إلىٰ الإقبال علىٰ الله والاشتغال بذِكْرِه فقد دلَّك علىٰ أصل الخَيْر كلِّه، فلا ترفض أمره، ولا تستكبرْ خَشية أنْ يشملك حُكْمُ هذه الآية الكريمة: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ [الزمر: 59].

السُّؤال الثالث: أنا أخاف إنْ عاهدتُ الله علىٰ الالتزام بذِكْرِه وتقيَّدتُ بذلك أنْ لا أفي بما تعهدتُ به فما تقولون في حالتي هذه؟

الإجابة: القيدُ في الحياة ضروريٌّ، لأنَّ الإنْسان إذا لم يتقيَّد بما شرعه الله ﷻ له وبما سنَّه رسول الله ﷺ يُصْبِح كالحيوان يتخبَّط في شهواته الحيوانيَّة علىٰ إطلاقها كالبهيمة، ولم تُصْبِح له قيمة، وقد خرج من عقله واستولتْ عليه نفسه فضاع، وقد قيَّدنا الشَّرع بالأوامر والطَّاعات والعبادات، وفرض الله ﷻ علينا

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(2) رواه ابن ماجه وأحمد والحاكم والطَّبراني.

الصَّلاة، وحدَّد لنا أوقاتًا خاصَّة بها، وعيَّن لنا الرَّسول ﷺ عدد ركعات كلِّ صلاة منها، فلو قال أحدنا: سأصلِّي صلاة الصُّبح أربع ركعات فنقول له: لقد ضيَّعتَ صلاتك وهي مردودة عليك، لأنَّك لم تؤدِّها كما قيَّدك الشَّرع بها وطلبها منك.

وكذلك الأمر بالنِّسبة لمن يخالِف سنَّة النَّبيِّ ﷺ فيصلِّي مثلاً أربع ركعات ناويًا بها تحيَّة المسجد، فصلاته هذه باطلة لا أصل لها، لأنَّها جاءت على غير ما قيَّدنا به رسول الله ﷺ وقد يقول القائل: إنِّي صلَّيتُ صلاة، وقرأتُ فيها القرآن، فلماذا تُرَدُّ عليَّ؟ فنقول: لقد رُفِضَتْ صلاتُك ورُدَّت عليك لأنَّك لم تتقيَّد فيها بما أمرك به الشَّرع ورفضتَ القيد.

السُّؤال الرّابع: هل للذِّكْر أوقاتٌ خاصَّة معلومة؟

الإجابة: الذِّكْر ليس مقيَّدًا بوقت من الأوقات، ولكنَّه مُطْلَق، وللمؤمِن أنْ يذْكُرَ الله ﷻ في كلِّ وقت وحين، وقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يذكرُ الله على كلِّ أحيانه حسبما أخبرتْ به أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، غير أنَّ هناك أوقاتًا ينبغي الاهتمام بالذِّكر فيها أكثر، ولذا قال الله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلٗا﴾ [الإنسان: 25، 26].

وورد عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «**لأنْ أقعدَ مع قوم يذكُرون اللهَ ﷻ من صلاة الغداة إلى أنْ تطلعَ الشَّمس أحبَّ إليَّ مِن أن أعتِق أربع رقابٍ من ولَد إسماعيل** عليه السلام»[1]، والحقيقة أنَّ القرآن كلَّه ذِكْرٌ، ولكنَّك تحتاج في ذِكْرِكَ وقراءتك للقرآن إلى تعليم ولو كنت من حفَّاظ كتاب الله، والقرآن لم ينزل علينا للحفظ، والأصل فيه هو تطبيقه العمليُّ إلاَّ إذا كنتَ ممَّن يحفظ حروفَه ويضيِّع حدوده، وليس هذا المقصود من نزول القرآن الكريم، وإنَّما جاءك هذا القرآن لتلتزِمَ بحدوده قبل حفظ حروفه.

إنَّ من شأن المؤمن العاقل أنْ يستغِلَّ وقته ويعتني به، ويحدِّد أوقاتًا خاصَّة يخلو بربِّه فيناجيه ويذْكُره، وأمَّا الغافل فإنَّه يميل مع هواه ويتَّبع شهوات نفْسِه،

(1) رواه الطَّبراني في كتاب الدُّعاء.

ويشتغل بدنياه ظانًّا منه بأنَّه يُغني نفْسَه، ولكنَّ الله ﷻ لو أراد أن يُفْقِرَ أحدًا من النَّاس وله ملء الأرض ذهبًا لفعل ذلك في أقلِّ مِن طَرْفَةِ عَيْنٍ، لأنَّ الفقر جندٌ من جنود الله يُسلِّطه الله علىٰ من يشاء من عباده، ولا يستطيع أحد أنْ يردَّه عن نفْسِه البتَّة.

وكذلك الشَّأن بالنِّسبة للغنىٰ، فهو جند من جنود الحقِّ ﷻ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالىٰ: «**إنَّ من عبادي منْ لا يُصْلِحُه إلاَّ الغِنَىٰ، ولو أفقرتُه لأفسده ذلك، وإنَّ مِن عبادي من لا يُصْلِحُه إلاَّ الفقْر، ولو أغنيتُه لأفْسده ذلك، وإنَّ من عبادي من لا يُصْلِحه إلاَّ الصِّحة، ولو أسقمتُه لأفسدَه ذلك، وإنّ من عبادي من لا يُصْلحه إلاَّ السَّقم، ولو أصححتُه لأفسده ذلك، إنِّي أدبِّر عبادي، إنِّي بهم خبيرٌ بصيرٌ**»[1].

السُّؤال الخامس: متىٰ يكون العملُ عِبادة؟ وما هي الشُّروط التي يجبُ أنْ تتوفَّر لكي يُصبح العمل عبادة؟

الإجابة: العمل موهبة من الله ونعمة منه يستحقُّ الشُّكر عليها، وإنَّما كان العمل نِعمة من الله لأنَّه هو الذي أقدرك علىٰ عملك هذا، ولستَ أنت العامِل في حقيقة الأمر، ولولا أنَّ الله ﷻ أمدَّك بقدرة منه ما استطعتَ أن تُنْجز أي عمل من الأعمال، ولكن هذا الذي أنعم عليك بالعمل ويسَّره لك وأقدرك عليه، هل تشعُر وتحسُّ به وتذْكُره وتشكرُه أم لا؟ فإن كنتَ تشعرُ بمعيَّة الله أثناء عملك وذاكِرًا له أثناء شُغلِك وشاكرًا له علىٰ ما أنعم به عليك من النِّعم فأنت محمود عند ربِّك، ويُعَدُّ عملك هذا عبادة بشرط أنْ تقفَ في عملك مع ما حدَّده الله لك، ولا تقدم علىٰ أمر حتىٰ تعرِف حُكْمَ الله فيه.

فإنْ كنتَ تاجرًا فيجب عليك أن تتعلَّم شروط التِّجارة التي تتعاطاها وتتعلَّم الحلال والحرام منها، وكذا المكروه والمباح، وإذا كنتَ تغشُّ أثناء عملك فهل يُعَدُّ

(1) ذكر هذا الحديث أبن قيِّم الجوزية في كتاب عدَّة الصَّابرين وذخيرة الشَّاكرين، وقال: «رواه البغوي وغيره».

هذا العمل عبادة؟ لا، إنَّ هذا العمل لا يُعَدُّ عبادة، لأنَّ الغِشَّ حرام في الإسلام، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ غَشَّنَا فليسَ مِنَّا**»[1]، ولا يليق بالمؤمن أنْ تتعلَّق همَّته بحبِّ الدُّنيا فينسىٰ ربَّه ويغفل عن ذِكْرِه، لأنَّه لا يمكن أن يجتمع حبُّ الدُّنيا وحبُّ الله في قلب امرئ مسلم أصلاً، فإذا دخل حبُّ الدُّنيا إلىٰ قلب امرئ مُسلِم خرج منه حبُّ الله ﷻ.

وأصل الخطايا ينشأ مِن حُبِّ الدُّنيا، ولذا جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ قوله: «**حبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئة**»[2]، أي أنَّ أصل كلِّ مصيبة هو حبُّ الدُّنيا والتَّعلُّق بها، لأنَّ الدّنيا أعطاها الله ﷻ للكافر واليهودي والمجوسي ولغيرهم، وأعطاها للحيوانات أيضًا، وهذا يدلُّ علىٰ أن هذه الدُّنيا لا قيمة لها عند الله بدليل ما جاء في حديث رسول الله ﷺ: «**لوْ كانَت الدُّنيا تعْدِل عند الله جناحَ بعُوضَةٍ ما سقَىٰ كافرًا منها شرْبة ماء**»[3]، ولا يستقيم أمر الدُّنيا للمؤمن إلاَّ إذا اتَّخذها عَوْنًا له علىٰ ذكر ربِّه، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**الدُّنْيا ملعونَة، ملعونٌ ما فيها إلاَّ ذِكْر الله ومَا والاهُ وعالِمًا ومُتَعلِّمًا**»[4].

وفي قضيَّة العمل ومتىٰ يكون عبادة بحث كبير، وأنت مأمور بالعمل من قِبل الله ﷻ الذي يقول: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: 105]، وقوله تعالىٰ: اعْمَلوا أمْرٌ بالعمل، ولكن في حدود مُعيِّنة، فالصَّلاة عمل، والتِّجارة عمل، وكلُّ أمر إذا فعلتَه بأمر من الله ﷻ هو عمل تُؤْجَر عليه إذا كنتَ من طلاَّب الأجر.

السُّؤال السادس: إذا أردتُ أنْ أسأل الله ﷻ وأدعوه فهل بيني وبين الله واسطة؟

---

(1) رواه مُسلم وابن ماجه وأحمد وغيرهم.

(2) رواه ابن أبي الدُّنيا في كتاب الزُّهد وذكره الدَّيلمي في الفردوس.

(3) رواه التِّرمذي والطَّبراني وغيرهما.

(4) رواه التِّرمذي والطَّبراني وأبو نعيم في الحِلية.

الإجابة: لا، لا توجد واسطة بينك وبين الله في الدُّعاء، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**إذا دعَا الرَّجُلُ لأخيه بظهْر الغيبِ قالتْ الملائكة: آمِين ولك بمِثْلٍ**»[1]، وجاء في الأثر: «استكْثِروا الدُّعاءَ من الخَلْق، فإنَّ الإنْسان لا يدْري بأيِّ لسانٍ يُرْحَم»، وأنت لا تعلم إنْ كان دعاؤك مقبولاً أم لا، ولذلك ينبغي أنْ تسأل الدُّعاء مِن غيرك من المؤمِنين، عسىٰ أنْ يكون منهم من المقْبولين عند الله فيستجيبُ الله لهم، والمؤمِن يدعو الله ﷻ بمفرده ولكنَّه يسأل من غيره الدُّعاء كذلك، لأنَّك لا تضْمَنُ أن يُقْبَلَ دعاؤك، وحتَّىٰ صلاتك لا تضمن أنْ تكون مقبولة، وخاصَّة إذا كنتَ تطلبُ عليها أجرًا وثوابًا.

السُّؤال السابع: هل الإنسان مُسَيَّر أمْ مخَيَّر؟

الإجابة: الإنسانُ مُخَيَّرٌ في أمور ومُسيَّرٌ في أخرىٰ، وليس هناك إشكالية في هذا الأمر نهائيًا، فهل أنتَ تتصرَّف في قلبك وتتحكَّم في حركاته؟ لا، لأنَّ حركة القلب من الحركات غير الإرادية، بينما حركة اليد حركة إرادية، فأنتَ لك إرادة علىٰ تحريك يدك، ولكن إذا أراد الله أن يشلَّ حركة تلك اليد لفعل ذلك في الحين، وهناك كثير من النَّاس أياديهم مشلولة لا يستطيعون تحريكها، وفي هذا ابتلاء لهم، والله ﷻ يبتلي قومًا ويجعلهم مثالاً شاردًا في الكون ليتَّعِظ به غيرهم وليحافظوا علىٰ أياديهم فلا يعصوا بها ربَّهم، ومَن عصىٰ الله بيده فإنَّه يوشك أنْ تُسلَبَ منه.

لأنَّ الحقَّ ﷻ أنعم عليك بيد، وسخَّرها لك لتحرِّكها كما تشاء وتريد، فأنت بيدك تأكل وتشرب وتلبس لباسك، وكلُّ تلك الحركات نِعَمٌ من ربِّك عليك تستوجب منك الذِّكْر والحمد والشُّكر له ﷻ، وأنت تحرِّك يدك ولكن لا تحرِّكها إلاَّ بإرادة الله القائل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: 29]، والله ﷻ أعطاك إرادة لتحريك يدك إكراما منه، ولو كانت اليد ملْكًا للإنسان وهو

(1) رواه أبو داود.

المتصرِّف فيها، فلماذا لا يصنع النَّاس الذين فقدوا أياديهم أياد مثلها؟ إنَّ ذلك غير ممكن ولو فزع للأمر كلُّ أطبَّاء العالَم وأنفق الملوك كلَّ أموال الدُّنيا.

إذن لا بدَّ أنْ نعرِف أنَّ هناك أمورًا يُختار فيها الإنسانُ، ولذلك يُحاسَب عليها، وهناك أمور لا يتحكَّم فيها كحركة القلب مثلاً غير الإرادية، ولو نظرتَ إلىٰ الجهاز الهضمي في جسمك، فهل لك إرادة في عمله والقيام بوظيفته، وهل تعرف عنه شيئًا؟ وبمجرَّد أن تضع لقمة في فمك تبدأ كلٌّ من الأضراس والأنياب بالقيام بوظائفها المأمورة والمُكَلَّفة بها وأنت لا تعرِف عن الأمر شيئًا، وهذه مِنَّة من الله ﷻ عليك، فلا تنسب تلك النِّعم إليك فتكن من الجاحدين لنِعَم ربِّهم.

السُّؤال الثامن: سيِّدي الشَّيخ المحترم، إذا كان للمُريد وِرْدًا صباحًا ومساء ولكنَّه يتخلَّف عن أدائه لعذر شرعيٍّ فما هو الحلُّ؟

الإجابة: إذا تخلَّف المُريد عن الإتيان بوِرده لضرورة فقد قال العلماء: عليه أن يُدرِكَه في وقت فراغه، لأن في الذِّكر حصانة من الشَّيطان، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَن قال: لا إله إلاَّ الله وحدهُ لا شريك لهُ لهُ المُلْك ولهُ الحمدُ وهو علىٰ كلِّ شيء قدير في كلّ يوم مائة مرَّة، كانتْ له عدْلَ عشْر رقابٍ، وكُتِبتْ له مائةُ حسنة، ومُحِيتْ عنه مائةُ سيِّئَة، وكانتْ له حِرْزًا من الشَّيطان يومه ذلك حتَّىٰ يُمْسِي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ ممَّا جاء به إلاَّ أحدٌ عمِل أكثرَ من ذلك**»[1].

وقال النَّبيُّ ﷺ في حديث آخر: «**لأن أذكُر اللهَ مع قوم بعد صلاة الفجْر إلىٰ طلوعِ الشَّمس أحبّ إليَّ من الدّنيا وما فيها، ولأنْ أذكُر الله مع قوم بعد صلاة العصر إلىٰ أن تغيبَ الشَّمْسُ أحبّ إليّ من الدّنيا وما فيها**»[2]، وقد جاء في الشَّرع ما يُفيد بإطلاق الذِّكْر من جهة استغراق الزَّمان والمكان، وهذا لا ينافي تقيِّيد هذا الذِّكْر بأوقات مُعيَّنة، والحديث السَّابق يدلُّ علىٰ هذا، فقد حدَّد فيه النَّبيُّ ﷺ زمنا للذِّكر.

(1) رواه مالك والبخاري ومسلم والتِّرمذي وغيرهم.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

فإذا دلَّك الشَّيخ المربّي علىٰ ذِكْر الله وأمرك به صباحًا ومساء فقد يبدو لك في نظرك أنَّه قد قيَّدك، وهذا الأمر غير صحيح، ولكنَّ الشَّيخ المربّي في الحقيقة حوَّلك من جليس لما سوىٰ الله إلىٰ جليس لله، وقد جاء في الحديث القُدسيِّ: «**أنا جليسُ مَن ذَكَرَني**»[1]، وهذه نِعمة عظيمة وجليلة من النِّعم يستحقُّ الحقُّ ﷻ عليها الحمد والشُّكر، ويستحقُّ الشَّيخ المربّي عليها الثَّناء، لأنَّه هو الذي أرشدك ودلَّك علىٰ ذِكْر الله ونصحك به، وقد قال الرَّسول ﷺ: «**مَن لمْ يشْكُر النَّاسَ لم يشْكُر الله**»[2].

إنَّ ذِكْرَ الحقِّ جلَّ جلاله تجارةٌ لن تبور أبدًا، وهذه التِّجارة هي التي تُنْجي صاحبها وتقيه من عذاب النَّار الأليم، وقد قال الله ﷻ مادحًا الذين لا يُشغِلُهم أمرٌ عن ذِكْر الله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ **[النور: 37، 38].**

والرُّجولة ليست ذكورة فقط كما يفهم البعض، وليس كلُّ رجل يلبس لباس الرِّجال رجلًا، وإنما الرِّجال من صَدَق فيهم قول الحقِّ ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ **[الأحزاب: 23]**، والرُّجولة الحقيقيَّة ليستْ هي الرُّجولة الحيوانيَّة التي تشاركنا فيها الحيوانات، وكما أنَّ النَّاس في قضيَّة الرُّجولة يتفاضلون فيما بينهم، فليس الرَّجل الكريم كالبخيل اللَّئيم، والبخيل عديم المروءة فاسد الطَّبع وسيء السُّلوك، وهل يتماثل الرَّجل الصَّادق والرَّجلُ الكاذب بين أفراد الأمَّة؟ لا، لأنَّ الكذَّاب منافِق، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ **[النساء: 145].**

---

(1) رواه البيهقي في شُعَبِ الإيمان.

(2) رواه التِّرمذي وأحمد والطَّبراني.

وأمَّا الصَّادق فيرحل به صدقه إلىٰ مقام الصِّدِّيقية، لأنّ الرَّسول ﷺ يقول: «**عليكُم بالصِّدْق فإنَّ الصِّدق يهدي إلىٰ البرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلىٰ الجنَّة، وما يزالُ الرّجل يصدُق ويتحرّىٰ الصِّدق حتّىٰ يُكتبَ عند الله صِدِّيقًا ...**»[1]، والتَّمييز في هذه الأحوال ليس بالشَّكل والمَظهر بل بالجوهر واللُّبِّ، والله ﷻ رتَّب أمور الأكوان ترتيبًا بديعًا مُحْكَمًا، وصنَّف الخلائق تصنيفًا عجيبًا، ذلك لتسود بين النَّاس الرَّاحة والطُّمأنينة، والأخوَّة والألفة، والتَّعاون علىٰ البِرِّ والتّقوىٰ والتَّساند في أعمال الخير، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر.

وهذه المعاملات مربوطة ربطًا وثيقًا بسُنَنٍ كونية لا يستطيع أن يَنْفَكَّ عنها أحد، ولا يقدِر علىٰ تغييرها، لأنَّ الله ﷻ سمَّىٰ نفسه القهَّار، وهو يقهر كلَّ من يتجبَّر أو يطغىٰ، وهو الفعَّال لما يُريد، ولا رادَّ لحُكْمه، يتحكَّم في كلِّ الأمور، ولا يغلبه أحد لا بعِلْمه ولا بقوة فهمه ولا برجاحة عقله، والله قاهر فوق كلِّ عباده، ويستطيع أنْ يسلبَ المرء عقله ويتركه مجنونًا، فلا تنفعه حيلة ولا يَرُدُّ له عقله أحد، وكأنَّ الحقَّ ﷻ ينبِّهه ويقول له: إنَّ العقل عقلي وهو نِعمة من عندي، فإمَّا أن تعقلني به أو أسلبه منك وأُزيله عنك، وأجعلك عِبرة للمُعْتَبِرين وعِظة للمتَّعِظين.

لأن الابتلاء لا يخصُّ المُبْتَلَىٰ فقط، بل هو ابتلاء لغيره لمن يعتبِر ويتَّعِظ، ولذلك أوصانا النَّبيُّ ﷺ فقال: «**مَن رأىٰ صاحبَ بلاء فقال: الحمدُ لله الذي عافاني ممَّا ابتلاك به وفضَّلني علىٰ كثير ممَّن خَلَقَ تفضيلاً، إلاَّ عُوفِيَ من ذلك البلاء كانَ ما كانَ ما عاشَ**»[2]. ومن العافية استعمال الجوارح في طاعة الله وطلب مرضاته وفي ذِكْر الحقِّ ﷻ والاستئناس به، لأنَّ الذِّكر أشرفُ عبادة في الحياة، وقد جاءت الصَّلاة للذِّكْرِ. وهكذا كلُّ الفرائض التي فرضها الله ﷻ علىٰ عِباده إنَّما

(1) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم بألفاظ متقاربة.

(2) رواه الترمذي وابن ماجه والطَّبراني وغيرهم، واللَّفظ للتِّرمذي.

الهدف منها هو إقامة ذِكْر الله، ورُوِي عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «**إنّما فُرِضَت الصَّلاة، وأُمِر بالحجِّ والطَّواف، وأُشْعِرت المناسك لإقامة ذِكْرِ الله**»[1].

السُّؤال التاسع: بماذا تختلف هذه الطَّريقة عن الطُّرق الأخرىٰ؟

الإجابة: لا اختلاف بين الطُّرق، لأنَّ الطَّريق إلىٰ الله واحد وليس متعدِّدًا، وإنَّما يختلف أسلوب التَّربية من شيخ إلىٰ آخر كمثل ما يختلف المعلِّمون الذين تعرفهم، فكلُّ معلِّم له طريقة يُدَرِّس بها وأسلوب خاصٌّ يوصِل به المعلومات لتلاميذه، ولكن هدف كلِّ هؤلاء المُعلِّمين واحد، وكلُّ مشايخ التَّربية الرُّوحيَّة يريدون أن يصِل مريدوهم إلىٰ معرفة الله ﷻ حسب منهج كلِّ واحد منهم في التَّربية، وهؤلاء المشايخ قد ساروا في الطَّريق وعرفوا مسالكها قبل أن يتصدَّروا لتربية غيرهم.

واتِّخاذ الدَّليل في السُّلوك والتَّربية أمر ضروريٌّ، لأنَّ المسافر الذي يريد سلوك طريق وهو لا يعرف مسالكها لا بدَّ له من صحبة عارف له خِبرة بالطَّريق، حتَّىٰ يُبيِّنَ له منازلها ويقيه مهالكها، ويُجَنِّبه عثراتها ليعود سالمًا غانمًا، وروِيَ عن النَّبيِّ ﷺ قوله: «**التَمِسُوا الرَّفيقَ قبلَ الطَّريق**»[2]، وفي كلِّ منهج من مناهج الحياة، وفي كلِّ طريق من طرق السُّلوك، لا بدَّ لك من رفيق يُعلِّمك مبادئ الطَّريق، ويُبيِّن لك أصولها، فأنت عندما تريد أنْ تحفظ القرآن الكريم فإنَّك تحتاج إلىٰ حافظ مُجِيدٍ لكتاب الله لتأخذ عنه وتتعلَّم علىٰ يديه.

وهكذا الشَّأن بالنِّسبة لطرق التَّربية الرُّوحيَّة، إذ لا بدَّ للمُريد السَّالك من شيخ عارف بمسالك الطَّريق وميادين السَّير فيها وله دراية بمنازلها، يكون له رفيقًا في طريق سلوكه، وأمَّا بالنِّسبة للتَّسميات المختلفة ك«القادريَّة» و«التِّيجانيَّة» و«الرَّحمانيَّة» وغيرها، فهي تسميات تُسمَّىٰ بها الطَّريقة، وتُنْسَبُ إلىٰ الشَّيخ عندما يكثر أتباعه ومريدوه، وتُسمَّىٰ باسمه، وأمَّا منهج الطَّريق فهو مستمدٌّ من الكتاب والسُّنَّة، ومن قال غير هذا فهو كاذب.

---

(1) أخرجه أبو داود والتِّرمذي.

(2) رواه الطَّبراني في الكبير.

إذن لا بدَّ للمُريد من صحبة شيخ عارف بالله يُبصِّره بعيوب نفْسه، ويكون له رفيقًا في سلوكه وسَيْرِه، ويتدرَّج معه في التَّربية في مراتب الصِّدِّيقية التي أشار إليها النَّبيُّ ﷺ في قوله: «...**ومَا يزالُ الرَّجُلُ يصْدُقُ حتَّىٰ يُكتَبَ عند الله صِدِّيقًا**»، وليس هناك أعلىٰ من مرتبة الصِّدِّيقيَّة إلاَّ مرتبة النُّبوَّة، والصِّدق يشمل كلَّ أمور الدِّين، ولذا أمر الحقُّ ﷻ عباده المؤمنين أن يكونوا في معيَّة المُتَّقين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

ولنعد إلىٰ الحديث عن طريق التَّربية والسُّلوك فنقول: إنَّ الهدف من الانتساب إلىٰ طريق التَّربية هو معرفة الله ﷻ، فابحث عن من يُعرِّفك بربِّك، فإذا ظفرتَ به ووجدتَه فعُض عليه بالنَّواجذ، وألزم نفسك به، لأنَّك قلَّما تجد مَن يُعرِّفك بالله ويأخذ بيدك إليه، وما أقلَّ مَن يبحثُ بِصدْق عن معرفة الله، والكثير من النَّاس لا يعتني بقضيَّة معرفة ربِّه، بل يقتنع بعقيدة التَّقليد عقيدة الآباء والأمَّهات، ولا يسعىٰ للانتقال إلىٰ المعرفة الذَّوقية اليقينيَّة، لأنَّ معرفة الله تتعلَّق بإيمان الإنسان وصِدقه في هذا الإيمان وشدَّة يقينه بربِّه.

وهكذا كان الصَّحابة رضي الله عنهم يعيشون الإسلام ويتفاعلون مع الإيمان، فامتلأتْ قلوبهم يقينًا، وأصبحت الأمور عندهم كأنَّها مشاهدة، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من قصَّة الصَّحابيِّ الجليل حنظلة رضي الله عنه، وكان من كتَّاب رسول الله ﷺ قال: «لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَىٰ مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **وَمَا ذَاكَ؟** قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ**

لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلاَئِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلاَثَ مَرَّاتٍ»[1].

هكذا كان الصَّحابة ﷺ يتفاعلون مع دينهم، ويتعلَّمون اليقين من رسول الله ﷺ فيزداد إيمانهم، ويرسخُ في قلوبهم ويثْبتُ، وعن أنس بن مالك ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ خرج يوما فاستقبله شابٌّ من الأنصار يقال له: حارثة بن النُّعمان، فقال له: «كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال: أصبحت مؤمنا حقًّا، قال: فقال رسول الله ﷺ: **انظر ما تقول، فإنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟** قال: فقال: عَزَفَتْ نفْسِي عن الدُّنيا، فأسْهَرْتُ ليلي، وأظْمَأتُ نهاري، وكأنِّي أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا، وكأنِّي أنظر إلىٰ أهل الجنَّة كيف يتزاورون فيها، وكأنِّي أنظر إلىٰ أهل النَّار كيف يتعادون فيها، فقال: فقال له النَّبيُّ ﷺ: **أبْصَرْتَ فَالْزَم، مرتين، عبدٌ نوَّر اللهُ الإيمانَ في قلبه»**[2].

وفي هذا القَدْر كفاية، وإلىٰ لقاء آخر إن شاء الله، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالَمين.

(1) رواه مسلم والتِّرمذي وأحمد وغيرهم.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان بهذا اللَّفظ.

الحِوار الحادي عشر[1]

حول كيفَ العُروجُ إلى الإيمان الذَّوقي الشُّعوري

بعد تلاوة مباركة عطِرة من أحد المقرئين للآيات الكريمة التَّالية: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 41-45]، قال الشَّيخ الجليل عليّ تابعيّ بن الصَّادق رضي الله عنه ما يلي.

❁ ❁ ❁

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمُرسَلين وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليمًا، **أمَّا بَعْدُ**:

إجابة علىٰ السُّؤال التَّالي: كيف يصِلُ المؤمِن إلىٰ حقيقة العقيدة الذَّوقيَّة الشُّعورية؟ أقول وبالله التَّوفيق: يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، قال مجاهد: «أي ليعرفوني»، فمعرفة الله واجبة علىٰ كلِّ مُسلِم ومُسلمة وجوب الفرائض، ولذا قال العالم الفاضل ابن عاشر رحمه الله في نظمه:

أوّلُ واجبٍ علىٰ مَن كُلِّفا ... مُمَكَّنا مِنْ نظَر أنْ يعرِفا
اللَّهَ والرُّسل بالصِّفات ... ممَّا عليه نصبَ الآيات

(1) جرىٰ هذا الحوار بمدينة تمنراست في شهر نوفمبر 2004م.

ومن الصِّفات الواجبة في حقِّ الله ﷻ الوجود، وإذا أثبتَّ الوجود لله ﷻ فقد أثبتَّ العدم لنفْسِك، لأنَّ الإنسانَ لم يكن موجودًا مع الحقِّ جلَّ جلاله الذي يقول: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1]، وهذا يعني أنّ الإنسان كان في مرتبة أكثر من العَدم، لأنَّ العدمَ شيءٌ يُذْكَرُ، وإذا أثبتنا لله الوجود، أثبتنا لما سواه العَدم والفَناء، ولم يكن الإنسان يُذْكَر لا بالفناء ولا بالعَدم، وهذا ما يُعبِّر عنه السَّادة من القوم بالفناء المُطلق. فكيف يصل الإنسان إلىٰ هذه القضية؟

ذلك عن طريق الإيمان الذَّوقي الشُّعوري، وبدون هذا لن يستطيع أحد الوصول إلىٰ ذلك، ولو درس العقيدة بتمامها واستوعب شرحها وفهمها، لأنَّ علىٰ المرء أنْ يرحلَ من المحسوس إلىٰ المعنىٰ، ومن المعنىٰ إلىٰ الذَّوق والغياب حتَّىٰ علىٰ المعنىٰ نفْسِه، وهذا الأمر يتمثَّل في الصَّلاة. فالصَّلاة في حقيقتها صِلة بين العبد وربِّه، وهل الصَّلاة أمر يتعلَّق بداخل الجسد أم بخارجه؟ إنَّ حركة الإنسان في الصَّلاة تعمُّ الجسد كلَّه، فأثناء تأدية الصَّلاة ليست هناك جزئية من الجسد لا تشارك في هذه الصَّلاة، وكلُّ ما في الجسم من الأعضاء الدَّاخلية والخارجية يتحرَّك بمقتضىٰ هذه العبادة، ولأهميَّة الصَّلاة ومكانتها عند الله ﷻ أوصىٰ النَّبيُّ ﷺ بالاهتمام بها والمحافظة علىٰ أدائها، وقد ورد في الحديث: «**كان آخرُ كلامِ رسول الله ﷺ الصَّلاة الصَّلاة، اتَّقُوا الله فيما مَلَكَتْ أيمانكم**»[1].

وممَّا سبق تتبيَّن لنا قيمة الصَّلاة، إذ يندرج في داخلها الدِّين كلُّه بأركانه الثَّلاثة الإسلام والإيمان والإحسان، لأنَّ ثمرة الصَّلاة هي صلة العبد بربِّه، ولكن مع الأسف الكثير منَّا يُصَلِّىٰ وليس بموصول بالله، والبعض منَّا لا يشعر بحقائق الصَّلاة ولا يتفاعل معها، وقد يكون أحد في صلاته بجسده وهو غافل عن ربِّه بقلبه يفكِّر في أولاده وأهله وفي أمواله وفي بيوته، وهذا الأمر يحدث أثناء الصَّلاة، وأمَّا بعد الانتهاء من تأديتها فلا تكاد تظهر ثمارها عند الكثير، والله ﷻ

(1) رواه أبو داود وأحمد والبيهقي وغيرهم.

يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ [العنكبوت: 45]، فلماذا الكثير منَّا لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمُنكر؟ هل التَّعطيل جاء من الصَّلاة أم من المُصَلِّي؟

إنَّ التَّعطيل من المُصَلِّي، لأنَّه جعل صلاته طقوسًا وحركات، وكان فيها مشغولاً عن الله، وملتفتا لما سواه ومعلِّقًا قلبه بغيره، فأين الصَّلاة؟ وأين الصِّلة؟ لا أثر للصَّلاة، لأنَّك بخلتَ نفْسَك أن ترتقي إلىٰ مرتبة الإيمان الذَّوقي الشُّعوري، هذا الإيمان الذي لا يُقرًا في الكتب ولا تتشدَّقُ به الأشداق، ولا يرتقي المرء إليه إلاَّ بسلوك خاصٍّ وآداب خاصَّة، وصحبة الشَّيخ المربِّي العارف بالله الذي يرتقي بالمُريد في مراتب التَّقوىٰ واليقين حتَّىٰ يوصِله إلىٰ مرتبة الإيمان الذَّوقي، وهذه القضية نجدها في القرآن الكريم، فقد قال الله ﷻ مخاطبًا نبيَّه الكريم ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17].

وهذا الخِطاب من الله ﷻ للنَّبيِّ ﷺ مع يقظته الشَّديدة، ورغم كلِّ هذا ينبِّهه الحقُّ جلَّ جلاله وكأنَّه يقول له: إنَّ اليد التي رميتَ بها الحصىٰ هي يدي أنا، وأنا الذي أمددتُك بالحركة التي حرَّكْتَ بها يدك، وأنا الذي ألْهَمْتُك لترمي الحصىٰ في وجوه المُشْرِكين، وأنا الذي شتَّتُ وفرَّقْتُ رِمايتَك حتَّىٰ أصاب التُّرابُ عيون هؤلاء المُشْرِكين، ولو كانت الرَّمية منك لما أصابتْ هدفها، ولذهبتْ أدراج الرِّياح يمينا وشمالاً، ولكن لمَّا كانت هذه الرَّمية مُسَدَّدة من قِبَلِ ربِّك فقد بلغتْ مداها وأصابتْ هدفَها.

إذن عرفنا أنَّ معرفة العبد لربِّه واجبة وجوب الفرائض، والقناعة في معرفة الله ﷻ حِرمان، ولا يجب علىٰ الإنسان أنْ يقتنعَ بظواهر الأمور التي تُقرًا فقط، فهذا لا ينفع، ولا بدَّ علىٰ الإنسان أنْ يتحوَّلَ من إيمان الأقوال إلىٰ الإيمان الذَّوقي الشُّعوريِّ، وهذا المطلوب من المُسلِم ليعرِف الإسلام علىٰ حقيقته، ولو عرف أحد هذا الإسلام بالمعنىٰ الصَّحيح، وأدرك الإيمان بمعناه الحقيقي، لما استطاع أنْ يترك شيئًا ولو قدْر الأنملة من الدِّين، ولهذا الأمر جاءت التَّكاليف، لأنَّك إنْ لم تُكَلَّف فلن تفعل شيئًا، وقد كلَّفك الله ﷻ بالتَّكاليف الشَّرعية، وكأنَّه يقول لك: لا بدَّ

لك من الصِّلة بي، وقد جعلتُ لك محطَّات لهذه الصِّلة، وهي أشكال، ومنها الصَّلاة والذِّكْر، والزَّكاة والصَّدقات.

وفي داخل هذه القضيَّة كلام كثير ليس من حيث شكلها، ولكن من حيث مضمونها الحقيقي الذي يجب أنْ يتفاعل معه المؤمن بحُكْم تفاعله مع الإيمان، ولذلك كان الإمام عليٌّ (رضي الله عنه وكرَّم وجهه) إذا قام لتأدية الصَّلاة اصفرَّ وجهُه، وارتعدتْ فرائصه وتغيَّر حاله، ولو حدث أمر مثل هذا لأحد في مساجدنا لقال جميع الحاضرين: إنَّ هذا لمجنون ويجب نقله إلىٰ المستشفىٰ حالاً، وكان أحد الصَّحابة الكرام (رضي الله عنهم جميعًا) إذا تُليتْ علية آية من كتاب الله يُغْشَىٰ عليه من شدَّة التَّأثُّر بها والتَّفاعل معها، وكان سيِّدي أبو مدين الغوث رضي الله عنه عندما يُؤذِّنُ المؤذِّن للصَّلاة يغيب عن حسِّه، ويفقد شعوره، ولا يفيق من ذلك حتَّىٰ يأتيه المؤذِّن ويُؤذِّن في أذنه مرَّة أخرىٰ، ولماذا يحدث له كلُّ هذا؟ هل هو مجنون؟ لا، ولكنَّ حبَّه لربّه يُغيِّبه عن ذاته، لأنَّنا قلنا: إذا أثبتنا لله الوجود، فقد أثبتنا لغيره العدم.

إنَّ ديننا الإسلام الذي ارتضاه الحقُّ ﷻ لنا دين عظيم، ولكن للأسف الشَّديد قد ضيَّعنا هذا الدِّين، وجعلناه أقوالا نتفوَّهُ بها بألسنتنا، وندرسها ولا نتفاعل معها ولا نعمل بها، ولكنَّ الإسلام له آداب خاصَّة وأخلاق زكيَّة، ومعاملات طيِّبة وحِكَم بليغة تهزُّ الكون هزًّا، ولو تمعنَّا في عبادة الصِّيام مثلاً لرأينا الصَّائم يترك ما كان حلالاً عليه من الطَّعام والشَّراب والجِماع فلماذا يترك كلَّ ذلك؟ لأنَّ الصِّيام عملية تدريبيَّة للمُسلِم حتَّىٰ يُبيَّن الله تبارك وتعالىٰ له أنَّ الإسلام بكامله مُتمثِّل في هذا الشَّهر المُسَمَّىٰ شهر رمضان، فالله تبارك وتعالىٰ يُعلِّمك بأنَّ هذا هو الإسلام، فنهارك صِيام وليلك قِيام، ونومك في رمضان عبادة إذا كان لك شعور بالإسلام وليس كنومك في غير رمضان، لأنَّ نومك في غير شهر الصِّيام قد يكون نوم شهوة.

وقد نبَّهك الشَّرع كيف تتعامل في رمضان مع من يسبُّك ويُؤذيك، وذلك بأن تقول له: إنِّي صائم، إنِّي صائم، وهل يُطلَبُ منك أنْ لا تسُبَّ النَّاس في رمضان

فقط، فإذا انقضىٰ صيامك أُبيح لك سبُّ وشتْمُ الآخرين؟ لا، ولكنَّك كنتَ أثناء صيامك في حالة تدريب وترويض للنَّفس يعلِّمك فيه الإسلام كيف تصوم عن ما سوىٰ الله، لتُصلِح من شأنك وتعرِف حقيقة الإسلام فتُحبّه وتعشقه ولا تلتفت لما سواه أصلاً، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، ولعلَّكم في هذا المحلِّ للتَّحقيق، أي لتتَّقوا وتتحقَّقوا بالتَّقوىٰ.

وهل أنت دخلتَ في عبادة الصِّيام وأنت علىٰ غير تقوىٰ من الله؟ لا، لقد دخلتَ في الصِّيام وأنت متقٍّ لله، ولولا تقواك ما صمتَ، ولكنَّ في الآية إشارة إلىٰ أنَّك إذا أردت أن تعرِف حقيقة التَّقوىٰ فهي مُجَسَّمة في الصِّيام، فمن أجل الله تترك الحلال في رمضان، فكيف لا تترك في غير شهر الصِّيام الحرام والمكروه؟ فإن لم ترتدع عن ذلك فإنَّك لم تُدرك حقيقة رمضان وحِكمة الصِّيام فيه، وإذا كنتَ بعد انقضاء شهر رمضان تُبيح لنفسك كلَّ ما تهواه وتشتهيه، فإنَّك لم تأخذ العِبرة من عبادة الصِّيام التي تشتمل علىٰ أسرار عجيبة.

ولو عرف المرء حقيقة أركان الدِّين لتمنَّىٰ أن يكون في كلِّ لحظات حياته بين يدي ربِّه، ولكنَّه مع الأسف الشَّديد لم يُدركها ولم يعرف حقيقتها، والكثير منَّا يتعلَّل بالدُّنيا ويتعلَّق بها، ويهتَمُّ اهتمامًا بالغًا بقضيَّة الرِّزق، وهل الرِّزق بيد الدُّنيا أم بيد الله؟ وهل الرِّزق بيد الإنسان أم بيد الله؟ وقد نبَّهنا الحقُّ ﷻ بأنَّه هو الرزَّاقُ فقال عزَّ من قائل: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: 36]. وقد هيَّأ الله لك الأسباب، ولكنَّ هذه الأسباب ليست هي التي تأتيك بالرِّزق أو تدفعه عنك، لأنَّ تلك الأسباب مخلوقة مثلك لا تنفع ولا تضرُّ، وإذا اعتقدتَ بأنَّها هي التي تأتيك بالرِّزق أو تدفعه عنك فأنت مُشرِك بالله، لأنَّ الله ﷻ جعل الأسباب سُننا كونيَّة لتتحقَّق بها العلاقات البشرية الرَّبَّانيَّة، وليستْ العلاقات الحيوانيَّة الشَّهوانيَّة.

ولو دخلنا في أعماق الدِّين ورحلنا إلىٰ الإيمان الذَّوقي الشُّعوري لأدركنا حقيقة هذا الدِّين، لأنَّ الإسلام لا يُؤخذ كقشور، بل كحقيقة يعيشها الإنسان، وهكذا ورد في الحديث تعريف الإحسان علىٰ لسان النَّبيِّ ﷺ فقال: «**الإِحْسَانُ أَنْ تعبُدَ اللهَ كأَنَّك تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ**»، وقد تقول لك نفْسُك: وأين ربُّك الذي ستراه، لأنَّ النَّفْس تطلب الكيفية، وقد قال الله ﷻ: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: 103]، فإن أدرك اللهُ الأبصارَ رَأَتْهُ، وأمَّا إذا أردتَ أن تجعل لنفَسِك مكانة مع الموجود فلنْ تراه أبدًا، لأنَّك انعزلتَ عنه، فإثباتك لوجود نفْسِك انعزالٌ عن الله.

واسمحوا لي أن أقول لكم: الإسلام نورٌ علىٰ نور، وكلُّ تعليمة من تعاليمه نور بالنِّسبة للمُسلِم لو فهمها وذاق سِرَّها، ولكنَّ مع الأسف أصبح الكثير يَعُدُّ تعاليم الإسلام أقوالا تُقال وأحاديثَ تُنْقَل ودروسًا تُلقىٰ، والحقيقة أنَّ التَّعاليم الإسلاميَّة إنَّما جاءت للعمل بها ولتطبيقها في حياة المُسلِم، ولذلك يقول العالم الفاضل ابن عاشر رَحِمَهُ اللهُ:

(فصلٌ) وطاعةُ الجوارحِ الجميع قولًا وفِعْلا هو الإسلامُ الرَّفِيع

ولو تكلَّمنا علىٰ الفِعل كيف يفعل في جسم الإنسان، وكيف يُؤثِّر فيه، لرأينا العجب، لأنَّ القول جاء وسيلة للفعل، والفعل جاء لتحقيق ثمرة ذلك الفعل، لأنَّ فعلَك مخلُوق لله وليس لك فيه إلاَّ الكسب، وقد نُسِب إليك تكريمًا ومجازًا وليس حقيقة، لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [التكوير: 29]، فإذا نسبتَ أنت الفعل لنفْسك، وكنتَ تعتقِدُ أنَّ طاعتك لربِّك هي بمثابة هدية كطبق تمر تُقدِّمه لله، فأنت قد أخطأتَ الفهم وجانبتَ الصَّواب، والحقيقة أنَّ الله تبارك وتعالىٰ هو الذي ألهمك لتكون مُصَلِّيا، وألبسك لباسًا وسمَّاه الصَّلاة، وقال لك: هذه صِلَتُك بي، وإيَّاك أنْ تقطع الصِّلة بي.

ولكن هل يجب علينا أنْ نكون موصولين بالله حين نقوم في الصَّلاة فقط، فإذا انتهتْ هذه الصَّلاة ننقطع عنه وننعزِل ونفعل ما نريد؟ لا، بل يجب أنْ تكون صِلتنا بالله

دائمة، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: 19-23].

إذن يجب علينا أنْ نكون علىٰ صِلة دائمة بالله، وذلك لكي لا تُصبِح أمورنا شكلية ونبتعدَ عن تعاليم الإسلام، ونصبح نفرُّ من كلِّ العلاقات التي توصلنا إلىٰ معرفة الله، وهذا وضع غير سوِيٍّ، ولذا لا ينبغي أنْ يحجِزنا أو يُعيقنا أيُّ أمر من الأمور علىٰ معرفة الله، بل نسعىٰ جادِّين لطلب العِلْم ومدارسته والعمل به مُخلِصين لله، لأنَّ العِلْمَ صفة من صفات الله يُمِدُّ بها من يشاء من عباده المتَّقين، وقد قال الحقُّ ﷻ: «﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: 1]، ولم يقل الحقُّ ﷻ: «اقرَ باسم نفْسِك أو باسم عِلْمك أو باسم العالِم الذي يعلِّمك، بل قال لك: اقرَ باسمه هو لا باسم غيره، لأنَّك لا تستطيع أنْ تقرَ بدون اسمه.

أتقرَ باسمه ولا تشعر به؟! وهل يصِحُّ هذا؟ وأنت عندما تذكُرُ شخصًا ما، فإنَّ قلبَك يصير مُتعلِّقًا به، وفِكرك يكون مشغولاً به، ولكن عندما يتعلَّق الأمر بربِّك تغفَل عن هذه القضيَّة وتُهملها، وذلك لأنَّ الشَّيطان يقول لك: هذا القلبُ الذي تريد أنْ تجعله لمولاك سأجعل فيه فلانا وفلانًا، وسأشغلك عن ربِّك. ولذا يجب علينا أنْ ننتبه إلىٰ هذا الأمر.

والحقيقة أنَّ القرآن لا يُقرَ وإنَّما يُتلقَّىٰ من الله مباشرة، لأنَّه كلام الحقِّ جلَّ جلاله، والقرآن كتاب له خصوصية تُميِّزه عن غيره من الكُتب، لأنَّ الله ﷻ عندما يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فالله يخاطبك وأنت المُخَاطَبُ، ولكنَّك غافل عن هذا الأمر وترىٰ أنَّك تقرَ القرآن بنفْسِك وتخاطبها، ولا تشعُر بأنَّ الحقَّ جلَّ جلاله هو الذي يخاطِبك، والله ﷻ يُلهمنا رشدنا ويفقِّهنا في ديننا لنفهم حقيقة القرآن ونتفاعل معه في كلِّ حركة من حركاتنا، ونخرج من الغفلة ونرتقي إلىٰ الحضور الدَّائم مع الله.

وكلُّ ذلك لا يكون إلاَّ بالرَّحيل والانتقال إلىٰ الإيمان الذَّوقي الشُّعوري، هذا الإيمان الذي بدونه يبقىٰ المرء يتخبَّط في الغفلات، ويخرج من غفلة إلىٰ

غفلة، وهذا أمر لا يليق بالمؤمن، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ عندما قال: «**إنَّ لنفْسِك عليكَ حقًّا وإنَّ لأهلِك عليكَ حقًّا**» فإنَّه لا يقصِد أنْ نكون من الغافلين عن ربِّنا في تعاملنا مع أنفسنا وأهلينا، بل المقصود من هذا الحديث أنَّ هذه السَّاعة تقوم فيها بشؤون نفْسِك وأهلك لله وليس لغرض من أغراض نفْسِك.

فإذا تعاملتَ مع نفْسِك ومع مَن هم تحت مسؤوليتك لغير الله، ونسبتَ الأمر لنفْسِك، قُطِعْتَ عن ربِّك، وخرجت من الصِّلة به، ووقعتَ في القطيعة، والبعض يفهم الحديث السَّابق خطأ بأنَّ علىٰ المرء أن يجعل لربِّه ساعة، ولنفْسه ساعة يترك لها العنان لتفعل ما تشاء، وهذا المعنىٰ ليس صحيحًا البتَّة، بل المقصود من حقِّ النَّفس هنا أنْ تعتني بها لتؤدِّي ما كلَّفك ربَّك أن تؤديه من التَّكاليف الشَّرعيَّة، وليس المقصود الاعتناء بالنَّفس لتقوىٰ علىٰ شهواتها وضلالتها ومفاسدها، بل لتقوىٰ علىٰ طاعة ربِّها، ولذا أمرنا الرَّسول ﷺ أنْ نذْكُر اسم الله علىٰ كلِّ أمر نريد أنْ نُقدِم علىٰ فعله فقال: «**كُلُّ كلامٍ أو أمرٍ ذي بال لا يُفتحُ بذكْر الله** ﷻ فهو أبْتَر أو قال: أقْطَع»[1].

وفي هذا القدر كفاية، وإلىٰ لقاء آخر إن شاء الله، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالَمين.

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده بهذا اللَّفظ.

الحِوار الثاني عشر[1]

مع المُسْتَفْسِرينَ في لقاء مدينة ورقلة

في مجلس من مجالس الذِّكر العطِرة في الاحتفال الدِّيني الموسمي بمدينة ورقلة وبحضور العارف بالله المُربِّي الفاضل الشَّيخ عليّ تابعيّ رضي الله عنه، طرح أحد الضُّيوف السُّؤال التَّالي الذي تولَّىٰ الشَّيخ الجليل الإجابة عليه:

❁ ❁ ❁

السُّؤال: عندما ينتسبُ المرءُ إلىٰ الطَّريق ويأخذ الميثاق علىٰ الشَّيخ، فهل ينبغي لهذا المُنْتَسِبِ أنْ يُلازمَ الشَّيخ عن قُرْب، أم أنَّ بُعْدَ المسافة عن الشَّيخ المربِّي ليس له تأثير في التَّربية الرُّوحيَّة، بمعنىٰ آخر هل يستطيع شيخ التَّربية أنْ يتولَّىٰ تربية المُريد حتَّىٰ ولو كان بعيدًا عنه حِسِّيًّا؟

الإجابة: هذه القضيَّة قضيَّة كبيرة، وفي هذا السُّؤال أمور كثيرة، وفي الحقيقة فإنَّ مَن يريد الانتساب إلىٰ الطَّريق ويأخذ العهد عن الشَّيخ المرّبي، أنواع وأشكال، ففيهم من يأخذ الطَّريق للتَّبرُّك، وفيهم من يأخذ الطَّريق بنيَّة السُّلوك والتَّربية، وهناك البعض ينتسبُ للطَّريق بنيَّة التَّقليد لغيره، ولكلِّ واحد مِن هؤلاء مقصد ونيَّة في ذلك، وكلٌّ يأخذ علىٰ قدر نيَّته، وكما قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُعْطِي العبدَ علىٰ قدْر نيَّتِه**»[2].

وأمَّا الشُّروط التي يدخلُ بها المرء إلىٰ الطَّريق وينتسِبُ إليها فهي تختلف من شخص لآخر، فإذا انتمىٰ إلىٰ الطَّريق للتَّبرُّك فهذا أمر، وإذا انتمىٰ إليها تقليدًا لغيره من أقاربه وأصحابه فهذا أمر آخر، والذي انتسبَ للطَّريق بنيَّة التَّربية والسُّلوك فهذا له شأن يختلف عمَّن سبقه، ومِن هنا أنت عليك أنْ توضِّح لنا لماذا انتسبتَ إلىٰ

(1) جرىٰ حوار لقاء ورقلة بتاريخ مارس 2005م.

(2) رواه الدَّيلمي من حديث أبي موسىٰ.

الطَّريق، وبأي نيَّة؟ هذا إذا كنتَ قد أخذتَ الطَّريق فعلاً، وأمَّا إذا لم تفعل ذلك، فبأيِّ نيَّة تريد أنْ تأخذَ هذه الطَّريق؟ وما هو هدفك؟ وبعد هذا نبيِّن لك ماذا ستفعل.

ولقد قلنا مرارًا أنَّ الطَّريق هي الإسلام بأركانه الثَّلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، وكلُّ من قال غير هذا فهو كاذِب، وكلُّ ركن من أركان الدِّين السَّابقة تحتاج فيه أنت إلىٰ شيخ مربّي، ولا بدَّ لك من ذلك، لأنَّك لا تستطيع فهمه لوحدك، فهناك أمور تحتاج فيها إلىٰ فقيه، وهناك أمور تحتاج فيها إلىٰ عارف بالله، فالفقيه تأخذ عنه الفقه، والعارف بالله تأخذ عنه المعارف التي يُرقِّيك بها إذا كنتَ أهلا لهذا، والشَّيخ المربّي سيراقبك ويرىٰ هل أنَّ كلامك ينطبق علىٰ فعلك وعلىٰ سلوكك وعلىٰ معاملاتك أم لا؟ وهذا أمر طبيعيٌّ، فأنت ستصبح ولده الرُّوحيّ، والأب لا يجهل ابنه، بل يعرفه معرفة تامَّة، فهو يعرِف كيف يفكِّر، ويعرف توجُّهاته، ولا يخفىٰ عنه أمره.

إذن العلاقة بينك وبين الشَّيخ المربّي مبنيَّة أوَّلاً علىٰ النِّيَّة الصَّادقة والاعتقاد الصَّريح في مجال علم القوم، والخطوة الأولىٰ للمرء في هذا الميدان هي الصِّدق، وبداية من هذا الصِّدق تُفتَح له أبواب التَّوبة، لأنَّ التَّوبة بدون صِدق باطلة، وبدون الصِّدق لا تكون توبتك صحيحة، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: «**التَّوبة تَجُبُّ ما قبلها**»[1]، وهكذا يكون المُنْتَسِبُ إلىٰ الطَّريق علىٰ عِلْمٍ وعلىٰ بيِّنة من أوَّل خطوة.

وللشَّيخ أيضًا علامات، ويوجد الآن كثير من الشُّيوخ، فهناك شيوخ من المُشَعْوِذين، وهناك أنواع وأشكال من الشُّيوخ، فعليك أنْ تكون علىٰ بصيرة قبل أنْ تأخذ علىٰ الشَّيخ، ولا بدَّ أنْ تعرِف هل هذا الشَّيخ أهلٌ للأخذ بيدك وتكون سالكًا علىٰ يديه أم لا؟ وإذا كنتَ لا تعرف فلتسأل عنه أهل هذا الفنِّ والذين يعرفونه، وهم النَّاس المعتقِدون الطَّيِّبون الذين يحبُّون الصَّالحين، فإنَّهم سيجيبونك علىٰ

(1) ذكره ابن كثير في تفسيره.

هذا، لأنَّ هذا الأمر مبنيٌّ علىٰ أسُسٍ مُعيَّنة، وليس كلُّ من يدَّعي المشيخة نُقِرُّ له بذلك وتأخذ عنه، فهذا لا ينفع.

لقد ذكر القومُ في كتبهم علامات واضحة للشَّيخ المربِّي، ووضعوا شروطًا معيَّنة دقيقة في هذا الميدان، فإذا ظهرتْ تلك العلامات وتوفَّرتْ هذه الشُّروط في أحد ما، فهو أهل للمشيخة، وإذا لم تتوفرْ هذه الأمور فيه فهو ليس بشيخ مربّي، وبالتَّالي لا يجب عليك أن تأخذ عنه حتَّىٰ لا تقع في مواقع السُّوء، وقد اختلط الآن الحابل بالنَّابل، وتنوَّعت الاعتقادات حتَّىٰ في المُنْتَسِبين إلىٰ الطَّريق، ولكلٍّ نيَّة في أخذ الطَّريق، ولكنَّ الشَّيخَ المربّي يُفرِّقُ بين هذا وذاك، ويعرِف من جاء للتَّبرُّك، ومن جاء للسُّلوك، ويعرف كذلك من جاء يتلاعب، ولا تفوته هذه القضيَّة، وهذا ليس من باب العِلْم بالمُغَيَّبات، وإنَّما من باب كما يُقال: «اللِّسَانُ يدلُّ علىٰ الجَنان، وما في الجَنان يظهرُ علىٰ اللِّسان»، ولا يجب أنْ تذهب أذهانكم إلىٰ أمور غير حقيقية، لأنَّ المُغَيَّبات أمور لا يعلمُها إلاَّ الله، ولا يعلمُها سواه.

إذن إذا جئت للشَّيخ المربّي بنيَّة السُّلوك فإنَّه هو الذي يحدِّد لك مسارك كالزِّيارات أو الالتزام به والبقاء معه حسب ما يراه من سلوكياتك وتصرُّفاتك، وهذا هو الأمر الذي أستطيع أن أقوله لك مبدئيًّا، وبالنِّسبة لزيارة الشَّيخ فإنَّ السَّادة الصُّوفيَّة يقولون: النَّظر في وجه الشَّيخ يُرقِّي المُريد أكثر من كثير من العبادات، ولكن المقصود هنا النَّظرة الحقيقيَّة الإيمانيَّة، وليست النَّظرة النَّفسيَّة البشرية، فإذا نظرتَ للشَّيخ من منطلق إيمانك وإيمانه بالله فهذا أمر، وإذا نظرتَ إليه من بشريتك لبشريته فذاك أمر آخر.

هذا ما أردتُ أن أضيفه لكلام الذين حاولوا الإجابة علىٰ هذا السُّؤال، ولكن مع الأسف أنَّ الإنسان قد يأتي إلىٰ الطَّريق لأغراض مُعيَّنة ومصالح خاصَّة، وأمر صعب أنْ يخلص المرء نفسه لله، ولا يقدِر علىٰ ذلك إلاَّ الأبطال الذين قال في حقِّهم الحقُّ تبارك وتعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: 37]، هؤلاء هم الصَّادقون.

والاعتقادات مختلفة، وكلٌّ له اعتقاد معيَّن خاصٌّ به، والآن عندما تقول لأحدهم: هيَّا أعلِّمك يقول لك: لقد تعلَّمتُ على الشَّيخ فلان بن فلان الذي مات، ولن أتعلَّم على غيره، وهذا الذي يقول هذا الكلام جاهل، لأنَّ شيخَه المربّي الذي مات لا يستطيع أنْ يعلِّمه، وأمَّا احترامه للشَّيخ الميِّت والدُّعاء له بالرَّحمة والمغفرة والصَّدقة عليه، فهذا أمر مطلوب، لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 237].

وفي هذا القَدْر كفاية، وإلى لقاء آخر إن شاء الله، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

obeikandl.com

obeikandl.com